"مريـــم"..
تكسـر الصليب

حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

الشركة الإسلامية المحدودة

"مريم".. تكسر الصليب — حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

هذا الكتاب

اقتباس من تفسير سورة مريم قام به سيدنا حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه. الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام. ويبحث بالإسهاب في المعتقدات المسيحية مثل: بنوة يسوع المسيح، الكفّارة، الفداء، الثالوث وغيرها، ويرد عليها من كلتا ناحيتي المعقول والمنقول.

"Maryam".. Taksir -us- Saleeb
("Maryam".. Brakes the Cross)

This book is an extract from the commentary of Surah Maryam by Hadhrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmood Ahmad, Khalifatul Masih II, in which the learned author presents a detailed analysis of the Christian beliefs, such as Son-ship of Jesus, Atonement, Salvation & Trinity and refutes them with Powerful arguments supported by logic and Biblical references.


ISBN 185372849-7
9781853728495

تصميم الغلاف: جعفر عودة

" مريم " . .
تكسر الصليب

بقلم:

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﵁

الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود ؑ

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: "مريم".. تكسر الصليب
الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م

“Maryam”.. Taksir -uṣ- Ṣalīb
(“Maryam”.. Brakes the Cross)

An extract from the commentary of Sūrah Mryam

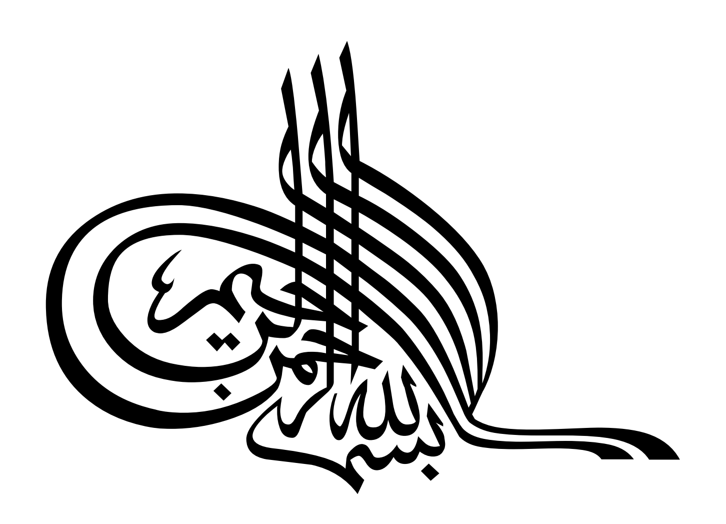
By: Ḥaḍrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
(May Allah be pleased with him) **Khalifatul Masih II**.

Translated in to Arabic from Urdu
By: Abdul Momin Tahir

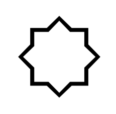
Published by:
Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Islamabad

ISBN: 185372 849 7


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

كلمة الناشر

الحمد لله الواحد الأحد الذي بفضله تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الهادي إلى الطيّبات، الذي أتى بالتوحيد الخالص من السماوات، ومحا طرق الشرك والبدعات.

فلقد اكتسبت العقائد المسيحية صورها الحالية من خلال عملية تغيير وتزييف ممتدة على تاريخ المسيحية كله تقريبًا. لقد تغيرت عقائدها وتحرفت وزيد فيها ونقص وفق الظروف والأحوال وحسب الرغبات والأهواء.

ولكن كل هذا التحريف والتغيير والتزييف لم يمنع أتباع المسيحية قط من محاولات لتوسيع رقعتها والتبشير بهذه العقائد المحرفة التي لا تمتّ إلى الحقيقة ولا إلى العقلانية بصلة. لذلك نرى بين حين وآخر في مختلف بقاع العالم تيارات تبشيرية مسيحية تبرز وتختفي؛ أحيانًا باستغلال الظروف المعادية للإسلام وأحيانا أخرى تحت غطاء الأمن والسلام، مرة بإبراز عاطفة المواساة والخدمة

للإنسانية، وتارةً بإبهار الأبصار بالأموال والثروات، ومرارًا كثيرة بالسياسة والمكر والدجل.

وقد نشطت في الفترة الأخيرة المؤسسات التبشيرية المسيحية صوتًا وصورةً وكتابةً بشكل خطير، وبالأخص في منطقة الشرق الأوسط، بُعيد الدمار الذي حلّ - ولا يزال يحل - بالمسلمين وأراضيهم من قبل "الدجال".. القوى الغربية المسيحية بالتواطؤ مع الصهاينة.

ولقد كانت أهم الأدوات التي حاول المسيحيون بها نشر دينهم هي مهاجمة الإسلام ونبيه ﷺ ومعتقداته من خلال إثارة بعض الشبهات. فقد أدرك المسيحيون أن الإسلام يقف عقبة في طريق تحقيق آمالهم وتطلعاتهم، فجعلوه الهدف الأول والأهم للهجوم.

ولقد وقف كثير من المسلمين مكتوفي الأيدي أمام هذه الحملات المسعورة، وهذا بسبب تشتُّتهم وفُرقتهم، كذلك بسبب عدم امتلاكهم للأسلحة اللازمة من الحجج والبراهين القاطعة التي تكسر هذه العقيدة الباطلة وتقضي عليها.

والحقيقة أن مهمة إبطال هذه المعتقدات الفاسدة وإفشال هذه الحملات المسعورة ضد الإسلام كانت مقدرة لمن بعثه الله تعالى - بحسب نبوءات سيدنا محمد ﷺ - لكسر الصليب وتدمير بنيان عقائد المسيحية المنحرفة، ولكن لا بالسيف والسنان بل بالحجة والبرهان؛ ألا هو مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام، الذي بعثه الله

إمامًا مهديًّا ومسيحًا موعودًا لهذه الأمة. لقد كانت فتن المسيحية وحملاتها التنصيرية على أوجها في الهند، فخرج هذا البطل الوحيد وهزم القساوسة بحيث تركوا الهند ولاذوا بالفرار. كما ألف كتبًا ونشرات تحتوي على أدلة قاطعة على بطلان عقائد النصارى، وعلى صدق الإسلام ونبي الإسلام ﷺ.

وبعد وفاته اتبعت جماعته تحت قيادة خلفائه الخطواتِ نفسها التي خطاها حضرته عليه السلام، فهزمت المسيحية في كل بقاع العالم، إذ هي الجماعة الوحيدة التي تتسلح بعون الله بأسلحة تكفل هدم بنيان العقائد المسيحية الزائفة.

وهذا الكتاب في أصله اقتباس من تفسير سورة "مريم" قام به سيدُنا ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه.. الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام. وهو خير شاهد على ما أسلفنا إذ إنه، إلى جانب مواضيع هامة أخرى، يبحث بشكل مسهب في المعتقدات المسيحية مثل: بنوّة يسوع المسيح، الخطيئة الموروثة، الكفَّارة، الثالوث وغيرها، ويحوي ردًّا قاطعًا عليها من كلتا الناحيتين المعقول والمنقول. وقد أمر سيدنا مرزا مسرور أحمد - نصره الله - الخليفةُ الخامس للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، بنشر هذا البحث في كتاب منفصل. وقد اختار حضرته هذا الاسم للكتاب من بين أسماء عديدية اقترحها بعض الإخوة، حيث إن هذا الاسم يحمل في طيّاته معنًى مباشرًا؛ بحيث إن سورة "مريم"

تقوم بكسر الصليب.. كما يحتوي معاني رمزية كثيرة قد تشعل خيال القارئ وتثير انتباهه.

وقد تشرَّف بترجمة هذا البحث القيم الأستاذ عبد المؤمن طاهر، كما ساهم في مراجعته وإخراجه كل من السادة الأفاضل: تميم أبو دقة، هاني طاهر، د. محمد حاتم الشافعي، عبد المجيد عامر، محمد طاهر نديم، والحافظ عبد الحي بهتي. فجزاهم الله أحسن الجزاء.

ويجدر التنويه إلى أن العناوين الجانبية ليست من الأصل الأردي، وإنما أضيفت من لدن المترجم تيسيرًا على القارئ.

كما أن ترقيم الآيات القرآنية يبدأ بالبسملة من كل سورة.

نسأل اللهَ تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب عبادَه، ويوفّقهم لمعرفة الحق واتّباعه، وأن يجعله شفاء لغليل الكثيرين علميًّا وعمليًّا وروحيًّا. آمين.

الناشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

تسميتها

لقد سُمِّيت هذه السورة "مريم" لأن قصة السيدة مريم عليها السلام هي الحدث الأبرز الذي تتمحور حولــه الأحداث الأخرى المذكورة في هذه السورة. لا شك أن السيدة مريم كانت والدة عيسى عليهما السلام، ولكنها لم تكن من الأنبياء، وكان زكريا وعيسى عليهما السلام أرفع مكانة منها؛ غير أن كل إنسان يكتسب أهميته من منظور خاص. فمثلاً لو أردنا ضرب مثال لشخص آمنَ بنبي على الفور برؤية سيرته الطاهرة نتيجة فراسته وورعه فسنذكر اسم سيدنا أبي بكر ﵁، ولن نذكر اسم رسول الله ﷺ، لأن هذا الأمر لا ينطبق عليه ﷺ، فإنه أسمى مكانة من ذلك. كما أنه مما لا شك فيه أن سيدنا أبا بكر هو أعلى مقامًا من سيدنا علي رضي الله عنهما، إلا أننا لو أردنا ضرب مثال لشاب ذكي فطين أدرك الحق رغم صغر سنه، واستعد للتضحية في سبيله، فلن نذكر اسم سيدنا أبي بكر، بل نذكر اسم سيدنا علي رضي الله عنهما. فبما أن هذه السورة تشير - بشكل عام - إلى أمور تلفت نظر الإنسان إلى

السيدة مريم وإلى الشخصيات المتصفة بالصفات المريمية لذا أُطلق عليها "سورة مريم"، مع أنها تتحدث أيضًا عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس وزكريا ويحيى عليهم السلام.

زمن نزولها

هذه السورة مكية، فكل الصحابة الذين أبدوا رأيهم فيها قد اعتبروها مكية (البخاري: كتاب التفسير، والدر المنثور للسيوطي، ودلائل النبوة للبيهقي). وهذا ما يراه أيضًا الكتّاب الغربيون مثل رودويل (Rodwell) وويري (Wherry) وموير (Muir)، فكل واحد منهم قال بكونها مكية، إلا أنهم قد اختلفوا في ذلك قليلاً. يقول موير إنها نـــزلت في أواخر الفترة المكية قبيل الهجرة وبالتحديد بعد أن سافر رسول الله ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها، ورجع من عندهم جراء قسوتهم وسوء تصرفهم (حياة محمد لموير ص ١٤٨). وقد حصل هذا الحادث في السنة العاشرة من البعثة النبوية.

أما رودويل فيقول إنها مكية بدون أن يحدد سنة نـــزولها (ترجمة القرآن لرودويل).

أما "ويري" فإنه يؤيد ما ورد في التاريخ الإسلامي، ولكنه يحاول، كعادته، أن لا تنفلت من يده فرصة للطعن في القرآن. فإنه يرى أنها نـــزلت في أوائل الفترة المكية، ولكنه يضيف، تظاهرًا

بعلمه، أنها لم تنـــزل في الفترة التي يشير إليها الصحابة، بل نـــزلت بعدها بحوالي سنة.

فكيف، يا تُرى، علم هذا القسيس بذلك وقد وُلد بعد نـــزول القرآن بثلاثة عشر قرنًا؟! إذن فإنه زعم فارغ لا يريد به إلا السخرية والطعن في الإسلام. إنه يرى أن نـــزولها بدأ في أوائل الفترة الثانية للإسلام - ويعني بذلك هجرة الصحابة إلى الحبشة - واستمر نـــزولها لبعض الوقت. وكأنه يحدد نـــزولها في السنة الخامسة والسادسة من البعثة، ولكن بدون أن يقدم على ذلك أي شهادة من التاريخ (تفسير "ويري" للقرآن الكريم).

الحق أن ما ورد في الحديث الشريف بهذا الصدد هو الأساس في تحديد زمن نـــزول هذه السورة، لأن الذين عاشوا مع الرسول ﷺ والذين شاهدوا أحداث ذلك الزمن إنما هم الذين يمكن أن يأتوا بشهادة صحيحة على زمن نـــزول هذه السورة. وليست شهادتهم إلا أنها نـــزلت في أوائل الإسلام. فعن عبد الله بن مسعود ؓ، وهو من أوائل الصحابة، أنه قال في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم: "إنهن من العتاق الأُوَل، وهنّ من تلادي" (البخاري: التفسير، سورة بني إسرائيل).. أي أن سورة مريم هي مما نـــزل في أوائل الإسلام، وأنها من مالي القديم، بمعنى أنه حفظ هذه السورة فيما حفظه حين أسلم في أوائل أيام الإسلام.

فهل، يا تُرى، نصدّق ما يقوله مَن آمن في فجر الإسلام، وحفظ هذه السور عن ظهر قلب، أم نصدّق ما يزعمه هذا القسيس الذي جاء بعد ثلاثة عشر قرنًا؟

هذه شهادة من الناحية الدينية. أما الشهادة التاريخية على كون هذه السورة قد نــزلت لدى فجر الإسلام فهي كالآتي.

لما اشتدت المعارضة، وسعى الأعداء لقمع الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، دعا النبي ﷺ أصحابه وأمرهم بالهجرة من مكة. فقال الصحابة: يا رسول الله، هل ستهاجر أنت معنا؟ فقال: لا، بل أنتظر حتى أتلقى من الله أمرًا واضحًا. أما أنتم فأودّ أن تهاجروا بسبب ما تلقونه من اضطهاد وأذى. قالوا: يا رسول الله، ما هو البلد الذي ترى أن نهاجر إليه حتى ننعم فيه بالأمن؟ فأشار ﷺ بيده إلى جهة الغرب وقال: هنالك بلد فيها ملِكٌ لا يُظلَم عنده أحد. اذهبوا إليه وستجدون عنده الأمن. وكان ﷺ يقصد بلاد الحبشة. فقامت جماعة من الصحابة وجهزوا أنفسهم للهجرة إلى ذلك البلد. وكان جعفر بن أبي طالب، شقيقُ عليّ وابن عم الرسول ﷺ، من بين هؤلاء المهاجرين. ولما هاجروا إلى الحبشة فرح الكفار في أول الأمر وقالوا في أنفسهم: ها قد نجحنا في طرد هذه الشرذمة المسلمة من بيننا، ولكنهم لما رأوا أن النبي ﷺ وأبا بكر وعليًّا وعثمان وغيرهم من الشباب المسلمين المنحدرين من الأُسر الكبيرة لا يزالون يعيشون في مكة، وأن دعوة أهلها إلى

الإسلام لا تزال مستمرة بكل حماس كالمعتاد، قالوا في أنفسهم: إن خروج جماعة من المسلمين من مكة لا يمكن أن يُعَدّ نجاحًا على الإطلاق، بل هو دليل على هزيمتنا، إذ صار بذلك مركزان للإسلام، وأصبحت دعوته تنتشر بين أمتين: بين أهل مكة والمسيحيين، بينما كانت منحصرة من قبل في مكة فقط. كما بلغهم أن المسلمين ينعمون في الحبشة بأمن وراحة، فلا يعتدي عليهم الآن أحد، ولا يضربهم، ولا يؤذيهم، بل يعبدون الله ويذكرونه بحرية، ويكسبون قوتهم في راحة.

فتشاور الكفار وقالوا: لقد أخطأنا خطأ فادحًا إذ شددنا على المسلمين ففروا من بيننا. ولو أنهم أقاموا في أرضنا لقضينا عليهم وقتما شئنا، ولكنهم قد هاجروا الآن إلى بلد آخر، وانفلتوا من أيدينا، وقد ازدادوا قوة بدلاً من أن يضعفوا إذ قد تيسر لهم مركز سينشرون منه الدعاية ضدنا بيسر وسهولة، كما سيحرّضون علينا الدولة المجاورة لنا. فقرروا إرسال وفد إلى الحبشة مع رسالة منهم إلى ملكها فحواها: إنك جارنا، وبيننا وبينك صلات طيبة، ولكن قد لجأ إلى بلدك بعض المتمردين علينا، فاطردهم من بلدك، وردّهم إلينا في مكة. كما بعثوا مع الوفد هدايا وتحفًا للملِك وحاشيته من الأمراء والقسيسين وغيرهم من علية القوم، لتلينَ قلوبهم نحوهم، فيسلّموا إليهم المسلمين.

فذهب الوفد إلى الحبشة. وكان من ضمنه عمرو بن العاص ﵁ الذي لم يكن قد أسلم بعد. وكان عمرو هذا قوي الحجة شديد العارضة، وكان يُبعث دائمًا ضمن الوفود الرسمية من قبل المكيين. فألقى أمام النجاشي ملك الحبشة كلمة مثيرة قال فيها: أيها الملك، أنت جارنا. تحكم بلاد اليمن الذي هو في جوار بلادنا الحجاز، ويتحتم علينا الحفاظ على حقوق الجار. ولكن قد اندلعت الآن فتنة جديدة، إذ قد فر من مكة بعض المتمردين علينا ولجئوا في بلادك، وأنت منحت لهم الأمان، فأخذتنا الحيرة بذلك إذ كيف منحت الأمان لأعدائنا وأنت جارنا. فالمرجو منك أن ترجعهم إلى مكة لكي تبقى العلاقات بيننا وبينك على ما يرام، ولا يصيبها توتر ولا خلل. فقال الملك: سأدعو هؤلاء حالاً، وأسمع منهم موقفهم، وأتخذ القرار.

فدعا الملك المسلمين المهاجرين وسألهم وقال: ما هذا النزاع بينكم؟ قال الصحابة: أيها الملك، ليس بيننا وبينهم نزاع سياسي، وإنما هو اختلاف ديني. لقد بعث الله فينا نبيًّا، فآمنّا به، وهؤلاء لا يسمحون لنا أن نعبد الله تعالى وفق عقيدتنا بحرية، ويتدخلون في أمور ديننا. نريد أن نعبد الله تعالى بطريقتنا، ويريد هؤلاء أن نعبده كما يعبدون، ونحن لا نفعل ذلك، فيغضبون علينا ويضطهدوننا، فجئناك هاربين من وطننا وقومنا.

فكان لهذا الكلام وقع حسن على الملك، فقال لوفد المكيين: إن الاختلاف العقائدي أمر لا بأس به، فلن أرد المسلمين إليكم لهذا السبب. (الكامل في التاريخ لابن الأثير)

ثم توجه إلى المسلمين وقال: عيشوا في بلدي بحرية تامة، واعبدوا الله بحسب عقيدتكم دونما خوف.

ولما سمع الوفد المكي قول الملك قرروا استخدام سلاح الهدايا التي أتوا بها، فقدموا هذه الهدايا لكبار القسيسين البطاركة - والبَطْرَك معرب لكلمة (Petriarch) وتطلق على قسيس كبير تقارب درجته في منطقته درجة البابا - وحرّضوهم على المسلمين قائلين: إن هؤلاء عدو مشترك لنا ولكم، فإن عقائدهم تتعارض مع عقائدكم تعارضًا شديدًا، وإنهم يسيئون إلى المسيح وأمه، ولو سمحتم لهم بالإقامة في بلدكم فسيكون هذا بمنزلة عدائكم للمسيحية.

وكان طبيعيًا أن يثور هؤلاء المسيحيون ضد المسلمين بسماع هذا الكلام، كما يثور الناس ضدنا نحن المسلمين الأحمديين اليوم، فاستشاطوا غضبًا، وقرّروا رفع القضية إلى الملك ثانية في اليوم التالي. وفي الصباح أثار كبار البطاركة والقساوسة هذه المسألة ثانية أمام النجاشي وقد حضر الحاشية فقالوا: أيها الملك، إن القضية ليست سياسية فحسب، بل هي دينية كذلك، فهؤلاء

المسلمون لا يخالفون دين المكيين فقط، بل يخالفون ديننا أيضًا، ويسيئون إلى المسيح وأمه، فلا تسمح لهم بالإقامة في بلدك.

فدعا الملك المسلمين ثانية وقال لهم: بلغني أنكم تسيئون إلى سيدنا المسيح وأمه عليهما السلام؟ هل هذا صحيح؟ فتقدم جعفر بن أبي طالب ﵁ – وهو ابن عم الرسول ﷺ وشقيق سيدنا علي ﵁ – ممثلاً للمسلمين وقال للملك: هل تسمح لي، أيها الملك، أن أقرأ على مسامعك آيات من كتابنا الكريم فيها ذكر المسيح وأمه عليهما السلام، وستعرف بها عقيدتنا عنهما. فقرأ سيدنا جعفر ﵁ أوائل آيات سورة مريم. وبما أن المسيحيين يعتقدون عمومًا أن المسيح إله وأن أمه والدة إله، وبما أن هذه الأفكار الوثنية كانت أكثر انتشارًا في بلاد الحبشة، ثار القساوسة لدى سماع هذه الآيات، وصرخوا قائلين إنها تسيء إلى ربنا المسيح. ولكن الملك كان يعتقد خلاف ذلك – إذ كان من المسيحيين الموحدين المؤمنين بوحدانية الله تعالى، وقد ورد في بعض الروايات أنه كان قد أسلم فيما بعد (البخاري: كتاب الجنائز، والبداية والنهاية لابن كثير، فصل كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي) – فقال لهم: إن ما يقوله المسلمون هو الحق. بل ورد في بعض كتب التاريخ أن الملك أخذ قشة وقال: والله، إن مكانة المسيح وأمه لا تزيد عندي على ما ورد في هذه الآيات مثقال هذه القشة. فثار القسيسون أكثر وهددوا الملك وقالوا: إذا لم تتخذ ضد المسلمين إجراء صارمًا ستندلع ثورة في البلد، وسيتمرد

الشعب عليك. فاستشاط الملك غضبًا وقال: لقد تآمرتم مع عمي ضدي وأنا صغير، وحاولتم إبعادي عن العرش، ولكن الله نصرني ووهب لي الملك. فإني ملكٌ بمحض فضل ربي الذي هزمكم ونصرني عليكم. فهل تظنون أنني سأترك في شبابي ربي الذي نصرني في صغري. فافعلوا ما شئتم، فإني لن أحيد عن العدل والإنصاف. ثم أخرج الملك وفد المكيين خائبين، وودّع المسلمين بإعزاز وإكرام.

إذن فقد اتضح من هذه الأحداث جليًّا أن سورة مريم كانت قد نــزلت قبل الهجرة إلى الحبشة التي حصلت في العام الخامس من البعثة النبوية، وأن هذه السورة كانت معروفة شائعة بين المسلمين إلى ذلك الوقت، حيث قرأها المسلمون المهاجرون أمام ملك الحبشة توضيحًا لعقيدتهم. فثبت أن هذه السورة هي مما نــزل في أوائل الإسلام وقبل الهجرة إلى الحبشة.

(والروايات المذكورة أعلاه قد ذكرها محمد بن إسحاق في سيرته عن أم سلمة، والإمام أحمدُ في مسنده عن ابن مسعود)

وأما المستشرق رودويل Rodwell فيرى أن الآيات رقم ١ إلى ٣٧ من هذه السورة تختلف في أسلوبها عن آيات ٣٥ إلى ٥٧ من سورة آل عمران التي هي الأخرى تتحدث عن الموضوع نفسه. ويزعم رودويل أن محمدًا قد غيَّر الأسلوب في تلك الآيات خوفًا من أن يتهمه العرب بكونه شاعرًا. (ترجمة القرآن لرودويل)

ولكنه زعم باطل تمامًا، لأن كل عاقل يعرف ما هو الشعر، والعرب بالأخص كانوا شهيرين في قرض الشعر، فأنى لهم أن يسموا نثر القرآن شعرًا. الحق أن هؤلاء المستشرقين لم يفهموا حتى اعتراض الكفار، ناهيك عن أن يستوعبوا معارف القرآن الكريم. إن الكفار لم يعترضوا بقولهم للنبي ﷺ "إنك شاعر" على كون القرآن كلامًا موزونًا، وإنما قصدوا به أن القرآن يتحلى بروح الشعر وصبغته. لقد ظن المستشرقون أن ورود كلمات "نديًّا" و"رضيًّا" وغيرهما في هذه السورة جعل الكفار يتهمون محمدًا ﷺ بكونه شاعرًا، مع أنهم قصدوا به أن في وحي القرآن روح الشعر بمعنى أن القرآن يصرف آياته ويبين مراده بأساليب شتى، كما يبين الشاعر مراده بطرق شتى. لقد كان بين العرب شعراء فحول كبار، فأنى لهم أن يعتبروا القرآن شعرًا بمعناه الحقيقي؟

أما مقاتل فيرى أن سورة مريم مكية كلها، ما عدا آية واحدة منها فهي مدنية (روح المعاني).

وعندي أن هذه السورة نـــزلت في أواخر السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة من البعثة النبوية، لأن الثابت تاريخيًّا، كما بينت آنفًا، أن الوفد المكي لما ذهب إلى الحبشة لاسترجاع المسلمين المهاجرين، ورفض الملك طلبهم، حاول الوفد استمالة القسيسين باتهام المسلمين بالإساءة إلى المسيح عليه السلام، فقرأ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أوائل آيات سورة مريم توضيحًا لعقيدة المسلمين

عن المسيح، فاطمأن الملك وصار أشدَّ تمسكًا بموقفه. والهجرة إلى الحبشة هذه حصلت في رجب من السنة الخامسة (الطبقات الكبرى لابن سعد).. أي بعد انقضاء أربعة أعوام ونصف العام على دعوى النبي ﷺ؛ وهذا إذا بدأنا عدّ العام النبوي من شهر محرم، أما إذا بدأناه من منتصف العام، لأن وحي النبوة بدأ نـــزولـــه في شهر رمضان، فتصبح هذه المدة أقل أيضًا. أما أنا فلا أعرف، بالتأكيد، هل كان المؤرخون يعدّون عام البعثة النبوية بدءًا من محرم أم من رمضان؛ فإذا كانوا يبدؤون العد من شهر محرم فتصبح هذه الفترة أربعة أعوام ونصف العام، وإذا كانوا يبدؤونه من رمضان فتصبح هذه الفترة ثلاثة أعوام وعشرة أشهر.

على كل حال، فمن الحقائق الثابتة أن هذه السورة قد نـــزلت قبل الهجرة إلى الحبشة بفترة تمكَّن فيها الصحابة من حفظها عن ظهر قلب. ولا بد أن نعتبر الفترة التي اشتهرت فيها هذه السورة وحفظها الصحابة عن ظهر قلب ستةَ أشهر على الأقل، وبالتالي يصبح زمن نـــزولها أواخر السنة الرابعة من البعثة على الأكثر. علمًا أن نـــزول الوحي على الرسول ﷺ استمر ثلاثة أعوام قبل أن يوجَّه فيه الخطاب إلى المسيحية، ثم بعد مرور ثلاثة أعوام توجّه الخطاب إلى المسيحية فجأة وتفصيلاً في سورة مريم التي تحدثت عن حادثة ولادة المسيح ؑ، وعن الأنباء التي كانت أساسًا لدعواه عند المسيحيين، كما تناولت عقائدَهم والردَّ

عليها مصحوبًا بالأدلة والبراهين. ثم بعد نـــزول هذه السورة بأربعة أو خمسة أشهر وقعت الهجرة إلى بلاد الحبشة التي كانت مملكة مسيحية، والتي بدأت فيها المواجهة المباشرة بين المسيحيين والمسلمين حتى ارتد أحد الصحابة المهاجرين متأثرًا بأقوال المسيحيين وتنصَّرَ، وهو عبيد الله بن جحش (شرح الزرقاني: الهجرة الثانية إلى الحبشة)

آيات وأنباء فيها

فنـــزول سورة مريم في تلك الآونة بالذات يدل صراحة على وجود حكمة ربانية عظيمة تمثّل شهادة كبيرة على صدق القرآن الكريم. لقد وُلد رسول الله ﷺ في مكة التي لم تكن فيها للمسيحية من قوة، وما كان معارضوه على صلة بالمسيحية، اللهم إلا ثلاثة أو أربعة من العبيد المسيحيين الساكنين بينهم والذين لم يكن لهم شأن يُذكَر (روح المعاني والدر المنثور، سورة النحل: ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر). واستمر نـــزول الوحي على رسول الله ﷺ لثلاثة أعوام بعد البعثة من دون أن يتناول موضوع المسيحية بالتفصيل. ثم عند نهاية السنة الرابعة أو في بداية السنة الخامسة تحدث الوحي فجأةً عن المسيحية، وناقشها بالتفصيل والإسهاب؛ فأخبر كيف بدأت المسيحية، وما هي الأنباء التي ظهر المسيح بحسبها، وما هي حقيقة المسيحية إزاء الإسلام. وإن هي إلا أيام قلائل حتى تغيرت الظروف بسرعة، فاضطر النبي ﷺ ليأمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة

التي هي دولة مسيحية. إن هذه الأمور كلها تبين صراحة أن الذي أنــزل هذا الوحي هو الله الذي تعالى يعلم الغيب. فإنه تعالى لم ير حاجة إلى التطرق إلى المسيحية قبل أن تتهيأ الظروف للمواجهة بينها وبين الإسلام، ولكن لما اقترب موعدها، وأوشكت هجرة المسلمين إلى بلد المسيحيين، نبههم الله وأيقظهم، وأخبرهم باقتراب موعد النــزال بين الإسلام والمسيحية، وعلّمهم طريق الجدال مع أهلها؛ فأنــزل بطريق مفاجئ سورةً تنبئ المسلمين بعقائد المسيحية وتعاليمها وحقيقتها الأصلية وغايتها المنشودة.

إذًا، فإن نــزول سورة مريم تضمنَ في طياته نبأ يقينيًّا بالهجرة إلى الحبشة، حيث نبه الله المسلمين أنكم ستذهبون عن قريب إلى مكان تواجهون فيه النصارى، فعليكم بمعرفة عقائدهم.

وكانت هذه إشارة بالغة الأهمية لم يفهمها المسلمون الذين أتوا فيما بعد، بينما فهمها المسيحيون، حيث نجد ريورند ويري والسير وليم ميور يبذلان قصارى جهدهما ليثبتا أن سورة مريم لم تنــزل في السنة التي نــزلت فيها في الواقع. يا تُرى، ما للمسيحيين ولهذه السورة سواء نــزلت في السنة الرابعة أو الثامنة؟ إذا كان مضمونها يبطل المسيحية فنــزولها في السنة الرابعة أو العاشرة سواء للمسيحيين؛ ولكنك تجدهم يبذلون كل ما في وسعهم ليثبتوا أنها لم تنــزل قبل الهجرة إلى الحبشة؛ ذلك لأنهم أدركوا أنه لو ثبت نــزولها قبل هذه الهجرة لكان برهانًا ساطعًا وحاسمًا على أنها

كانت تنطوي على نبأ الهجرة إلى الحبشة ووصول دعوة الإسلام إلى البلاد المسيحية. هذا هو الأمر المحرج الذي أصابهم بالذعر والقلق. فبما أنهم لا يألون جهدًا في أن يثبتوا زعمهم أن القرآن خال من أي أنباء، فسعوا لإيجاد سبيل للخروج من هذه المعضلة، لأنهم لن يجدوا جوابًا إذا سألهم المسلمون وقالوا: أخبرونا أيها النصارى، لماذا لم يتطرق القرآن إلى موضوع المسيحية أمام المشركين طيلة ثلاثة أعوام، فلم يتحدث عن تعاليمها، ولا تاريخها ولا عقائدها الخاطئة؛ ثم فجأة ودفعة واحدة تنـــزل سورة كاملة، تنبئ المسلمين بظهور أحداث مفاجئة ستؤدي إلى المواجهة بين المسلمين والنصارى، فيخرج الإسلام لمقاومة المسيحية إلى بلاد تقع تحت النفوذ المسيحي؟ ألا يكشف ذلك أن الله تعالى هو الذي أخبر المسلمين سلفًا بهذه المواجهة الوشيكة بين الإسلام والمسيحية؟ إن الجواب على هذا السؤال كان صعبًا وشاقًّا على المسيحيين فسعوا كل السعي ليبطلوا هذه المعجزة القرآنية العظيمة بإثبات أن هذه السورة لم تنـــزل قبل الهجرة إلى الحبشة. فما كان منهم إلا أن تظاهروا بأنهم علماء وأساتذة، فزعموا أن في كلمات هذه السورة وأسلوبها دلالة على أنها نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة (تفسير القرآن لويري)؛ وذلك رغم كونهم جاهلين بأساليب اللغة العربية تمامًا. فإننا لو عرضنا عليهم بعضًا من تمثيليات شكسبير باللغة الإنجليزية، دَعْكَ من اللغة العربية، وسألناهم أن ينظروا في

كلماتها وأسلوبها ويخبرونا عن زمن كتابتها، لفشلوا في ذلك فشلا ذريعًا ولزموا الصمت نادمين صاغرين. ذلك لأن تحديد زمن عبارة من العبارات بأي لغة بالنظر إلى كلماتها وأسلوبها إنما يتطلب معرفة تامة شاملة للتاريخ الطويل الذي تطورت فيها تلك اللغة مرحلة تلو أخرى. بل إن المرء سيرتكب رغم ذلك أخطاء كثيرة في هذا التقدير، إذ لو كان هناك شاعر عاش خمسين أو ستين سنة، واستخدم في قصائده التي قرضها في أوائل حياته كلمات ترك استخدامها في قصائده التي نظمها في أواخر حياته؛ ولو نظرنا في بعض قصائده فيمكننا القول، بالنظر إلى كلماتها، إنها من أوائل حياته أو أواخرها. ولكن هذا التقدير أيضًا لا يكون إلا بناء على بعض الكلمات فحسب، أما تحديد زمن قصائده بالنظر إلى أسلوبها فهذا غير ممكن لأحد. خذوا على سبيل المثال الشاعر الكبير عندنا "غالب"، فقد قال أهل النقد عن شعره إن بإمكانهم أن يشيروا إلى أبيات سهلة الكلمات والأسلوب من بين قصائده الأخيرة، تمامًا كما بإمكانهم أن يشيروا إلى مثلها من بين قصائده الأولى؛ فمن الخطأ القول أن شعره قد تطور في أواخر حياته.

فثبت أن ما يقوله القسيس ريورند ويري والسير وليم ميور هنا لزعم باطل، وليس غرضهما منه إلا أن يتظاهرا بأنهما من كبار الأساتذة والأدباء بحيث إنهما قادران على تحديد زمن عبارة من العبارات بالنظر إلى أسلوبها. والحق أنه ليس بوسع أحد أن يحدد

ذلك ولو كان من الأدباء العظماء الأفذاذ. فمثلا لو أن هؤلاء المسيحيين وجهوا هذا السؤال نفسه إلى كبار الأدباء المعاصرين من ألمانيا وفرنسا وأمريكا وإنجلترا، وطلبوا منهم تحديد زمن بعض القصائد لشعرائهم المشهورين الكبار بناء على أساليبها، لردّوا عليهم بقولهم: لسنا بمنجمين حتى نعلم ذلك، لأن هذا محال، اللهم إلا أن يكون عند أحد معرفة شخصية يقينية بالسَّنَة التي نظم فيها الشاعر قصيدة معينة. ومع ذلك يجلس هؤلاء المستشرقون، للأسف الشديد، على كرسي الفتوى لتحديد زمن آيات الذكر الحكيم! وليس غرضهم من ذلك إلا التقليل من عظمة نبأ من الأنباء القرآنية الثابتة اليقينية، وإخفاء صدق الإسلام.

إذن فإن ما فعله ويري وميور نفسه لدليل حاسم على أنهما قد أدركا أن نـــزول سورة مريم في تلك الظروف قد جعل منها نبوءةً عظيمة كشفت عن أحداث المستقبل، فأراد الاثنان إخفاءها بقولهما أنها نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة. إنه بالفعل نبأ قرآني عظيم، حيث لم يزل وحي القرآن ينـــزل وينـــزل طيلة ثلاث سنوات بدون التطرق إلى المسيحية بالتفصيل، ولكن ما إن اقترب زمن المواجهة بين المسيحية والإسلام إلا ونـــزلت سورة كاملة عن المسيحية، ثم بعد ستة أشهر أو سنة يهاجر المسلمون إلى بلد مسيحي، فتجري هنالك مناظرات بينهم وبين النصارى يقع ضحيتها أحد المسلمين حيث ينصّره المسيحيون، أما المسلمون

فيقع الملك المسيحي صيدًا لهم معلنًا إسلامه. ألا تشكل كل هذه الأمور برهانًا عظيمًا على صدق الإسلام؟

واعلم أن القرآن لم يتناول موضوع المسيحية بعد نـــزول سورة مريم إلا في المدينة. صحيح أنه قد تحدث عن المسيحية في الفترة المكية أيضًا، ولكن إشارةً لا تفصيلا. إنما استأنف هذا الموضوع بالإسهاب ثانية في المدينة في السنة الثانية أو الثالثة بعد الهجرة، وذلك في سورة آل عمران التي يدل محتواها على كونها سورة مدَنية، حيث تحدثت عن غزوة أحد والأحداث المتعلقة بها. ثم تناول القرآن المسيحية في سورة النساء التي هي الأخرى مدَنية، بل بدأ نـــزولها بعد سورة آل عمران في السنة الرابعة، ونـــزلت بعض آياتها بعد تلك السنة. ثم عالج القرآن موضوع المسيحية بشيء من التفصيل في سورة المائدة التي نـــزلت بعد سورة النساء في المدينة، وقد نـــزلت معظمها في العامين الخامس والسادس بعد الهجرة، بل إن بعض آياتها نـــزلت قبيل وفاة النبي ﷺ (البحر المحيط). فثبت أن سورة مريم هي الوحيدة التي تحدث فيها القرآن عن المسيحية مباشرة وتفصيلا قبل الهجرة إلى المدينة، وقد نـــزلت هذه السورة – كما تدل عليه القرائن – في أواخر السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة من البعثة النبوية، وقد حفظها الصحابة عن ظهر قلب قبل الهجرة إلى الحبشة وقرءوها أمام ملِكها. إذن فإن زمن نـــزولها يكشف جليًّا أنها تنبأت عن اقترابَ زمن المواجهة

بين المسيحية والإسلام، كما تضمنت إشارة واضحة إلى الهجرة إلى الحبشة، مما يؤكد أن القرآن الكريم قد نــزل من لدن عالم الغيب ﷻ.

لقد كان من أسلوب القرآن التنبؤ سلفًا عما سيمر به المسلمون من أحداث وأحوال حتى إذا تحقق وحي الله في موعده زاد المؤمنين إيمانًا مع إيمانهم. وعندي أن هذا الأمر قد أثر في قلب القسيس ريورند ويري والسير ميور، فراحا جاهدين ليثبتا أن هذه السورة نــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة أو قبيل هجرة المدينة، ضاربَين شهادة التاريخ والحديث عرض الحائط. وإن تصرفهما هذا لدليل واضح على أنهما قد فطنا إلى أن في موعد نــزول هذه السورة إشارة ربانية بينة، فراحا يحاولان عبثا أن يثبتا أن هذه السورة لم تنــزل في الوقت الذي نــزلت فيه في الحقيقة. فما الذي دفعهم، يا تُرى، إلى هذا التزييف رغم وجود الشهادة التاريخية؟ إنما السبب أنه لو ثبت نــزولها في الوقت الذي يؤكده التاريخ لكان آية عظيمة على صدق الإسلام.

قد يقول قائل هنا: كيف نصدق أن الله تعالى هو الذي أنــزل هذه السورة، ولم لا نقول إن محمدًا نفسه فكر أن المعارضة في مكة قد بلغت ذروتها فلا مناص للمسلمين من الهجرة، ومن الأفضل أن يهاجروا إلى الحبشة، فتحدث عن المسيحية في القرآن.

والجواب أن هذا ممكن عقلاً بدون شك، ولكن العقل نفسه يفرض أن يمدح محمد ﷺ المسيحية في هذه الحالة ويثني عليها، ولكن سورة مريم كلها دحض وإبطال للمسيحية.

ومما لا شك فيه أيضًا أنه بإمكان النبي ﷺ أن يفكر في إرسال المسلمين إلى الحبشة، ولكن من ذا الذي أخبره أنهم سيمكثون هنالك فترة طويلة، وأنهم سيخوضون المناظرات مع المسيحيين، لذا لا بد لهم من أن يكونوا على معرفة تامة بعقائدهم؛ فإن هذه السورة لا تنبئ عن الهجرة فحسب، بل تخبر أيضًا أن النـــزال مع المسيحيين سيطول، وأن كلا من الفريقين سيقدم شتى الأدلة والبراهين في هذا الجدال.

فثبت أن هذا القول مجرد وسوسة لا أساس لها من الصحة. الحق أن المسيحيين قد فطنوا إلى معجزة القرآن هذه، فبذلوا كل ما بوسعهم ليُثبتوا أن هذه السورة لم تنـــزل إلا بعد الهجرة إلى الحبشة. فيقول ميور مثلاً: لا شك أن سورة مريم تشير إلى الهجرة، ولكن ليس إلى الحبشة، وإنما إلى الطائف. وهذا يعني أنه يحاول أن يثبت أنها نـــزلت في أواخر الفترة المكية حين ذهب النبي ﷺ إلى الطائف، مع أن هذا غلط تمامًا. لا شك أن بعض العبيد المسيحيين كانوا يعيشون في الطائف، حيث نقرأ في حادث الطائف ذكر أحدهم واسمه عداس، الذي لقي النبي ﷺ، وأبدى نحوه ﷺ حبًّا شديدًا؛ ولكن مثل هؤلاء العبيد المسيحيين كانوا موجودين في

مكة أيضًا، والثابت تاريخيًّا أن حرفتهم كانت الحِدادة أو ما شابه ذلك من الأعمال. أما المسيحي المذكور في سفر الطائف فيخبرنا التاريخ أن النبي ﷺ سأله: من أين أنت؟ فقال: أنا من نينوى. فقال ﷺ: التي أُرسل إليها أخي يونس؟ ثم بلّغه النبي ﷺ دعوة الإسلام، فقبّل يده المباركة من فرط المحبة والفرحة (السيرة النبوية لابن هشام: سعي الرسول ﷺ إلى ثقيف). فلا ننكر وجود بعض المسيحيين بالطائف، ولكنا نقول إنه لم يجر معهم أي جدال ديني حتى نطبق هذه السورة على سفر الطائف.

هذا، وقد حاول القسيس ويري أيضًا محاولة خفية أن يثبت أن هذه السورة نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة، فيقول: لم تنـــزل هذه السورة في أواخر الفترة المكية في السنة الحادية عشرة كما يقول ميور، ولا في الفترة التي يذكرها المسلمون، وإنما نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة أو السادسة في مكة. ويضيف ويري: ويتضح من الأحداث المذكورة فيها جليًّا أن معرفة محمد (ﷺ) بالكتاب المقدس كانت ضئيلة جدًّا، والذين ساعدوه أيضًا لم يعرفوا من الكتاب المقدس إلا القليل (تفسير القرآن لويري).

ولسوف أرد على زعم ميور هذا لدى تفسير الآيات القادمة.

مناسبتها لما قبلها

أما صلة سورة مريم بما قبلها من السور فهي أن سورة بني إسرائيل (الإسراء) تخبرنا كيف يزدهر الإسلام، فتقول إن الأمة المحمدية شبيهة بالأمة الموسوية، وأنها ستنال الغلبة على النحو الذي نالتها أمة موسى. ومن أجل ذلك ذكَر الله تعالى في سورة بني إسرائيل بعضًا من أحداث أمة موسى، مبينًا أنه تعالى كان قد قدر لها دمارَين بعد زمن موسى، كما كتب لها فترتين من الرقي والغلبة؛ وهكذا سيُفعل بالمسلمين أيضًا.. أي أنه سيحل عليهم دماران، كما ستأتي عليهم فترتان من الرقي بعد العهد النبوي تمامًا كما حصل بأمة موسى بعد رحيله. وهذا ما حدث بالضبط، فكما أن الدمار الأول حل ببني إسرائيل بعد عهد داود عليه السلام الذي كان يشكّل فترة رقي كبير، ودُمّرت أورشليم مركز اليهود تدميرًا (الموسوعة التوراتية تحت كلمة Jews)، كذلك تمامًا حل الدمار الأول بالمسلمين بعد النبي ﷺ في زمن الحكم العباسي الذي كان زمن ازدهار عظيم، ودُمّرت بغداد التي كانت العاصمة الإسلامية تدميرًا. وكما أن الدمار اليهودي الأول تَمثّل - على الأغلب - في دمار أورشليم العاصمة اليهودية حين دمرها نبوخذنصر، وأخذ معه ثرواتها، وأجلى اليهود؛ كذلك تمامًا حل الدمار الأول بالمسلمين في عاصمة الحكومة الإسلامية خاصة، فهرب منها

علماؤها وتشتتوا، واستولى عليها الأعداء (كتاب العبر لابن خلدون: الجزء الثالث: وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني العباس ببغداد).

ثم إن الدمارين قد حلا بالأمتين في زمن متقارب، أعني أن بغداد قد دُمرت بعد النبي ﷺ بفترة تقارب الفترة التي حل فيها الدمار بأورشليم بعد موسى عليه السلام.

أما الدمار اليهودي الثاني الذي حل في عهد تيطس الروماني فقضى على الحكومة اليهودية تمامًا، حتى اضطر اليهود لترك وطنهم، فهرب بعضهم إلى الأراضي الإيرانية، وبعضهم إلى مصر (الموسوعة التوراتية تحت كلمة Jews). ونفس المصير كان مقدرًا للمسلمين عند دمارهم الثاني؛ فكما أن الدمار الثاني اليهودي بدأ على يد الرومان وقبيل ظهور المسيح عيسى عليه السلام واستمر بعده لفترة، كذلك بدأ الدمار الثاني العام للمسلمين قبيل دعوى المسيح الموعود عليه السلام، على يد القوى المسيحية الغربية التي كانت تنوب عن الإمبراطورية الرومانية، فأصابهم الضعف في كل مكان، ودمرت دولهم، ولم يبق للحكومة الإسلامية في العالم من أثر، وأصيب الإسلام بنكسة كبيرة تارة أخرى. واستمر دمار المسلمين هذا في زمن المسيح الموعود وهو مستمر بعده أيضًا، ولكن المقدر- كما هو واضح من الأنباء - أن الله تعالى سيبدل دمارهم إلى رقيّ بعد فترة من الزمن، وسيكونون هم الغالبين في العالم ثانية.

هذا، وإن اليهود قد نهضوا بعد الدمار الأول عن طريق قوم كانوا أعداء لـــهم من قبل، حيث عادوا بهم إلى أرضهم من الجلاء، وأعانوهم على تعمير أورشليم ثانية (الموسوعة التوراتية Jews). وقد ظهرت بعد الدمار الأول للمسلمين آية مماثلة لها بل أفضل منها، وبيانها أن ملك ميديا وفارس قد أعان اليهود على تعمير أورشليم ثانية، ولكنه لم يعتنق اليهودية إنما كان مواسيًا لهم ومتعاطفًا معهم، ولكن الملوك المغول الأتراك الذين قضوا على الحكم الإسلامي قد اعتنقوا الإسلام بعد ذلك، وأخذوا يعملون على إحيائه وازدهاره بدلاً من العمل على هلاك المسلمين، حتى دخل الإسلام على أيديهم في مرحلة جديدة من الرقي والازدهار (البداية والنهاية لابن كثير: السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيز خان).

أما الدمار اليهودي الثاني فاعتنق بعده الشعب الحاكم✪ المسيحية، وقد ازداد شغفهم باليهودية لدرجة أنهم بدءوا يقدسون التوراة ويبجلون أنبياء بني إسرائيل مع احترامهم لمقدسات النصارى (الموسوعة البريطانية تحت كلمة Jews). والأمر نفسه مقدر للمسلمين، فإن القوى الغربية الحاكمة التي أصابت الإسلام بالضعف ودمرت المسلمين ستدخل في الإسلام في يوم من الأيام، وستُكتب العزة والغلبة ثانية لمحمد رسول الله ولدينه ﷺ.

✪ أي الشعب الروماني الذي كان حاكمًا على أرض فلسطين حيث تنصر إمبراطورهم قسطنطين في القرن الثالث الميلادي. (المترجم)

إن هذا الموضوع المذكور في سورة بني إسرائيل قد زاده الله تعالى وضوحًا في سورة الكهف، حيث بين فيها أنه سيكتب الغلبة للمسلمين بعد دمارهم الثاني على النحو الذي كتبه للأمة الموسوية بعد دمارها الثاني. أما وكيف تحوَّل الدمار الثاني للأمة الموسوية إلى رقي لها؟ فإن العالم المسيحي يعرف ذلك جيدًا. وهو أن الجناح الذي كان يمثّل الأمة الموسوية في تلك الفترة• قد نزع الله تعالى منه الأمر تمامًا، ووفّق جماعةَ المسيح الناصري عليه السلام - الذي أعلن أنه لم يأت ليغيّر الناموس، بل جاء ليكمله (متى ٥: ١٧-١٨) - لتبليغ دينه توفيقًا عظيمًا حتى أُقيمت بواسطتهم حكومة التوراة في العالم ثانية وبشكل جديد، وهكذا فقد كتب الله تعالى الازدهار تارة أخرى للأمة الموسوية التي كانت شبهَ ميتة آنذاك نتيجة إيمانها بآخر خلفائها أي المسيح الناصري عليه السلام. وقد أكد الله تعالى في سورة الكهف أن القدر نفسه ينتظر المسلمين.

وقد وضع الله تعالى سورة مريم بعد سورة الكهف، وذكر فيها أحداث المسيح عليه السلام، تنبيهًا للمسلمين أنه ستظهر فيهم أيضًا آية مماثلة سينهضون ببركتها مرة أخرى؛ فكما أن رقي الأمة الموسوية كان منوطًا بمسيح بُعث فيها، كذلك فإن الإسلام أيضًا سيزدهر على يد مسيح موعود للمسلمين؛ وكما أن تلك الأمة غلبت ثانية

• أي اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح عليه السلام (المترجم).

بواسطة أصحاب الكهف أي أتباع المسيح الناصري، كذلك سيخلق الله في الإسلام أصحاب الكهف الجدد لنصرة المسيح الموعود، وعن طريقهم سيعود الإسلام غالبًا مرة أخرى.

هذا، وقد ذكر الله ﷻ في سورة الكهف معراجًا لموسى ؑ، موضحًا أن معراجه هذا تضمن نبأ رقي الإسلام، كما أخبر أيضًا أن تحقق هذا المعراج الموسوي في حق المسلمين سيؤدي إلى عداء شديد بين الأمتين المحمدية والموسوية، وسيتولد الحسد والعداء في الأمة الموسوية تجاه الأمة المحمدية زمن ازدهارها؛ وكما هو معروف فإنه إذا غفل أحد الخصمين قليلاً قتله الآخر على حين غفلة منه، كذلك سيحصل بالأمتين، فيتغلب حملة لواء الأمة الموسوية، أي أتباع المسيح الناصري، على المسلمين على حين غفلة منهم.

ثم توضيحًا لهذه المماثلة بين الأمتين، سرد الله تعالى في سورة الكهف حادثًا قديمًا وقع مع بني إسرائيل وهو حادث ذي القرنين، وأخبر أنه تعالى منح اليهود المغلوبين الحكمَ ثانية بواسطة هذا الملك، وأن هذا التاريخ سيعاد مع المسلمين أيضًا، وسينقذ الله المسلمين المقهورين من الدمار الشامل، وسيهيئ الأسباب لحمايتهم وغلبتهم ثانية، بواسطة ذي القرنين الثاني.

ثم بعد ذلك جيء بسورة مريم. وقد سبق أن بينت أن مضمون السور السابقة لها يوضح أن فترة رقي الإسلام وزواله مشابهة لفترة

ازدهار أمة موسى وانحطاطها. فكما أن إحياء الأمة الموسوية بعد انحطاطها تم على يد المسيح الناصري عليه السلام الذي كان آخر حلقة من السلسلة الموسوية، كذلك تمامًا سيتم إحياء الأمة الإسلامية، بعد انكسار شوكتها وزوال مجدها، على يد المسيح المحمدي الذي هو آخر حلقة من السلسلة المحمدية؛ ولكن بما أن المسيح الناصري كان الحلقة الأخيرة من السلسلة الموسوية وكان أتباعه هم الذين تسببوا في ضعف الإسلام وانحطاطه، فلن تتم المواجهة الحقيقية إلا بين الأمة المحمدية وأتباع المسيح الناصري حين يحرز الإسلام الرقي ثانية. وعليه فإذا أردنا دراسة الموضوع من الناحية التاريخية فيجب علينا دراسة تاريخ الأمة المسيحية لا تاريخ الأمة الموسوية، لأن أتباع المسيح عليه السلام هم العدو الحقيقي للإسلام. ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم بعد أن بين مواضيع مختلفة في سورة الكهف يتجه الآن، في سورة مريم، إلى بيان أحوال قوم تقع بينهم وبين المسلمين المواجهة الحقيقية، مبينًا أن المسلمين دُمروا بسبب المسيح أي عن طريق أتباع المسيح الناصري عليه السلام، فإذا أراد المسلمون النجاة من الهلاك فلن ينجوا أيضًا إلا عن طريق المسيح أي بتصديق المسيح الموعود عليه السلام. ومن أجل ذلك أخذ الله تعالى في سرد تاريخ المسيحية في سورة مريم، منبهًا المسلمين أن تاريخها سيكون منارة نور لهم، فعليهم أن يضعوها نصب أعينهم، ويتذكروا كيف وُضع أساسها، لأن إحياء المسلمين أيضًا سيتم على منوال المسيحية.

وكأن سورة مريم ثالث حلقة في سلسلة تمثِّل سورةُ بني إسرائيل وسورة الكهف الحلقتين الأولى والثانية منها، لأن موضوع هذه السور الثلاث واحد، وأسلوبها واحد كذلك.

ولهذه السورة صلة مباشرة أخرى بسورة الكهف، وهي أن سورة الكهف ركزت في آياتها الأخيرة على الشرع والتوحيد، وأما سورة مريم فبدأها الله تعالى بذكر المسيح عليه السلام الذي كان من المقدر أن تتولد بسببه شبهتان خطيرتان عن الشرع والتوحيد، فأزال الله تعالى هاتين الشبهتين في سورة مريم.

وثمة صلة أخرى بين السورتين وهي أن سورة الكهف تتحدث عن نهاية المسيحيين، وأما سورة مريم فتتحدث عن بدايتهم. ويبدو، في بادئ الأمر، أن الترتيب المعاكس كان هو الأفضل والأولى، ولكن بما أن البذرة تكون خفية، ولا تنكشف حقيقة شيء إلا بعد ظهوره تماما، لذا أخر الله تعالى سورة مريم في الترتيب، لكي يعرف المسيحيون وغيرهم كيف بدأ أمرهم وبأي شكل انتهى.

ملخص محتواها

في الحروف المقطّعة التي تستهل بها هذه السورة - والتي هي اختزال لبعض صفات الله تعالى - قد عقد الله تعالى المقارنة بين عقائد الإسلام وعقائد المسيحية، مبينًا أن الديانة المسيحية كانت

في أصلها من عند الله تعالى، ولكن تسربت إليها، بمرور الأيام، عقائد تخالف الحق، وتنافي صفات الله تعالى. هذه هي خلاصة المقطّعة: ﴿كهيعص﴾.

وبعد ذلك تبدأ قصة المسيح بذكر زكريا عليهما السلام، وذلك لأن أكبر ما كان شائعًا بين اليهود من علامات ظهور المسيح هو نـــزول إيلياء من السماء قبل ظهور المسيح (ملاخي ٤: ٥)؛ وإن أهم سؤال وُجِّه إلى المسيح بعد ظهوره هو هذا السؤال نفسه، وقد ركز الإنجيل أيضًا على الرد على المسألة نفسها، موضحًا أن ليس المراد من إيلياء إلا يحيى (متى ١١: ١٥، و١٧: ١٢، ومرقس ٩: ١٣)، وأن إيلياء ما كان لينـــزل من السماء، وإنما كان لا بد أن يظهر من الأرض ويولد من بطن أمه (متى ١١: ١١، ولوقا ٧: ٢٨). هذا ملخص قوله تعالى: ﴿ذكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا﴾ إلى قوله تعالى ﴿يوم يُبعث حيًّا﴾.

ثم بعد ذكر إيلياء، تحدث الله تعالى عن المسيح، ولكن بدأ حديثه بذكر أمه بدلاً من ذكر دعواه، إذ بميلاده وُضع الأساس للأمة المحمدية؛ وبيان ذلك أن إبراهيم كان له من زوجتين ابنان: إسماعيل الابن البكر وإسحاق الابن الثاني عليهم السلام جميعًا، وكان لله مع إبراهيم عهود تخص ابنيه كليهما. والوعود الإلهية الخاصة بإسماعيل مذكورة في الأماكن التالية من التوراة: التكوين ١٦: ١٠ -١٢، و١٧: ٨٨-١٤ و١٨-٢٠، ٢١: ١٣-٢١. أما وعود الله

تعالى الخاصة بإسحاق فوردت في التكوين ١٧: ١٩-٢٠. وثمة أنباء مشتركة عن الابنين في التكوين ٢٢: ١٧ و١٨.

وعندما ندرس هذه الوعود والأنباء مع ما ورد في التكوين ١٧: ٢١ يتضح لنا جليًّا أن الله تعالى كان قد قدر تحقيق وعوده هذه مع إبراهيم بدءًا من ابنه إسحاق، ولكنه تعالى لا بد أن يحققها من خلال الابنين كليهما. وهذا يوضح أن النبي الأخير الذي قدر ظهوره وفق هذا الوعد الإبراهيمي كان سيأتي في نسل إسماعيل. ولكن بما أن نقل هذا العهد الإبراهيمي من نسل إسحاق إلى نسل إسماعيل كان سيصيب الفريق الأول بصدمة كبيرة، فكان لزامًا أن يتم نقله إلى بني إسماعيل ببطء وتدريج، وكان لا بد من أن يكون هذا النقل مدعمًا بالأدلة والبراهين.

فأخبر الله تعالى، في الآيات التي ألخصها الآن، أنه تعالى قرر أخيرًا تحقيق هذا الوعد من خلال بني إسماعيل بدلاً من بني إسحاق بسبب النقض المتكرر المتوالي للعهد من قبلهم. وكتحذير نهائي، قرر الله تعالى أن يخلق ابنًا من عذراء، ويجعله خليفة لموسى، فصار بذلك العهد الذي كان سيتحقق بواسطة بني إسرائيل ناقصًا، أعني انقطعت علاقة هذا الابن عن بني إسرائيل من جهة الآباء، وبقيت لـــه علاقة الأم فقط التي كانت من بني إسرائيل.

علمًا أن الناس في الماضي ظنوا أنه من المستحيل أن تلد المرأة بدون الاتصال بالرجل - ورغم أنه لا مستحيل أمام الله تعالى إلا

أن الناس كانوا يعتقدون ذلك خلافًا لسنة الله تعالى - فقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن مثل هذه الولادة ليست خلاف سنة الله تعالى، بل هي ضمن نواميس الطبيعة. وأسجل فيما يلي شهادة حديثة بهذا الصدد.

لقد قدم الدكتور Halen Superway من جامعة (U C L) بلندن نظريته أن الولادة لا تحتاج بالضرورة إلى الذَّكَر على الدوام. وكانت مجلة LANCET الأسبوعية الصادرة بلندن قد نشرت أخبارًا لمثل هذه التجارب. فلما علقت جريدة SUNDAY PICTORIAL اللندنية في عددها الصادر في ٦ نوفمبر ١٩٥٥ على النظرية المذكورة أعلاه، نشرت المجلة السالفة الذكر مقالا في عددها الصادر يوم ١٣ نوفمبر ١٩٥٥ تضمَّنَ شهادة ثلاث سيدات قالت كل واحدة منهن إن ولدها الحالي قد جاء تلقائيًّا وليس في ولادته دخل لأي رجل.

ثم سجلت هذه المجلة في عددها الصادر يوم ٢٨ ديسمبر شهادة من قبل ١٩ سيدة مررن بمثل هذه التجربة.

فبما أن القرآن الكريم أراد أن يبين أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق الآن بواسطة محمد رسول الله ﷺ الذي هو من نسل إسماعيل، فقد ذكر ولادة المسيح عليه السلام من غير أب بالتفصيل، مبينًا أن هذه الولادة كانت إشارة إلى انتهاء موعد تحقق الوعد الإبراهيمي بواسطة بني إسحاق، حيث قلل الله من خلال ولادة

المسيح العجيبة أهميةَ دورهم في تحقيق هذا الوعد إلى النصف، أما النصف الباقي فقضى عليه أتباع المسيح أنفسهم، حيث تركوا عادة الختان (قاموس الكتاب (بالأردية) تحت كلمة الختان)، قاطعين صلة هذا العهد عن بني إسحاق إلى الأبد، مع أن الختان كان شرطًا هامًّا للوعد الإبراهيمي، حيث ورد قول الله تعالى لإبراهيم في التوراة:

"هذا هو عهدي الذي بيني وبينك وبين ذرّيّتك من بعدك الذي عليكم أن تحفَظوه: أن يُختَتَنَ كلُّ ذَكَرٍ منكم، تختِنون رأسَ قُلْفةِ غُرْلَتِكم فتكون علامةَ العهدِ الذي بيني وبينَكم". (التكوين ١٧: ١٠-١١)

ثم جاء فيها:

" فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًّا، أَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لَمْ يُخْتَنْ، يُسْتَأْصَلُ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ لأَنَّهُ نَكَثَ عَهْدِي". (المرجع السابق: ١٤)

هذا ملخص قول الله تعالى ﴿واذكُرْ في الكتاب مريم﴾ إلى قوله تعالى ﴿وما كانت أمُّك بَغِيًّا﴾.

ثم سرد الله بعض الأحداث التي وقعت في حياة المسيح، وساق البراهين على صدقه عليه السلام، كما أبطل أيضًا بعض الدعاوى الباطلة التي نسبها إليه أتباعه. وهذا ملخص معنى قوله تعالى ﴿فأشارت إليه﴾ إلى قوله تعالى ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول لــه كن فيكون﴾.

بعدها عطف ﷻ عنان الحديث إلى ذكر رسول الله ﷺ، مبينًا أن الأحداث السابقة وبعثة المسيح انطوت على نبأ عن ظهور شخص موعود من بني إسماعيل ألا وهو محمد رسول الله ﷺ؛ ولكن الناس يعارضونه، والسبب الرئيسي لهذه المعارضة هو أنهم كثرة، ولكن الكثرة ليست بدليل. والدليل على كونهم على الباطل أن بينهم خلافات شديدة. إن كثرتهم لن تغني عنهم شيئًا، فمصيرهم الهلاك في آخر المطاف.

هذه خلاصة معاني قول الله تعالى ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ إلى قوله تعالى ﴿فويل للذين كفروا مِن مشهد يوم عظيم﴾

ثم بين الله تعالى أنهم لا يكفّون اليوم عن الطعن والاعتراض، ولا يريدون أن يسمعوا شيئًا عن الإسلام، ولكنهم سيسمعون جيدًا ويبصرون جيدًا يوم يرون العذاب الأليم.

هذا هو معنى قوله تعالى ﴿أَسمِعْ بهم وأَبصِرْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وإلينا يُرجَعون﴾.

وبعد ذلك أسهب الله تعالى في بيان ذلك العهد الإبراهيمي الذي سبقت الإشارة إليه، فأخبر ﷻ كيف حققه تعالى بواسطة إسحاق وموسى.

وهذا موجز قوله تعالى ﴿واذكُرْ في الكتاب إبراهيم﴾ إلى قوله تعالى ﴿ووهبنا لـــه من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾.

وبعدها ذكر الله تعالى إسماعيل ليبين أن هذا العهد كان لا بد أن يتحقق في حق إسماعيل كما تحقق لصالح إسحاق من قبل. وقد ذُكر موسى هنا قبل إسماعيل، مع أنه بُعث بعده، لأن بعثته كانت جزءًا من الوعد الذي تحقق لصالح إسحاق قبل إسماعيل.

وهذا ملخص قول الله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾ إلى قوله تعالى ﴿وكان عند ربه مرضيًّا﴾

ثم ذكر الله تعالى إدريس عليه السلام وقال ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾، وذلك لبيان أنه يشبه المسيح عليه السلام في رفعه الروحاني، فقد ورد في التوراة أن أخنوخ – وهو إدريس عند العرب لأنه كان يُسمع الناس حديث الله تعالى (فتح البيان) – سار مع الله تعالى (التكوين ٥: ٢٢).. والسير مع الله تعالى يعني معرفة صفاته تعالى، فالمعنى أنه كان مظهرًا عاليًا لصفات البارئ تعالى.

ثم ورد عن إدريس في التوراة: ثم تَوارى من الوجود، لأنّ اللهَ نقَله إليه" (المرجع السابق: ٢٤) – وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾، كما وردت في القرآن في حق المسيح أيضًا كلمات مشابهة – ومع ذلك لا يتخذ المسيحيون أخنوخ إلـــهًا، بل يعتبرونه واحدًا من البشر. فلماذا، يا تُرى، جعلوا المسيح إلـــهًا بسبب هذه الكلمات؟ بل الحق أن أخنوخ كان أفضل من المسيح بحسب التوراة، إذ ذهب إلى السماء بدون أن يموت، و لم يذق الموت كالإله الأب.

هذه خلاصة قول الله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إدريس﴾ إلى قوله تعالى ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾.

ثم قال الله تعالى إن هؤلاء الأنبياء جميعًا، بدءًا من آدم ومرورًا بنوح ووصولاً إلى آخر أنبياء بني إسرائيل، كانوا بشرًا ومطيعين لله تعالى، فبأي حجة يمنح النصارى المسيح منصب الألوهية دون الآخرين.

وهذه خلاصة قول الله تعالى ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم﴾ إلى قوله تعالى ﴿خرّوا سُجّدًا وبُكيًّا﴾.

ثم بين الله تعالى أن الناس نسوا الشرائع السماوية، وانغمسوا في اللهو واللعب، فلن تكون عاقبته الحسنى، وإنما تُكتب العاقبة الحسنة للذين يتوبون عن المنكرات ويستمعون لأوامر الله تعالى.

هذا ملخص قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلفٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿هل تعلَم لـــه سَمِيًّا﴾.

وبما أنه كان من المقدر أن ينكر الناس في هذا الزمن البعثَ بعد الموت أكثر من أي زمن مضى، لذا فقد ذكر الله تعالى نعمه وإنكار الناس لها، ثم برهن بذلك على أن الحياة بعد الموت ليس بأمر غريب، بل إنه أمر يقين، ولا بد للمجرمين من عقاب، وللصالحين من جزاء.

هذا ملخص قول الله تعالى ﴿ويقول الإنسان أإذا ما متُّ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ونذَر الظالمين فيها جثِيًّا﴾.

ثم تحدث الله تعالى عن إحدى الحيل التي يلجأ إليها أعداء الحق، فإنهم حين يُنذَرون بعذاب الآخرة يقولون: دَعُوا حديث الغد للغد، وأخبِرونا الآن من هو أحسن حالاً اليوم، ومن هو أكثر مالاً وجندًا؟ فيرد الله عليهم ويقول: إن الحق يتغلب بالتدريج، وإلى أن يأتي يوم غلبته على المرء أن يرى من ذا الذي يملك البرهان والدليل، ويتحلى بروح التضحية والسيرة الطيبة، فمن كان عنده البرهان والنموذج الحسن، فالنصر حليفه في آخر المطاف في الدنيا أيضًا.

هذا موجز معاني قول الله تعالى ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ونَرِثُه ما يقول ويأتينا فردًا﴾.

وبعدها بين الله تعالى أن أعداء الحق يقعون دائمًا في الشرك، ويرونه مدعاة لقوتهم، مع أن الشرك مآله الخزي والهزيمة على الدوام، فإن الأشياء التي يرون فيها قوتهم نفسَها تؤدي إلى ضعفهم وهلاكهم.

وذلك هو المراد من قول الله تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً﴾ إلى قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضدًّا﴾.

ثم أخبر الله تعالى أن الكافر حين يعجز عن تقديم الدليل والبرهان يلجأ إلى العدوان. فلا تكترث لذلك يا محمد، لأن عدوانه هو الذي سيسفر عن غلبتك المادية في النهاية. إذ لو لم يلجأ العدو إلى الاعتداء والقتال فأنى للإسلام أن يحرز الغلبة المادية،

لأن شن الحرب العدوانية ممنوع في الإسلام، فليس السبيل إلى غلبته المادية إلا أن يلجأ العدو إلى الاعتداء على المسلمين، حتى يُسمح لهم برد العدوان، وبما أن العدو قد أسخط الله بعقيدته الفاسدة فلا بد أن ينتصروا عليه بنصر الله ﷻ.

وهذه خلاصة قول الله تعالى ﴿ألم تَرَ أنا أرسلنا الشياطين﴾ إلى قوله تعالى ﴿سيجعَل لهم الرحمن وُدًّا﴾.

وأخيرًا يقول الله تعالى: كان الوحي ينـــزل على اليهود بالعبرانية، فلا يعترض الآن أحد على نـــزول القرآن بالعربية، إذ يجب نـــزول الوحي لكل قوم بلغتهم لكي يتم تبليغه بسهولة ويسر، ويفهمه الصديق والعدو، وتتم الحجة على الكافرين، فإن عذابنا إنما ينـــزل بعد إقامة الحجة، وإن عذابنا لهو العذاب الشديد.

وهذا هو ملخص قول الله تعالى ﴿فإنما يسّرناه بلسانك﴾ إلى قوله تعالى ﴿أو تسمَع لهم رِكْزًا﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص﴾

المقطّعات ودلالاتها

لقد ذكرت مرارا أن علماء الإسلام قد اختلفوا في بيان معاني الحروف المقطّعة الورادة في القرآن الكريم، ولكن إذا وجدنا تفسيرًا لها قد روي عن النبي ﷺ فلا بد لنا من تفضيله على آراء الآخرين.

وحين نبحث الموضوع من هذا المنظور نجد أن هناك معنيين اثنين فقط قد رُويا عن النبي ﷺ. جاء في الروايات أن اليهود أبدوا رأيهم في المقطعات أمام النبي ﷺ وقالوا: إن حروفها تدل على بعض الأعداد والأرقام، فالألف في "الم" مثلاً يساوي الواحد، واللام الثلاثين، والميم الأربعين؛ فالمقطعة كلها تساوي الواحد والسبعين. فلم يرفض الرسول ﷺ هذا المعنى (الطبري). فبما أن النبي ﷺ لم يرفض هذا المعنى فلا بأس في قبولــه، إذ لو كان غلطًا لرفضه الرسول ﷺ. والتدبر في القرآن يكشف لنا أن ذلك المعنى كان ينطوي على بعض الأنباء الغيبية التي قد تحققت في موعدها فيما بعد.

وهناك معنى آخر للمقطعات مروي أيضًا عن النبي ﷺ، وهو أنها تدل على بعض صفات البارئ ﷻ. فقد روي عن أم هانئ، وهي ابنة عم النبي ﷺ، أنه ﷺ قال في "كهيعص" إن معناه: كافٍ

وهادٍ وعالمٌ – أو عليمٌ – وصادقٌ (تفسير فتح البيان).. أي أن حرف الكاف ينوب عن الكافي، والهاء عن الهادي، والعين عن العالم أو العليم، والصاد عن الصادق.

وهناك رواية عن علي ﷺ تدعم هذا المعنى، وتبين أن مقطعة "كهيعص" ترمز إلى بعض صفات الله تعالى. فروي أن عليًّا ﷺ كلما حل به خطبٌ دعا ربه قائلا: "يا كهيعص، اغفِرْ لي" (المرجع السابق). ولما كان الدعاء وثيق الصلة بالصفات الإلهية، فكان سيدنا عليّ ﷺ يري أن "كهيعص" إشارة إلى بعض صفات الله تعالى.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما هو الآخر يرى أن المقطعات تشير إلى بعض صفات البارئ ﷻ، حيث قال: الكاف اختزال للكبير، والهاء للهادي، والياء للأمين، والعين للعزيز، والصاد للصادق (المرجع السابق).

فابن عباس يقر بأن هذه المقطعة تدل على بعض الصفات الإلهية، ولكن شرحه لها يختلف قليلا عما روته أم هانئ، فبينما تروي هي أن الكاف ينوب عن الكافي، وأن العين ينوب عن العالم أو العليم، يرى ابن عباس أن الكاف يعني الكبير، وإن العين يعني العزيز. ثم إن أم هانئ لم تذكر في روايتها شيئًا عن حرف الياء، ولكن ابن عباس يقول: إن معناه الأمين.

أما ابن مسعود وغيره من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - فقالوا: الكاف من الملك، والهاء عن الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور (المرجع السابق).

إننا نتوصل من هذه الروايات بحق إلى نتيجة أن النبي ﷺ وجميع أصحابه كانوا مُجمعين على أن هذه المقطعة القرآنية تشير إلى بعض صفات الله تعالى. لا شك أن الصحابة قد اختلفوا قليلاً في تحديد الصفات المذكورة فيها، ولكن لا بأس بذلك، إذ البديهي أن ما ذكره الرسول ﷺ وحدّده من صفات هو الأولى بالأخذ، وأن ما ذكره الصحابة فيُعتبر إزاءه من الظنيات. فلو أن ابن مسعود ذكر معنى، وابن عباس معنى آخر مغايرًا، وعليًّا معنى ثالثًا مخالفًا لقلنا إن كل واحد منهم قد اخترع هذا المعنى من عنده، ولكن الجميع قالوا إن هذه المقطعة القرآنية تشير إلى بعض صفات الله تعالى. فثبت بذلك أن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه المقطعة ترمز إلى بعض صفات الله تعالى. ولا بأس بعد ذلك في أن يستنتج منها كل إنسان من صفات الله تعالى ما يستسيغه عقله. إن الجميع مُجمعون على قاعدة واحدة بأن هذه الحروف ترمز إلى بعض صفات الله تعالى، أما تحديد تلك الصفات فممكن بالتدبر في محتوى هذه السورة لأنه يلقي الضوء عليه. فعندنا قاعدة نعرف بها الخطأ من الصواب: إذا أخطأ أحد في تحديد هذه الصفات، علينا أن نفحص كل السورة لنرى ما هي الصفات الإلهية المذكورة

فيها، فإذا وجدنا الصفات التي يستنتجها أحد مذكورة في السورة نعتبره على الحق، وإلا فلا.

مما لا شك فيه أن معاني مقطعات جميع السور الأخرى لم تثبت عن الرسول ﷺ، ولكن المؤكد الثابت أنه ﷺ قد بين معنى مقطعة سورة مريم بالتحديد وأخبر عن الصفات المذكورة فيها، لذا لا يمكن أن نفسرها بأي معنى آخر. وتقول أم هانئ إنها سمعت هذا المعنى من الرسول ﷺ، وأما المعنى الذي ذكره الصحابة فذكروه وفق علمهم. وإنه لمن المسلم به أنه إذا ثبت تفسير آية عن الرسول ﷺ فلا بد من تفضيله على التفاسير الأخرى، فلا مناص لنا من تفضيل المعنى الذي ذكرته أم هانئ رضي الله عنها.. أي أن الكاف يعني الكافي، والهاء الهادي، والعين العالم أو العليم، والصاد الصادق. وعندي أن هذا المعنى لهو مفتاح معارف هذه السورة.

وجدير بالملاحظة هنا أن حروف هذه المقطعة خمسة، ولكن الصفات التي ذكرها النبي ﷺ أربع. والحروف هي: ك، هـ، ي، ع، ص، والصفات المروية عنه ﷺ تخص ك، هـ، ع، ص، وكأنه ﷺ ترك "ي". فما الحكمة في ذلك؟

والحكمة عندي أن الياء تُستعمل للنداء أيضًا، وقد عدّها النبي ﷺ هنا حرف النداء، معتبرًا الصفتين الأولَيين نتيجة للأُخرَيَين، والتقدير: أنت كافٍ، أنت هادٍ، يا عالمُ يا صادقُ.

ونظرًا إلى هذا المعنى، فإن صفتي الكافي والهادي - اللتين هما نتيجة لصفتي العالم (أو العليم) والصادق - قد جاءتا هنا كالقول الفيصل والأمر الحاسم بين الإسلام والمسيحية. ذلك أن قولنا: أنت كافٍ، أنت هادٍ، يا عالمُ يا صادقُ، يعني أن صفتي العالم والصادق هما كالمنبع لصفتي الكافي والهادي؛ وهذه هي الحقيقة الثابتة عقليًّا. ذلك أن الصفات الإلهية نوعان: صفات لا تأتي بنتائجها دائمًا، وصفات تأتي بنتائجها حتمًا، وتكون مصدرًا للصفات الأخرى التي تكون تابعة لها. فمثلا، إن الله مطعم، ولكن صفة الإطعام تنكشف من خلال صفة الخلق والرزق، إذ لو لم يكن هناك رزق فماذا يُطعم. فكونه تعالى مطعِمًا يقتضي أن يكون رازقًا كذلك. إذن فصفتا الكافي والهادي هنا تابعتان لصفتي العليم والصادق، وسيكون معنى مقطعة "كهيعص": يا عليم يا صادق أنت كافٍ وهادٍ.. وبتعبير آخر إن النتيجة الحتمية لكون الله عليمًا وصادقًا أن يكون ﷻ كافيًا وهاديًا كذلك. فكأن الله تعالى يعلّم عباده هنا أن يدعوه قائلين: كهيعص.. أي يا إلهي العليم الصادق، إني أؤمن بأنك أنت الكافي لأنك عليم، وأنت الهادي لأنك صادق، إذ ما دمتَ العليم فلا بد أن تكون الكافي أيضًا، وما دمت الصادق فلا بد أن تكون الهادي كذلك. وهذا الأمر بديهي وثابت عقليًّا، لأن

أحدًا إذا كان ذا علم، فلزم أن يكون كافيًا أيضًا. فمثلاً إن العلاج يتطلب فحصًا صحيحًا كاملاً، والفحص الصحيح يقتضي أن يكون الطبيب ذا علم صحيح كامل، لأن الذي هو غير ملمّ بكافة متطلبات العلاج لمرض من الأمراض يستحيل عليه علاجه بنجاح، أما من يملك المعلومات الكاملة فينجح في علاجه حتمًا. فثبت أن العليم لا بد أن يكون كافيًا أيضًا لأن العلم يغني الإنسان غناء ويكفيه، لا الجهل.

"كهيعص" تبطل العقائد المسيحية

هناك نوعان من النواميس العاملة في العالم: نواميس الطبيعة ونواميس الشرع. وليس بوسع أحد أن يهدي الناسَ في مجال نواميس الطبيعة أيضًا هداية تامة إلا إذا كان عليمًا، فمثلا لن ينجح من الأطباء إلا من كان ذا علم تام، وبالمثل لن يهدي الناس في مجال نواميس الشرع هدايةً كاملةً إلا من كان عليمًا، أما الذي لا علم لـــه بحاجات البشر المادية أو الروحانية فلن يقدر على أن يصف لهم وصفة ناجحة. فثبت أن العليم لا بد أن يكون كافيًا كذلك.

وبالمثل فإن الصادق هو الذي يمكن أن يكون هاديًا حقًّا، لأن الكذب والخطأ يؤديان إلى الضلال، فلا بد للهادي أن يتصف بالصدق، إذ لن يكون هاديًا إلا من كان صادقًا، بل يكون منبعًا

للحقائق كلها، وإن كل تعليم سواه سيكون مشبوهًا لا يصلح للقبول.

باختصار، فإذا آمن الإنسان بأن الله عليم فلا بد لــه من الاعتراف أنه كاف أيضًا، وإذا آمن أنه تعالى صادق فلا مناص لــه من الإيمان بكونه تعالى هاديًا كذلك. وإذا صح هذان المبدءان، وإذا ثبت أن الديانة اليهودية - التي هي الأساس للمسيحية - تنص على أن الله تعالى عليم وصادق، فلا بد للمسيحيين من الاعتراف بأن الله كاف وهاد أيضًا.

تعالوا نر الآن ماذا يقول الكتاب المقدس بهذا الشأن. ولنتوجه أولاً إلى صفة الله "العليم".

لقد ورد في الإنجيل: "أمّا ذلك اليومُ وتلك الساعةُ، فلا يعرِفهما أحدٌ، ولا ملائكةُ السماوات، إلا الآبُ وحدَه."(متى ٢٤:٣٦).

إن هذه العبارة تكشف لنا أن للعلم في هذه الدنيا درجات ومقادير، فمن العلم ما هو ضمن معرفة البشر، ومنه ما هو داخل نطاق معرفة الملائكة، ومنه ما لا يعلمه البشر ولا الملائكة، بل الله وحده يعلمه. وهذا يعني أن العلم الكامل خاص بذات البارئ ﷻ؛ فلا مناص إذن من الإيمان أيضًا بأنه تعالى هو الكافي.

ثم ورد في العهد القديم: "بالحكمة أسَّس الربُّ الأرضَ، وبالفطنة ثبَّت السماواتِ في مواضِعِها. بِعلمِه تَفجَّرتِ اللُّجَجُ، وقطَر السحابُ نَدًى." (الأمثال ٣: ١٩-٢٠)

وهذا يعني أن الله تعالى أسس نواميس الطبيعة وزيّنها بناء على العلم، ثم مِن علمه ﷻ نبعت كل معرفة أخرى، سواء أكانت روحانيّة أو ماديّة، إذ ورد: بِعلمه تفجَّرت اللُّجَجُ، وقطَر السحابُ نَدًى"، أي أن علم الله هذا كامل من كل النواحي بحيث إن السماء أيضًا تقطرت بهداية البشر.. أي نـــزل الوحي والإلهام من عند الله تعالى.

هذه العبارة تبين أن الهدي ينـــزل من عند الله تعالى دائمًا، وليس بوسع البشر أن يأتي به، وأن هديه ﷻ هو الهدي الكامل، لأن مُنـــزله عليم.

وورد في التوراة عن صفة الصدق: "فَدَيتَني أيها الربُّ إلهَ الحقِّ." (المزامير٣١: ٥).

وهذا يبين أن النجاة إنما تختص بإله الحق والصدق كما أن الشرع يختص بالرب العليم.

وورد أيضًا: "عدلُك عدلٌ أبديٌّ وشريعتُك حقٌّ." (المزامير ١١٩: ١٤٢).

لقد ثبت بهذه العبارات أن كلا من التوراة والإنجيل يؤكد أن العلم الكامل والصدق الكامل إنما يختصان بالله وحده ﷻ؛ وما دام الكتاب المقدس ينص على أن الله وحده العليم والصادق فلا مناص للنصارى من التسليم بأن لا كافيَ من دون الذي هو العليم، ولا هاديَ ولا منجِّيَ أو مخلِّصَ من دون الذي هو الصادق.

وثبوت هذين الأمرين يؤكد أن صفة الله "العليم" والصفة التابعة لها – أعني "الكافي" – لتُبطلان عقيدة الكفارة المسيحية، كما أن صفة الله "الصادق" والصفة التابعة لها – أعني "الهادي" – لتعارضان العقيدة المسيحية القائلة بأن الشرع لعنة وأن النجاة في الكفارة وحدها. ذلك أن الله تعالى إذا كان عالمًا – أو عليمًا – فلا مكان في الدين للكفارة، لأن أساس الكفارة إنما هو أن الله تعالى وضع خطة لإدارة العالم، فبعث الرسل لهداية الناس، ولكن خطته هذه باءت بالفشل الذريع، فعاد واضطر ليقدم ابنه فداء عن ذنوب الناس. إن التسليم بهذه الفكرة المسيحية يستلزم الاعتراف بأن الله تعالى لم يكن عليمًا ولا كافيًا.

كما أن الله تعالى إذا كان صادقًا وبالتالي هاديًا فقد بطلت العقيدة المسيحية القائلة بأن الشرع لعنة وبأن لا نجاة إلا بالكفارة.

إذن فقد نبه الله تعالى المسلمين في مقطعة "كهيعص" إلى قاعدة أساسية للحوار السليم مع المسيحيين، وأوصاهم بأن يجادلوهم دائمًا على ضوء صفات البارئ ﷻ، فإن هذا الأسلوب سيبطل جميع عقائدهم الفاسدة. ذلك لأن الله تعالى إذا كان هو الكافي فمن الجهالة القول أن بوسع الإنسان أن يختار بنفسه شرعًا لــه، أو أن الشرع لعنة؛ فإن الكافي رحمة، وغير الكافي لعنة. وبالمثل فإن الصادق المستجمع في ذاته كلَّ الحقائق إذا لم يكُ قادرًا على تخليص البشر، فأنى لغير الصادق أن يخلّصهم. إنما ينجي الذي هو

صادق، كما قال داود ﷺ: "فَدَيتَني أيها الربُّ إلهَ الحقّ". (المزامير ٣١: ٥)

فالله ينبه المسلمين هنا أن يكشفوا للمسيحيين أن التسليم بعقائدكم يعني إلغاء صفات البارئ تعالى، وإذا كان الإيمان بالمسيحية يتنافى مع صفاته تعالى فلم يعد الإله إلهًا. والظاهر أن الدين الحق هو ذلك الذي يُقنع الناس بوجود الله، ويقوّي إيمانهم بصفاته، أما الدين الذي يلغي وجود الله نفسه، وينافي صفاته ﷻ فلا يمكن أن يكون دينًا حقًّا.

وباختصار فإن التدبر في صفتي "الكافي والهادي" يكشف لنا مدى تعارض تعليم المسيحية مع تعليم الإسلام، ويبين لنا البون الشاسع بين موقفهم وموقف الإسلام، وكيف يقدّمون وجود البارئ تعالى، وكيف يقدمه الإسلام.

خلاصة القول إن الله تعالى قد ذكر في هذه المقطعة صفته "الكافي" إبطالاً لعقيدة الكفارة المسيحية، وصفتَه "الهادي" دحضًا للنظرية المسيحية عن النجاة. والحق أن هاتين هما القضيتان الجوهريتان اللتان تصطدمان مع الإسلام في الحقيقة، أما عقيدة الثالوث فهي تابعة لهما. إن المسيحية لا تؤمن بالنجاة إطلاقًا، ولا تسلم بأي رقي روحاني بدون الإيمان بكفارة المسيح، وكلتا العقيدتين تلغيان صفتي الله الكافي والهادي، وإلغاؤهما يعني أن الله ليس بعليم ولا بصادق؛ وبتعبير آخر، إن التسليم بهاتين العقيدتين

المسيحيتين يستلزم إنكار وجود البارئ تعالى؛ وإذا أدى تعليم دين إلى إنكار وجوده ﷻ فلا بد من الاعتراف ببطلان ذلك الدين، لأن الدين إنما أساسه الإيمان بذات البارئ تعالى.

مما لا شك فيه أن الثالوث هي إحدى العقائد المسيحية الأساسية، ولكنها في الواقع وثيقة الصلة بعقيدتَي الكفارة والنجاة بحيث إذا أبطلناهما بطل الثالوث تلقائيًّا، ولو فُصل الثالوث عن الكفارة والنجاة لثبت بطلانهما. ذلك أن المسيحية تزعم أن الله تعالى أرسل المسيحَ ابنَه الوحيد إلى الدنيا ليموت فداءً عن ذنوب الناس لينالوا النجاة، لأن الله تعالى - عند المسيحيين - لا يقدر على أن يغفر للناس ذنوبهم لأن العفو مناف لعدله، ولو أنه عفا عن الناس لم يعد عادلاً، ولكنه تعالى أراد نجاة الناس أيضًا، فأرسل ابنه إلى الدنيا ليموت على الصليب، فالذين يؤمنون بموته على الصليب ينالون النجاة، وهكذا يصبح موته هذا كفارة عن ذنوبهم.

وهذا يوضح أن لا كفارة بدون الإيمان بعقيدة الثالوث، لأن أساس الكفارة إنما هو أن الله تعالى صلب ابنه الوحيد، ثم أحياه بعد ثلاثة أيام؛ ولكن لا يمكن التسليم بذلك إلا بالاعتراف بوجود أكثر من إله، إذ من المحال أن يُعدم الإله نفسه بنفسه - والعياذ بالله - ثم يحيي نفسه بعد ثلاثة أيام!

تحليل منطقي لعقيدة الثالوث

ولكن الاعتقاد بثلاثة آلهة يثير سؤال هامًّا هو: هل كل واحد منهم يملك قدرة متساوية أم لا؟ فإذا كان الواحد منهم أقل قدرة من الآخر فثبت أنه ناقص، والناقص لا يمكن أن يكون إلهًا؛ وهذا أمر لا يحتاج إلى نقاش ودليل، لأن من قواعد المنطق أن الناقص لا يمكن أن يكون أزليًّا أبديًّا، والذي لا يتصف بالأزلية والأبدية يستحيل أن يكون إلهًا. هذه قاعدة منطقية قد أجمعت عليها كل الديانات، حتى إن المسيحية أيضًا لا يمكنها إنكار أن الناقص لا يمكن أن يكون أزليًّا أبديًّا، وأنه لا بد للإله من أن يكون أزليًّا أبديًّا.

ذات مرة ذهبت إلى مصايف دلهوزي للاستجمام. وكنت آنذاك شابًّا في العشرين من العمر. واتفق أن قسيسًا شهيرًا – اسمه فرجوسن على ما أذكر – كان هو الآخر موجودًا هناك. وكان هذا القسيس قد قام بتنصير مئات من الناس، وقد جاء إلى تلك الجبال يقوم بالتبشير المسيحي ويوزع بعض المنشورات. فذهب بعض المسلمين الغيورين إلى المشايخ يلتمسون منهم التصدي لتلك الفتنة، ولكنهم أجابوهم بأنهم لا يقدرون على مقاومة هذا القسيس. ولما يئسوا منهم جاءوني معتذرين نادمين وقالوا: تعال أنت من فضلك، وحاور القسيس. وكنت آنذاك صغير السن، ولم تكن دراستي الدينية كافية، ولكني رضيت، وخرجت إلى منزل القسيس في رفقة بعض الأصدقاء. ولما وصلنا إلى بيته قلت له: أود

أن أسأل حضرتك بعض الأسئلة – وكنا وقتها جالسين حول طاولة كان عليها قلم رصاص – فقلت لــه: حضرة القسيس: لو احتجتَ إلى هذا القلم مثلاً، فناديتَني أنا، وأصحابَك، وخادمك، وطباخك، وجيرانك، وحين حضر الجميع قلتَ لنا جميعًا: ناوِلوني هذا القلم الموضوع على الطاولة، فماذا يكون ظن الناس بك؟ قال: ماذا تقصد بذلك؟ قلت: ستعرف قصدي بعد قليل، ولكني أرجوك الآن أن تخبرني هل مثل هذا السؤال معقول، وماذا سيكون ظن الناس بك بعده؟ قال: حتمًا سيحسبونني مجنونًا. قلت: أخبِرني الآن، هل كان الإلهُ الأبُ قادرًا بمفرده على خلق الكون أم لا؟ قال: نعم. قلت: هل كان الإلهُ الروحُ القدس قادرًا بمفرده على خلق الكون أم لا؟ قال: نعم. قلت: هل كان الإلهُ الابنُ قادرًا بمفرده على خلق الكون أم لا؟ قال: نعم. قلت: إذن، فقضية خلق الكون تشبه قضية حمل هذا القلم، فإن الآلهة الثلاثة يملكون قوة متماثلة، وكل واحد منهم قادر بمفرده على خلق الكون، ولكنهم يهدرون طاقاتهم، ويضيعون وقتهم سدى.

وقلت لــه: أخبِرني حضرة القسيس، هل في الدنيا شيء يقدر الإلهُ الأب على القيام به، ولا يقدر الإله الابن على إنجازه؛ أو أنه بوسع الإله الابن ولكنه ليس بوسع الإله الروح القدس؛ أو أنه باستطاعة الإله الروح القدس، ولكنه ليس باستطاعة الإله الأب؟ قال: لا. فقلت: فلِم النــزاع إذن؟ إذا كان إلهانِ منهم يجلسان

عاطلَين رغم قدرتهما على العمل ولا يحرّكان ساكنًا، فهذه معضلة كبيرة. أما إذا كان الثلاثة يقومون بعمل واحد، مع أن كل واحد منهم يقدر بمفرده على القيام به، فهذا هو الجنون بعينه.

فقال القسيس في فزع وذعر: إن أساس المسيحية إنما هو على مسألة الكفارة والفداء، أما مسألة الثالوث فيستوعبها المرء بعد الإيمان. فقلت: لا يمكن للمرء أن يؤمن ما لم يفهم الثالوث، وما لم يؤمن لا يمكن أن يفهم الثالوث، فهذا هو "التسلسل" الذي هو محال لدي جميع أصحاب المنطق. فقال: المعذرة، أرجوك أن تتحدث عن الكفارة.

وهكذا ترون أن الكفارة وثيقة الصلة بالثالوث، فإذا بطلت الكفارة بطل الثالوث تلقائيًّا. ولما كانت هذه العقيدة المسيحية وثنية مشركة تمامًا فقد أشار القرآن هنا إلى صفة الله العليم على وجه الخصوص. ولقد تناول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هذا الأمر بالإسهاب في كتبه، وبين أن الإنسان إذا تيسر لــه العلم الكامل بشيء من الأشياء قدر على صنعه (سرمه جشم آريه ص ٢٢٦). فمثلا إن الإنسان يعرف تمامًا أن البناء يتطلب تركيب اللَّبِن والطوب معًا، ولذلك يقدر على بناء بيته. إنه يعلم أن الطين إذا أُفرغ في القالب صار لبنة، وأن هذه اللبنة إذا وضعت في النار صارت صلبةً كالحجر، فهذا العلم يمكّنه من صنع اللبنة الصلبة. وبالمثل لو أن أحدًا علم كيف يُصنع التراب لصنعه، ومن تيسر لــه العلم

الكامل بصناعة الساعة لصنعها، ومن حصلت لــه المعرفة الكاملة بوظائف أعضاء البدن الإنساني لصار طبيبًا. فثبت أن العلم الكامل بشيء يمكّن صاحبَه من خَلقه وصنعه، وأنه إذا حصل لكائن علمٌ كامل حقًّا لقدر على الخلق الكامل والتدبير الكامل، كما لم يبق بعده حاجة إلى مدبر آخر. وهذا هو الدليل الذي قدمته أمام القسيس فرجوسن، فقلت لــه: ما دام كل واحد من الآلهة، أي الأقانيم الثلاثة، كاملاً في حد ذاته فأي حاجة إلى الثاني والثالث، وسواء في ذلك الإله الأب والإله الابن والإله الروح القدس. فما دام الإله الأب قادرًا على القيام بما هو في وسع الإله الابن، وما دام الإله الابن قادرًا على فعل ما هو باستطاعة الإله الروح القدس، فيجب أن يكفينا إله واحد، ولا حاجة إطلاقًا للثاني والثالث. ومن أجل ذلك، قد أشار الله تعالى إلى صفته الكافي، ليبين أنه تعالى وحده لَكاف لخلق العباد، ولخلق النظام لــهم، ولتدبير أمورهم كذلك، ولاً حاجة لــه في ذلك إلى أي كفارة ولا إلى أي ابن أو روح قدس.

إزالة شبهة

قد يقول هنا قائل: ألا تؤمنون بالملائكة رغم إيمانكم أن الله كاف؟ ثم ألا تعترفون بوجود الريح والبرق والمادة في الكون؟

والجواب أننا نعتبر هذه الأشياء تابعة لله تعالى، غير متساوية معه في المقام والدرجة؛ وهناك بون شاسع بين التبعية والتساوي، فالشيء التابع كالخادم وليس كالندّ. وقد جعل الله تعالى نظام التابعين والخدم هذا لكي يبقى هو بنفسه خفيًّا وراء الحجاب، ذلك أن إيماننا بالله إذا كان سيأتي بنتيجة، وإذا كان لنا عليه جزاء، فكان لزامًا أن يظل الله وراء الحجاب، إذ لا جزاء على الإيمان بوجود الأمور المكشوفة الجلية للعيان. فإنا نرى الشمس مثلاً، ونعترف بوجودها، ولكن لا جزاء لنا على هذا الاعتراف. وبالمثل نرى الجبال، ونقر بوجودها، ولكن لا ثواب لنا على هذا الإقرار. إن غاية خلق الإنسان أن يحقق الكمال الروحاني، وتحقيق الكمال الروحاني ذو صلة بالثواب وجلاء البصر الروحاني، ولا بد لجلاء الشيء وارتقائه من امتحان واختبار، والاختبار يتم عمومًا فيما هو كثير العراقيل وصعب المنال؛ فكان لزامًا إذن أن يظل وجود البارئ خفيًّا ليتم اختبار الإنسان، وإلا فشلت تمامًا خطة تطوير البشر روحانيًّا. وبقاء الله تعالى خفيًّا وراء الحجاب استلزم خلق وسائل روحانية ومادية. ومن الوسائل الروحانية الفطرةُ السليمة والملائكة، ومن الأسباب المادية المادة والنواميس التي تحرّكها.

إذن فلا اعتراض على وجود الملائكة أو المادة، لأن النصارى يقدمون لنا من يعتبرونهم آلهة وأندادًا لله ﷻ، أما نحن فنقدم أمامهم

من هم خدم تابعون لـــه ﷻ. وقد لزم وجود الخدم والأشياء التابعة ليظل الله تعالى وراء الوراء، وليبقى بين الله وعباده حجاب لا يشقّه كل من هبّ ودبّ، بل المجاهد الذي يكدح بجد ونشاط.

الشرع ليس لعنة

إذن فمن كان عنده علم المبدأ وعلم الموجودات لا بد أن يملك القدرة المطلقة. وبالمثل فكون الله ﷻ صادقًا يضمن النجاة للمجاهد الكادح في سبيله. أما إذا كان الإنسان لا يمكنه النجاة بدون الكفارة فلا مناص من القول أن الأنبياء السابقين كلهم كانوا كاذبين، وأن الذي بعثهم أيضًا كان كاذبًا؛ فإن آدم لما جاء أعلن للناس أن لا بد لهم من الإيمان به. ثم جاء نوح وأعاد نفس الكلام بحسب التوراة التي لم تذكر قصة آدم بالتفصيل، ولكنها قد أسهبت في سرد قصة نوح. ثم جاء إبراهيم عليه السلام، وقال لا بد لكم من تصديق ما جئتكم به من الحق. فإذا كانت نجاة الإنسان محالاً بدون الكفارة فلا شك في أن نوحًا وإبراهيم كانا من الكاذبين، والعياذ بالله. علمًا أن التوراة قد تحدثت عن إبراهيم حديثًا ناقصًا مثل حديث آدم، ولكنها قد أسهبت في ذكر موسى عليه السلام، وأخبرت أنه لما عرض على الناس تعليمه قال: لا بد لكم من العمل بما آمركم به لكي تنالوا النجاة وإلا سيحل عليكم غضب من الله تعالى. إنه عليه السلام لم يقل لهم: لقد عرضت عليكم تعليمي، ولكنكم لن تقدروا العمل به، كما يزعم النصارى بأن العمل بشرع الله

تعالى خارج عن نطاق قدرة البشر. فإذا كانت النجاة مستحيلة كما تزعم المسيحية فلا شك أن موسى كاذب - والعياذ بالله، لأنه خدع الناس خدعة كبيرة إذ قال لهم عن شريعته: لو عملتم بها لنجوتم. وإذا كان موسى نبيًّا، كما تؤكد التوراة، لكان الله - والعياذ به - كاذبًا كذلك لأنه هو الذي بعث موسى بتلك الشريعة. كما لا بد لنا من اعتبار سائر الأنبياء بعده كاذبين لأن كل واحد منهم وعد الناس بالنجاة إذا عملوا بتعليمه. فقد ورد في الزبور: "وشريعتك حق" (المزامير ١١٩: ١٤٢).

إذا كان العمل بالشرع مستحيلاً، بحسب ما يزعم النصارى قائلين أن الشرع لعنة، للزم القول إن العمل بالصدق والحق محال، إنما العمل بالكذب والزور فقط ممكن؛ كما أنه لا مناص من القول أن لا نجاة بالصدق، وإنما بالكذب فقط.

فقصارى القول إن التسليم بقولهم أن لا نجاة للإنسان بالعمل بالشرع، وأن لا سبيل لاتباع الأنبياء، يستلزم تكذيب الرسل والأنبياء جميعًا. ولكن إذا كان الله صادقًا فلا بد من الإيمان أن النجاة أمر ممكن، لأن جميع رسل الله تعالى قد أعلنوا لأممهم أنهم لو اتبعوهم لكانوا من الناجين.

ولا يعزبنّ عن البال أن كلمة الصدق في اللغة العربية تنطوي على معنى الدوام إلى جانب معنى الحق، حيث يُطلَق الصدق على الشيء الدائم الثابت (تاج العروس)؛ فالمراد من كون الله تعالى صادقًا

هو أن وجوده وتعليمه ثابتان باقيان إلى الأبد، وبتعبير آخر، إن قوله وفعله سيظلان باقيين؛ ولكن لا بقاء لهما إلا ببقاء البشر، أما إذا هلك البشر و لم ينجوا فلا بقاء لقول الله وفعله لأنهما يخصان البشر؛ فما دام قوله وفعله ﷻ يتصفان بالبقاء والدوام فثبت أن الإنسان باق وأن نجاته ممكنة. لو كان على الإنسان أن يفنى لبطل قول الله وفعله اللذان صفتهما البقاء والدوام.

إذن فالصدق الكامل يتطلب الصدق الظلي، لأن الصدق يدل على الدوام، وديمومة الصفات الإلهية محال بدون ديمومة هبة هذه الصفات للإنسان. والتوراة نفسها تدعم ما نقول حيث ورد فيها أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته (التكوين ١: ٢٦-٢٧). والبديهي أن خلق الله للإنسان على صورته لا يعني أن لله أنفًا وأذنًا وعيونًا وفمًا كما هي عند الإنسان، وإنما المراد أن في الإنسان انعكاسًا للصفات الإلهية. وإذا صح أن الله تعالى قد خلق الإنسان على صورته، وإذا صح أن الله تعالى صادق، فلا بد من التسليم بأن في وسع الإنسان الاتصاف بالورع والقداسة والطهارة، وإلا لاضطررنا للقول أن الله الصادق قد بطل قوله وفعله، إذ صار الإنسان، جراء فطرته الخبيثة، شيطانًا مريدًا. فالدين الذي يزعم أن الإنسان قد جاء إلى الدنيا بفطرة خبيثة، كأنما يعلن أن الله أراد أن يخلق البشر على صورته، ولكنه فشل و لم يقدر على خلق إنسان واحد كما شاء. إنه خلق آدم على

صورته، ولكنه صار آثمًا، وهذا إما يعني أن لله – والعياذ به ﷻ – صورة ناقصة، أو أنه تعالى فشل في تنفيذ خطته، وأن الشيطان استولى على باكورة ثماره ﷻ، كما تمكن من سرقة باقي ثماره أيضًا، بل إنه انتزع من الله آخر ثماره، أعني المسيح، وألقاه في الاختبار. أليست هذه عقيدة مسيئة إلى الله؟ ألا تمثّل طعنًا في كونه صادقًا؟ إنه تعالى يعلن أنه خلق الإنسان على صورته، ولكن ما يحدث – بحسب هذه العقيدة – هو أن أول البشر نفسه خُلق على صورة الشيطان، أي بدأ في طاعة الشيطان، كما أن ذريته أيضًا وقعت للأبد في المعصية الموروثة واتبعت خطوات الشيطان، حتى إن المسيح، الذي جاء كمخلص للبشر، ثبت أنه ضعيف لدرجة أن الشيطان أتى ليجربه هو الآخر (انظر متى ٤: ١-١١).

نقاء فطرة الإنسان من الإثم

أما القرآن فيعلن، على النقيض، أن الله تعالى ليس بحاجة إلى أي كفارة ولا فداء حتى يمنح العبادَ النجاة. إنه تعالى قد خلقهم لينالوا الهدى، وأنه خلقهم بفطرة تحمل بذرة الخير. وإليك بيان ذلك:

١- لقد سجل الله تعالى في القرآن الكريم ادعاء الشيطان بأنه سيعمل على إفساد الإنسان كالآتي: ﴿قال أرأيتَك هذا الذي كرّمتَ عليّ لئن أخّرتَنِ إلى يوم القيامة لأَحتَنكَنَّ ذرّيّتَه إلا قليلاً * قال اذهَبْ فمَن تبِعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورًا * واستفزِزْ مَن استطعتَ منهم بصوتك وأَجلِبْ عليهم بخيلِك

ورَجلك وشارِكْهم في الأموال والأولاد وعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا * ربُّكم الذي يُزجي لكم الفُلْكَ في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا﴾ (الإسراء: ٦٣-٦٧).

أي لما خُلق آدم، ونـــزل غضب الله على الشيطان لعدم طاعته لآدم قال الشيطان لله تعالى: إن هذا الشخص الذي فضّلتَه علي لو منحتَني المهلة إلى يوم القيامة لمحاربته لتغلبتُ على ذريته إلا قليلاً منهم. فثبت من ذلك جليًّا أن القرآن الكريم يرى - وللمسيحيين أن يرفضوا ذلك - أن الشيطان هو الآخر لم يستطع الادعاء بفساد كل الجنس البشري، كما تزعم المسيحية، كما لم يتجاسر على الادعاء بإفسادهم جميعًا، بل اعترف بأن بعضهم سينجون رغم هجومه عليهم لإغوائهم حيث قال: ﴿لأحتنكنّ ذريتَه إلا قليلاً﴾.

ثم قال الله تعالى لـــه اذهَبْ ولا تدخر وسعًا في إفساد البشر، ولكني أخبرك من الآن أن الذي يريد أن يأتينا فلن تقدر على إغوائه أبدًا، فمن ذا الذي هو أكثر أمنًا ممن يفوض نفسه إلى الله تعالى.

فثبت من هذه الآيات جليًّا أن القرآن الكريم يعلن أن فطرة الإنسان طاهرة نقية، فإذا كانت فطرته طاهرة فلا بد أن يكون قادرًا على التغلب على السيئة، وإذا كان بوسعه التغلب على السيئة فلم تبق هناك من حاجة إلى أي كفارة أو فداء، بل إن

كفاح الفطرة السليمة، والتوبةَ، ورحمةَ الله المترتبة على ذلك لكافية لنجاته.

إن التدبر في هذه الآيات القرآنية يكشف لنا ما يلي:

الأول: كان الشيطان يأمل أنه قادر على السيطرة على معظم بني آدم. وهذا يعني أن القرآن لا يكتفي برفض الاعتقاد بكون الفطرة الإنسانية خبيثة، بل يعلن أن هذه الفكرة من اختراع الشيطان. علمًا أن رفض المرء عقيدة ما شيء، أما اعتباره إياها بشعة لدرجة أن ينسبها إلى الشيطان فهو أشد من الرفض. فالقرآن يعلن أنها عقيدة شيطانية، وأن الشيطان نفسه لم يدّع بإفساد البشر كلهم، بل أكثرهم.

والثاني: أن الله تعالى قال للشيطان: اذهبْ وجرِّبْ حظَّك، فنحن لا نمنعك من المحاولة، إذ لم نخلق الإنسان إلا لكي يحاربك في سعيه للتحلي بالطيب والخير؛ ولكن اعلم أنك لن تقدر على إغوائه إلا بالتأثير الخارجي فقط، أما فطرته فقد جعلناها نقية سليمة.

ولكن المسيحية تزعم أن الإثم نفذ إلى الإنسان وغُرس في قلبه منذ البداية، ثم أخذ ينتقل إلى أجياله بالوراثة (الرسالة إلى أهل رومية ٥: ١٢-٢١). مع أن هذا لو كان صحيحًا للزم أن تتولد رغبة اتباع الشيطان في قلب الإنسان نفسه، بدلاً من أن يحاول الشيطان إغواءه. ولكن الإسلام يفتي بطهارة قلب الإنسان، بل بطهارة

أولئك الذين يقعون في قبضة الشيطان، حيث يقول الله تعالى ﴿ واستفزِزْ مَن استطعتَ منهم بصوتك وأَجلِبْ عليهم بخَيلك ورَجلِك وشارِكْهم في الأموال والأولاد وعِدْهم﴾. والمراد من ﴿ خيلِكَ﴾ أصحاب النفوذ الغالبون و﴿رَجلِك﴾ الضعفاء التابعون.

فليس بين كل هذه الحوافز العاملة على إفساد بني آدم حافز واحد ينشأ في قلب الإنسان، بل كلها تأثيرات خارجية تهاجم الإنسان من الخارج وتفسده. فقولـــه تعالى: ﴿بصوتك﴾.. يعني أنك، يا شيطان، ستحاول إفساد الإنسان من خلال الغناء والموسيقى. وأما قوله تعالى: ﴿وأَجلِبْ عليهم بخَيلك ورَجلِك﴾.. فيعني أنك ستفسده بالتهديد والتخويف، فمثلاً توسوس لـــه: لا تصدُق القول وإلا فمصيرك السجن أو الإعدام، وعليك أن تصب سوط الاضطهاد على أتباع الرسول حتى لا يزدهروا ولا يتغلبوا عليك. وأما قوله تعالى: ﴿وشارِكْهم في الأموال والأولاد وعِدْهم ﴾.. فيعني أنك ستسعى لإغراء الإنسان بطرق شتى، فتقول لـــه مثلا: إذا لم تأكل المال الحرام فتظل فقيرًا طيلة الحياة، فلا بأس في أكل الحرام من أجل الرقي. ثم قال ﴿والأولاد﴾.. أي لا بد لك من التحزب بجمع الأتباع والأصحاب من أجل الرقي والتقدم. ثم قال ﴿وعِدْهم﴾.. أي ستَعِدُه بكل نوع من النجاح والازدهار وتحفّزه لذلك على الكذب والمكر والغش والخداع.

فإذا كان قلب الإنسان غير طاهر بفطرته لما كانت ثمة حاجة إلى أي من هذه العوامل الخارجية، بل لقال الله تعالى بكل بساطة: لأن آدم اقترف الإثم، فقد صار الإنسان آثمًا بفطرته. ولكن كل هذه الأمور التي ذكرها القرآن في سياق إفساد الإنسان وإغوائه إنما هي تأثيرات وحوافز خارجية أعني (١) الغناء والموسيقى (٢) التهديد والتخويف (٣) الإغراء بالمال؛ فثبت أن الإنسان محفوظ من داخله. ولكن الإثم الموروث المزعوم لا يأتي من الخارج بل يتولد من داخل الإنسان. فمثلاً، هناك شخص كانت أمه مصابة بمرض السُّلّ، فأرضعته في صغره، فانتقلت مادة السلّ إليه، فلو أصيب هو بالسل لقيل إن مرضه جاء من داخله. ولكن هناك شخص آخر يقوم بعيادة شخص مسلول وتمريضه، فتتسرب جراثيم المرض في جسمه عبر ثياب المسلول وأنفاسه، فيصاب هو الآخر بالسلّ، وبالرغم من أن كل واحد منهما أصيب بالسلّ، غير أن المريض الأخير قد هاجمه المرض من الخارج، أما الذي أرضعته أمه المسلولة فقد جاء مرضه من الداخل. وبالمثل هناك أمراض كثيرة يرثها الأولاد من الوالدين، ومنها مرض الصرع أيضًا؛ فأولاد مرضى الصرع أيضًا يصابون بنوبات الصرع. ومنها مرض الجنون الذي ينتقل أيضًا إلى الأولاد بالوراثة، فقد رأيناه قد انتقل إلى ثلاثة أجيال أيضًا. إن الإنسان لا يعيش طويلا فليس بوسعه أن يلاحظ هذا الأمر لفترة أطول من ذلك، ولكن لو تشكلت هناك

مؤسسة للتحري والبحث في مدى انتقال هذا المرض فقد تلاحظ أن هذا المرض ينتقل إلى الجيل السابع أو الثامن. فهناك نوع معين من مرض الزُّهري ينتقل بالتأكيد إلى الجيل السابع. بل لقد قرأت في بعض الفحوص المنشورة في أوروبا أهم قد وجدوا آثار هذا المرض حتى في الجيل العشرين، ولكن بشكل مختلف عما كان عليه في أول أمره. والبديهي أن هذا المرض لم ينتقل في هذه الحالات من الخارج، بل كانت جراثيمه موجودة في هؤلاء المرضى، فعندما أصيبت أبداهم بالضعف الشديد بدأت عظام أنوفهم تتآكل وتنخفض أو ظهرت علامة أخرى، مؤكدةً أن مادة مرض الزهري كانت موجودة في داخلهم، إلا أنه قد ظهر للعيان الآن.

وعلى النقيض، إذا كان الأب بريئًا من هذا المرض تماما، ولكن ابنه يمس مريض الزهري مسًّا يصيبه بالعدوى، فلن نقول أنه ورث هذا المرض من أبيه، بل نقول إن مرضه جاء من الخارج. وبالمثل فإن كل دواعي فساد الإنسان وإغوائه التي ذكرها القرآن الكريم هنا إنما هي تأثيرات خارجية كلها، إذ لم يقل الله للشيطان: نعمْ، لأن آدم قد أذنب لذا ستنجح في إغواء أبنائه الوارثين لذنبه، بل قال: إنما تنجح في إفسادهم بالإغراء والتهديد والغناء والموسيقى، وهي كلها مؤثرات خارجية، وليست نابعة من داخل بني آدم.

هذا، وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك أمرًا يؤكد ما ذكرتُه من معان لحرف الكاف في مقطعة "كهيعص". لقد قال الله تعالى هنا:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.. أي لن تستطيع السيطرة على الذين هم على صلة معي، فلن يؤثر فيهم إغراؤك ولا تهديدك وتخويفك. ثم قال تعالى ﴿وكفى بربك وكيلا﴾. فكلمة "كفى" هنا تدل صراحةً على المعنى الذي بينته لحرف الكاف في "كهيعص"، وهو أن الكاف يدل على أن سورة مريم تتحدث عن صفة الله "الكافي". فإن الإنسان عندما يفوض أمره إلى ربه فإن الله يكفيه كوكيل، فلا يقع في قبضة الشيطان أبدًا. ولكن إذا كان كل إنسان يولد غيرَ طاهر من جراء الإثم المتوارث، كما يزعم المسيحيون، لزم أن يهلك مهما اتصف بالورع والتقوى، ومهما سلّم نفسه إلى الله تعالى. ولكن هذا لا يحدث أبدًا، فثبت جليًّا أن الإثم يتولد بتأثير خارجي، أما الفطرة الإنسانية فهي نقية طاهرة في حد ذاتها.

ثم ساق الله على ذلك دليلا في الآية التالية إذ قال تعالى: ﴿ربُّكم الذي يُزجي لكم الفُلكَ في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا﴾.. أي أنكم تعدّون الإثم إعصارا جارفًا، وكارثة مدمرة، وتظنون أن الإثم قد خيّم في النفوس البشرية بحيث يستحيل تحررها منه، ولكن الحقيقة أن الإثم ليس بشيء في حد ذاته، بل هو وهمٌ كله، ويمكن أن تفهموا حقيقته بمثال السفن التي تجري في البحر- علمًا أن السفن البخارية التي تجري بالبضائع من بلد إلى بلد قد اختُرعت حديثًا، أما في الماضي فكانت السفن

شراعية - إن هذه السفن إنما تجري بقوة الريح، ولكن هذه الريح نفسها تتحول إلى إعصار مدمر في بعض الأحيان. فلو قلنا للناس: هل تريدون إيقاف الرياح لأنها تسبب الإعصار لصرخ الجميع وقالوا: كلا، لأن إيقاف الرياح تدمر تجاراتنا وأعمالنا وأرزاقنا، أما الإعصار فيأتي نادرًا، ولا بأس لو أغرق سفينة أو سفينتين من آلاف السفن. إنكم تخافون الإثم، مع أنه ليس إلا نوعًا من تجاوز الحد؛ فكما أن قوة الريح التي تأخذ السفن من شاطئ إلى آخر إذا تجاوزت حد الاعتدال انقلبت إعصارًا مدمّرًا، كذلك فإن القوى المودَعة في نفس الإنسان لفائدته، إذا اختل توازنها فسدت وسُميت إثمًا. وكأن الإثم اسم لعاصفة العواطف، وأما العاصفة البحرية فاسم لتجاوز الريح حد الاعتدال، أما دون هذا الحد فكل حركة لها تكون خيرًا وبركة، وتأتي بنتائج طيبة.

ويمكن أن نفهم هذه الحقيقة بمثال العين أيضًا، فإن الله تعالى قد وهب الإنسان هذه النعمة التي يعمل بها ليلَ نهارَ، ولو تحرّينا أعمال أشد الناس فسادًا في اليوم كله حتى نعلم كم مرة استخدم عينه في الحرام، لوجدنا أنه إذا كان قد استعملها في الحلال مائتي مرة، فإنه قد استخدمها في الحرام مرة واحدة فقط. فمرة كنّس بيته مثلاً، وأخرى قابل الزوار، وثالثة كسب قوته بعرق جبينه، وقد قام بكل هذه الأعمال مستعينًا بعيونه، وهو استعمال جائز للعيون، ولكنه ربما نظر مرة إلى امرأة لا يجوز لــه النظر إليها. فلو

أنه كان كفيف البصر لما ارتكب هذا الحرام من دون شك، ولكنه لما عمل أيضًا هذه الأعمال المفيدة. وهذا ما ينبهنا الله تعالى إليه، ويقول: إن تعريف الإثم، كما فهمتموه، غلط. تظنون أن الإثم في حد ذاته شيء سيئ، ولكن الحقيقة أن الإثم ليس إلا إفراط الإنسان وتفريطه في استخدام القوى المودعة في النفس البشرية لفائدة الإنسان ورقيه. فمثلاً ليس الإسراف إلا تجاوز حد الاعتدال في الصدقة، وما البخل إلا تجاوز حد الاعتدال في حب المال، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن بدون الصدقة وحفظ المال أن تدار أعمال الدنيا على ما يرام. وبالمثل ليس الزنا إلا استخدام القوة الجنسية في غير محلها، وليست الرهبانية إلا عدم استعمال هذه القوة؛ ولكن هل استمرار النسل الإنساني بدون القوة الجنسية ممكن، وهل يمكن للإنسان ا لمحافظة على صحته بدون ضبط هذه القوة في حدودها؟

فالله تعالى قد بين هنا فلسفة الإثم، موضحًا أن الإنسان قد خُلق طاهرًا نقيًّا، وأن السيئة تأتي من الخارج، وأن الزعم بأن أكثرية الناس تقع في الإثم إنما هي فكرة شيطانية.

٢- لقد أوضح القرآن هذا الأمر في مكان آخر فقال ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفلَ سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون﴾ (التين: ٥-٧).

فالله تعالى يعلن هنا أنه قد خلق الناس مزوَّدين بأحسن القوى، ولكنه يرد بعضًا منهم إلى الأسفل فالأسفل.

قد يقول هنا المسيحيون: هذا بالضبط ما نقول: جاء آدم أول الأمر وترقى، ولكن نسله تردى إلى الأسفل جراء إثمه.

وقد أبطل الله تعالى هذه الشبهة بقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾.. أي لم يتردّ كل البشر إلى أسفل سافلين، بل ظل المؤمنون الذين عملوا الصالحات في مقامِ "أحسن تقويم"، ولم ينحط عن ذلك المقام إلى أسفل سافلين وما وقع في العقاب إلا أولئك القوم الذين انحرفوا عن الصراط، ورفضوا الانضمام إلى جماعة الأنبياء.

لقد اتضح من هذه الآية أن المذكورِين في قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هم جماعات الأنبياء، والحق أنهم قد كسبوا حسناتهم، كما قد اكتسبوا سيئاتهم أيضًا، إذن فليس خيرهم بموروث، كما ليس شرهم بموروث. وحين نسأل المسيحيين: هل جماعات الأنبياء أيضًا لن تنال النجاة بدون الإيمان بالكفارة؟ يقولون: كلا، لن تنجو هي الأخرى بدون ذلك. ولكن القرآن يعلن هنا أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أي العاملين وفق تعليم نبيهم، سينالون أجرًا غير منقطع. فالظن أن الإنسان قد خُلق آثمًا لظن باطل تمامًا.

قد يقول النصارى على ذلك أن الإنسان آثم بفطرته عندنا، وليس بوسعه أن يعمل الصالحات، ومن أجل ذلك نعتبر الشرع لعنة. ولقد رد القرآن الكريم على ادعائهم هذا بقول الله تعالى:

٣- ﴿ونفسٍ وما سوّاها * فألهمَها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها﴾ (الشمس: ٨-١١).

والتسوية هي إزالة العوَج من الشيء، وجعلُه متساويًا متوازنًا لا إفراطَ فيه ولا تفريطَ (أقرب الموارد)؛ و"ما" في ﴿وما سوّاها﴾ مصدرية؛ فقوله تعالى ﴿ونفسٍ وما سوّاها﴾ يعني أننا نقدّم النفسَ البشرية وحادثَ خلقها بأسمى القوى وأفضل القدرات، كشهادة.

أما قوله تعالى ﴿فألهمَها فجورَها وتقواها﴾.. فيعني أننا بعد خلق النفس البشرية أخبرناها بالإلهام بما سيُبعدها عن صراطنا المستقيم، وأيضًا بما سيمكّنها من التقرب إلينا.

لقد علّمنا الله تعالى بذلك أمرين: أولهما أن النفس البشرية متصفة بالاعتدال لا الاعوجاج، متحلية بالخير لا الشر؛ والثاني أن لديها الشعور بالخير والشر، بمعنى أن فيها الضمير الذي يفرّق بين طريق الخير وطريق الشر. فمثلا إن العصا التي قد نــــزع قشرها لا تدرك أنها مقشورة، ولكن الإنسان يدرك محاسنه وكفاءاته. أو مثلا هناك شخص نعرف أن في جيبه دينارًا، وأنه ليس صفر اليدين، ولكن هذا الشخص نفسه إذا لم يعرف أن في جيبه دينارًا فلن ينتفع به.

فالله تعالى يؤكد أمرين: الأول أنه خلق الإنسان نقيًّا بريئًا من كل عوج، والثاني أنه تعالى قد أخبره بما سيؤدي به إلى الخير أو الشر. وكأن الإنسان ليس نقي الفطرة فحسب، بل يدرك أيضًا

كيف يستغل الكفاءات المودعة فيه، وأن عنده ضميرًا ينبهه أي الأعمال تُعَدُّ سيئة، وأيها حسنة.

أما قولـــه تعالى ﴿قد أفلح مَن زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ فقد زاد الأمر وضوحًا حيث بيّن أنه تعالى قد خلق النفس البشرية طاهرة نقية، فمن حافظ على طهارتها و لم يدنّسها، فقد فاز فوزًا عظيمًا؛ أما من قضى على طهارتها ونقائها، وداس خيرها تحت قدميه فقد خسر خسرانًا مبينًا.

٤- ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ ربِّك الأعلى * الذي خلَق فسوّى * والذي قدَّر فهدَى * والذي أخرجَ المرعى * فجعَله غُثاءً أَحوى * سنُقرئك فلا تنسى* إلا ما شاء اللهُ إنه يعلَم الجهرَ وما يخفى * ونُيسّرك لليُسرى * فذَكِّرْ إنْ نفَعت الذكرى * سيَذّكّر من يخشى * ويتجنّبها الأشقى * الذي يصلَى النارَ الكبرى﴾ (الأعلى: ٢-١٣).

إن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: كيف عرف الإنسان أن ربه هو الأعلى. فردّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿الذي خلَق فسوّى﴾.. فإنه خلق الإنسان وجعله بريئًا من كل منقصة وعيب.

ثم قال تعالى ﴿والذي قدّر فهدَى﴾.. أي أنه تعالى جعل لرقي الإنسان مدًى يمكنه الوصول إليه، ثم دلّه على الطريق الذي يوصله إلى ذلك الحد من الرقي والكمال.. أي أخبره أنه إذا أراد أن يكون من المؤمنين العاديين فعليه بكذا، وإذا كان ينوي أن يكون

مؤمنًا من الطراز الأول من الصدّيقين والشهداء فعليه بكذا وكذا. وكأن الله تعالى قد جعل للإنسان درجات روحانية متفاوتة، ثم دله على ما يساعده على بلوغها.

علمًا أن قوله تعالى ﴿الذي خلَق﴾ إنما تقديره: الذي خلق الإنسانَ، لأن كل الأمور المذكورة بعده تخص الإنسان؛ إذ لا علاقة للهداية بالشجر ولا الحيوان بل بالإنسان. فينبهنا الله تعالى هنا أن ليس بوسعكم أن تعرفوا بأنفسكم القانون الإلهي الخاص بالبشر، والقانون الخاص بالكائنات الأخرى.

ثم قال الله تعالى ﴿والذي أخرَجَ المرعى فجعَله غُثاءً أحوى﴾.. أي انظروا إلى الزروع والخضار كيف تصبح بعد فترة سوداءَ اللون وحطامًا لا يبقى لها أثر؛ أما الإنسان فيبقى خيره أي خلاصته وروحانيته. فليس بوسعنا مثلاً أن ننتفع من ثمار السنة الماضية، ولكن التعليم الذي جاء به آدم موجود حتى اليوم، وكذلك شرائع نوح وإبراهيم وموسى باقية إلى الآن. فثبت أن القانون الخاص بالإنسان مختلف عن القانون الذي يخص غيره من الكائنات. فإذا كان الإنسان شيئًا خبيثًا فما الداعي لاستبقائه وما الحاجة إلى استحيائه منذ آلاف السنين.

قد يقول البعض هنا: وما يُدرينا أن ما يُنسب إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى من شرائع هي شرائعهم حقًّا؟ فرد الله على ذلك بقوله ﴿سنُقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله * إنه يعلَم الجهرَ وما

يَخفى﴾.. أي سنقرئك الآن درسًا لن تنساه أبدًا إلا ما نعطيك من تعليم مؤقت ثم ننسخه. ومثال التعليم المؤقت الأمرُ بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة أول الأمر، ثم الأمر بالتوجه شطر الكعبة (البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة).

علمًا أن الخطاب هنا ليس موجَّهًا إلى النبي ﷺ فحسب، بل إلى الناس جميعًا، وقد أعلن الله تعالى هنا أن الإنسان لن يستطيع نسيان هذا التعليم مهما حاول ذلك، بمعنى أن الله تعالى سوف يكتب لـهذا التعليم البقاء والثبات، وسيدرك الناس أن فيه علم ما يختلج في أنفسهم من أفكار خفية، وعلم ما يقع في الخارج من أحداث مؤثرة على أعمالهم.

ثم قال الله تعالى ﴿ونيسِّرك لليسرى﴾.. أي أننا نضمن لك إيجاد الأسباب لنشر هذا التعليم باستمرار على نطاق واسع. إذا كان البعض يظن أن الشرع لعنة فسنرى كيف لا يعمل الناس بهذا التعليم.

ثم قال تعالى ﴿فذَكِّرْ إنْ نفَعتِ الذكرى﴾.. أي لقد ثبت بهذه الأدلة والبراهين أن إصلاح قلوب البشر ممكن بالشرع وبالأمور المتعلقة به، فعليك بالانتفاع من هذه الوسائل لإصلاح البشر.

ثم قال الله تعالى ﴿سيَذّكّر مَن يخشى ﴾..أي أنك إذا عرضت هذا التعليم فلا بد أن ينتفع به الذين في قلوبهم خشية الله وهيبته.

وهذا برهان آخر على أن الخير أو الشر لا ينتقلان بالوراثة، لأن خشية الله إنما تتولد داخلَ القلوب.

ثم قال تعالى ﴿ويتجنبها الأشقى الذي يصلَى النارَ الكبرى﴾.. أي لن يهرب من العمل بهذا التعليم إلا مَن قد ألقى نفسه في الشقاء. وهذا أيضًا يؤكد أن الشقاوة إنما هي من حصاد أعمال الإنسان، وإلا فكل إنسان طاهر بفطرته.

٥- ويقول الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم ﴿ألم نجعَلْ لــه عينينِ ولسانًا وشفتَينِ وهديناه النَّجْدَينِ﴾ (البلد: ٩-١١).. أي أن الذي يزعم أن البشر آثمون بفطرتهم، وأن الإثم قد انتقل إليهم بالوراثة، عليه أن يتفكر: إذا كان الإنسان غير قادر على الانتفاع بالشرع، وإذا كانت النجاة منحصرة في الكفارة، فلماذا آتينا الإنسان العينين، ولماذا يرى بهما؟ إذا كان قلبه نجسًا، وإذا كان تطهيره من خلال الحوار مع بعض المعارف خارج نطاق طاقته، فلماذا جعلنا لــه اللسان والشفتين؟ وإذا كان زعمه هذا صحيحًا فلماذا جعلنا لــه ضميرًا يميز بين الخير والشر؟ فمثل المؤمن بالكفارة المسيحية كمثل شخص يظن أن جوعه سيزول إذا ما ملأ حفرة بالحجارة.كلا، إنما الشيء النافع ما يأتي بنتيجة منطقية، وحيث إن الكفارة ليست لها نتيجة منطقية معقولة، وليست فيها فائدة ثابتة، فلا داعي لها؟ إذا كانت نجاة بني آدم

موقوفة على الكفارة فلم جعل الله لهم عينين ولسانًا وشفتين ثم هداهم النجدين.

واعلم أن من مزايا القرآن الكريم أنه أحيانًا يبين الحقائق العظيمة في كلمات وجيزة جدًّا. فقد وردت في القرآن كلمات مختلفة كالطريق والسبيل مثلاً بمعنى الدرب الذي يسير فيه الناس، ولكن الله تعالى قد استعمل هنا كلمة "النجد" دون الطريق والسبيل. وهذا دليل على أن الموضوع المذكور هنا يتعلق بالنجد، لا بالطريق والسبيل. وتقول القواميس إن النجد هو الطريق المرتفع (أقرب الموارد)، ويذكر القرآن في مكان آخر أن السير في الطريق المرتفع يشق على الإنسان، إذ تضيق أنفاسه وتتورم أقدامه. وإلى هذا المعنى نفسه قد أشار الله تعالى بقوله ﴿وهديناه النجدين﴾، إذ لا يعني النجد هنا الطريق المادي كما نراه مشروحًا بكل وضوح في الآيات التالية، حيث قال الله تعالى ﴿فلا اقتحم العقبةَ * وما أدراك ما العقبة * فكُّ رقبة * أو إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبة * يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا مَتربة﴾ (البلد: ١٢-١٧). فاقتحام العقبة قد عني به هنا إخراج الصدقة وإنفاق المال ومساعدة اليتامى والمساكين. فثبت أن المراد من ﴿النجدينِ﴾ هنا هو طريق الخير وطريق الشر. والقاعدة أن الإنسان لا يكدح للشيء الذي يرثه. خذوا مثلا العيون، فإننا قد أُورِثناها بدون أي جهد ومشقة منا، لذلك لا نبذل للرؤية بها جهدًا ولا عناء، وإنما نرى بها تلقائيًّا.

وبالمثل نتكلم باللسان تلقائيًّا، ونمسك بالأيدي تلقائيًّا، ونمشي بالأرجل تلقائيًّا، لأننا ورثناها من الآباء. فإذا كنا قد ورثنا الإثم من الآباء فيجب أن لا نعاني في ارتكابه عناء ولا مشقة، ويجب أن لا يكون طريقًا صعب الصعود، لأن القوى التي يرثها الأبناء من الآباء لا يجدون في استعمالها من عناء. ولكن الله تعالى يعلن هنا أنه قد جعل لنا النجدين.. أي أنكم إذا أردتم التقدم في مجال الخير فلا بد لكم من الجهد والعناء في سبيله، وبالمثل إذا أردتم السير في طريق الشر فلا بد لكم من العناء والمشقة. فثبت أن الإنسان لم يرث الخير أو الشر من الآباء، بل كل واحد منهما مجلوب بجهد الإنسان ومشقته. لو كان الإثم موروثًا لوجب أن لا يعاني المرء لدى أول كذبة أو أول سرقة، ولكنا نجد أن المرء إذا كذب في حياته أول كذبة امتُقعَ وجهه واصفرّ، وإذا قام بأول سرقة أخذ يفرّ من الناس ويهرب، وأحيانًا تحصل منه تصرفات تدل الناس على جريمته. فمن القصص الشهيرة في بلادنا أن أحد البراهمة*، قتَل بقرة، وكان القانون عندئذ أن البَرْهَمِيّ إذا قتل بقرة قُتل. فأخفى البقرة في البيت وخرج. فكلما رأى في السوق شخصين يتكلمان أسرع إليهما وقال: ما هذا الحديث عن البقرة؟ فكان يقولان لـــه: كلا، لم نتحدث عن أي بقرة أبدًا. فكان يقول: لا،

* هم المنتمون إلى أعلى طبقة من الطبقات الأربع في الديانة الهندوسية. (المترجم)

إنكما تكتمان عني الحقيقة، إنكما تتحدثان عن البقرة حتمًا. أو قال لغيرهما: ما هذا الحديث عن العجل؟ فإذا أنكرا الحديث عن أي عجل ولا بقرة، قال لهما: لا، إنكما تتحدثان عن العجل. فلم يكد يصل إلى نهاية السوق حتى راب الناسَ أمرُه، فألقوا عليه القبض، وأخذوه إلى بيته، فوجدوا هنالك بقرة ميتة.

فالإنسان إذا ارتكب معصية من المعاصي أول مرة لامته نفسه وتندم. فإذا سرق أول مرة هرب من هنا إلى هناك فزعًا، وإذا قطع على أحد الطريق فرّ خائفًا. فلو كان الإثم موروثًا لما سُمي طريقه نجدًا، ولما عانى المرء في ارتكابه أبدًا.

٦- ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿قال ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدَى﴾ (طه: ٥١).. أي قال موسى لفرعون إن ربنا هو ذلك الذي أعطى كلَّ شيء كفاءاته التي تتناسب مع طاقته ووسعه، ثم أخبره كيف يحقق بها الرقي والكمال. ولا شك أن خلْق الإنسان أيضًا مشمول في قوله تعالى ﴿أعطى كلَّ شيء خَلْقَه﴾. وإن التوراة نفسها تسلّم بأن الإنسان قد خُلق لكي يحظى بوصال الله تعالى، وأنه مباركٌ الذي يستمع لوصاياه سبحانه وتعالى ويعمل بها (الأمثال ٨: ٣٤).

٧- ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هداها ولكنْ حقَّ القولُ مني لَأَمْلَئَنَّ جهنمَ من الجِنّة والناس أجمعين﴾ (السجدة: ١٤).

ويبدو لأول وهلة أن مفهوم هذه الآية مخالف لمعاني الآيات السابقة، ولكنه ليس كذلك في الواقع، إذ لم يقل الله هنا "لهدينا كل نفس"، بل الحق أنه لو كانت الآية هكذا لما خالف مفهومها معنى الكلمات السابقة، إذا يقول الله تعالى هنا إن كل نفس من النفوس البشرية خلقناها مزوَّدةً بأسباب هدايتها، ولكن بعضها تُلقي هداها بعيدًا، ولو شئنا لآتيناها هداها ثانية بالجبر والإكراه، ولكنا لا نفعل ذلك لأن الإكراه يبطل غاية خلق الإنسان.

وهذا دليل آخر على أن النفس البشرية قد خُلقت طاهرة نقية، وأن كل إنسان قد خُلق مع هداه، ولكن البعض يُلقون هداهم بعيدًا بسبب حماقتهم وجهلهم، ولو شاء الله تعالى لردّ لهم هداهم الفطري قسرًا.. أي لما سمح لهم برفض الهدى، ولكن قد سبق منه القول في الذين يرمون هداهم الفطري أنه سيعاقبهم على عملهم، وإن كان تعالى يود أن ينالوا الهدى. وهذا هو مفهوم قوله تعالى ﴿ ولكنْ حقَّ القول مني لأملئنّ جهنم من الجِنّة والناس أجمعين﴾.. أي لقد خلقنا الإنسان بحيث إنه يدخل جهنم نتيجة أعماله السيئة، وإن كنا قد هيأنا لهدايته كل أنواع الأسباب.

٨- ويقول الله تعالى في مكان آخر ﴿وأُزلفت الجنّة للمتقين﴾ (الشعراء: ٩١).. أي لقد جعلنا الجنة قريبة من أهل التقوى.. بمعنى أن فطرهم النقية تأخذهم إلى الجنة من جهة، وأن عون الله يقرّبهم

منها من جهة أخرى، وهكذا فإن الهدى الباطني والهدى الخارجي يمكّناهم من دخول الجنة.

٩- وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ﴾ (الذاريات: ٥٧).. أي أن غايتنا من وراء خلق الجنس البشري كله أن يصيروا عبادًا لنا. وقد شرح القرآن الكريم معنى العبد في موضع آخر بقوله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجِعي إلى ربك راضيةً مرضيّةً فادخُلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ (الفجر: ٢٨-٣١).. أي يا أيتها النفس التي رضيتْ بوصال بالله تعالى عُودي إليه وأنت راضية عنه وهو راض عنك.. أي أن تلك النفس طاهرة، وقد بلغت من الطهر والقدس حتى صارت محبوبة لدى الله تعالى. فإذا بلغ الإنسان هذه الدرجة صار عبدًا لله حقًّا، وحقق الهدف من خلقه المذكور في قوله تعالى ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبُدونِ﴾، وبالتالي استحق حتمًا بشارة ﴿وادخُلي في جنتي﴾.

فما دام الله تعالى قد حدد الغاية من خلق الناس، وهي أن يصيروا عبادًا لــــه ﷻ، فمن ذا الذي يستطيع أن يبطل هذا القرار الإلهي. علمًا أن الله تعالى لم يكتف ببيان هذه الغاية من خلق البشر فحسب، بل أخبر أيضًا أنه سيكون بينهم من يحقق هذه الغاية ويتلقى من الله تعالى بشارة: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجِعي إلى ربك راضيةً مرضيّةً فادخُلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

هذا، وقد أشار الله تعالى هنا إلى أمر لطيف آخر، وهو أنه تعالى ذكر أن علامة النفس المطمئنة كونها ﴿راضيةً مرضيّةً﴾.. أي أنها رضيتْ عن الله كما رضِي الله عنها، بينما يقول الله تعالى عن صحابة النبي ﷺ: ﴿رضِي الله عنهم ورضُوا عنه﴾ (التوبة: ١٠٠)؛ ولو تدبرنا الآيات المذكورة أعلاه على ضوء هذه الآية لوجدناها تقول: يا أيتها الجماعة، جماعة الصحابة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي. إذن فإن هذه الآيات لتشهد على أن صحابة الرسول ﷺ قد بلغوا ذلك المقام الذي يدخل به الإنسان في زمرة عباد الله تعالى، ويرث جنته، محققًا الغاية من خلقه.

١٠- وهناك آية أخرى توضح هذا الموضوع، وقد وردت في سياق قصة آدم عليه السلام نفسِها. يقول الله تعالى عن آدم ﴿ولم نجد لـــه عزمًا﴾ (طه: ١١٦).. أي أن ما وقع فيه آدم كان خطأً اجتهاديًّا، غير متعمَّد. ذلك أن الأخطاء نوعان: خطأ اجتهادي يقع نسيانًا، وخطأ متعمد يتم عن عزيمة وإرادة. ثم للخطأ الاجتهادي أنواع، وللخطأ المتعمد أنواع كذلك. والله تعالى يؤكد هنا أن خطأ آدم كان اجتهاديًّا، ولم يكن من الأخطاء المتعمدة. إن آدم ما أراد أن يقع في ذلك الخطأ، ولكنه ارتكبه رغم أنفه. وغني عن البيان أن الإثم جزءان، جزء ظاهر، وجزء باطن، وإن ما يحرم الإنسانَ من النجاة إنما هو الجزء الباطني للإثم. مما لا شك فيه أن

الإنسان ينال العقاب بسبب الجزء الظاهر للإثم، ولكن ما يحرمه من النجاة هو جزؤه الباطني. فالسرقة مثلا تعني أخذ متاع الآخرين، ولكن كثيرًا ما يخطئ الإنسان فيأخذ معه شيئًا لا يملكه. فمثلا تكون قدم البعض ضعيفة الحسّ، فيلبس حذاء غيره ويذهب به من المسجد مثلاً دون أن يشعر بذلك. ولنفترض أن صاحب الحذاء قبض عليه، وأخذه إلى الحاكم، فأمر بسجنه؛ فمما لا شك فيه أنه قد نال العقاب بسبب الجزء الظاهري من عمله، ولكن قلبه لن يسودّ بسببه، لأنه لم يأخذ الحذاء عمدًا.

فذات مرة زارني هنا في قاديان أحد أقارب "نظام"، حاكمِ ولاية حيدر آباد الدكنية، ليطلب مني الدعاء لبعض مشاكله. فقلت في نفسي إن مثل هؤلاء القوم لا يكونون في المتناول كل يوم، فينبغي أن أعظه جيدًا. فدعوته لتناول وجبة العشاء معي، و لم أزل أعظه وأنصحه حتى انتصف الليل. قلت له: هل تصلي؟ قال: نعم، أصلي في البيت أحيانًا، أما في السفر فلا لأن الحفاظ على الطهارة أثناء السفر صعب. قلت: إنك تملك الملايين، ويصاحبك في هذا السفر نفسه حوالي سبعة من الخدم، ومع ذلك لا تصلي، فكيف يكون حال الفقراء. إن الصلاة ليست أشد فرضًا عليهم، بل الجميع سواسية بهذا الشأن، ولكنك قد أوتيت من المرافق والسهوليات ما لم يؤتَوا منه شيئًا، حيث تسافر في عربات محجوزة من القطار في راحة ويسر؛ فماذا يكون جوابك، وماذا

يكون عذرك عند الله إذا سألك عن الصلاة؟ إن الفقير يمكن أن يجيب الله تعالى: ربِّ، إنني لم أصلّ لأني كنت ناقمًا عليك، وقلت في نفسي: إن ربي لم يكترث لحالي فلماذا أعبده؟ لا شك أن مثل هذا الجواب ضربٌ من الجنون والخبل، ومع ذلك يوجد فيه شيء من المنطق والوزن؛ ولكن ما هو جوابك أنت؟ فرأيت أن حديثي قد ترك فيه وقعًا كبيرًا، وكاد ينفجر بالبكاء. فوعدني بالمواظبة على أداء الصلوات.

ولما فرغنا من الحديث عند منتصف الليل، ذهب إلى مكان إقامته، وأمر خدمه وقال: أيقِظوني لصلاة الفجر في كل حال لأني قد تعرضت اليوم لموقف محرج جدًّا، وبماذا سأجيب حضرته لو سألني غدًا عن الصلاة. قال الخدم: حضرتك لا تستطيع أن تستيقظ للفجر في الأيام العادية حين تنام في الساعة التاسعة، فكيف تستيقظ في الصباح للصلاة وأنت تنام الآن في هذه الساعة المتأخرة؟ فقال: أيقظوني للفجر في كل حال وإلا فسوف أعاقبكم. فأيقظوه، ولكن المسكين لم يكن متعودًا على ذلك، فهبّ من فراشه وبدأ يمشي إلى المسجد كالسكران، وكلما تعثر سانده الخدم. فوصل أخيرًا إلى المسجد، وصلى الفجر وهو شبه نائم. وعند الخروج من المسجد لبس، لشدة غلبة النوم، حذاءً رديئًا خشنًا مكان حذائه الليّن الثمين. ولما بلغ نصف الطريق نظر أحد الخدم إلى الحذاء، فقال لــه: حضرة الأمير، لقد لبست حذاء

شخص آخر؟ ففتح الأمير عينيه، ونظر إلى قدميه، وقال في فزع: أسرِعوا واذهبوا بهذا الحذاء إلى المسجد حتى لا يتهمني أحد بسرقة حذائه. فعرفتُ في الصباح أن الأمير صلى الفجر في المسجد عملاً بنصيحتي، فوقع في هذه الورطة.

فلو أن صاحب الحذاء رآه في قدمي الأمير - الذي لم يكن مكتوبًا في جبينه أنه أمير - وأخذه من تلابيبه متهمًا إياه بالسرقة، وجرّه إلى الشرطة، فلربما تعرض للعقاب، ولكن عمله هذا لا يحرمه من النجاة إذ لم يفعله عن عمد وإرادة. وبالمثل فإن الزهري والسيلان لهما من الأمراض التي تعدُّ ثمرة الزنى عمومًا، ولكن من الممكن أن المصاب بهما لم يرتكب الزنى أبدًا، بل ارتكبه أبوه أو جدّه. فمثلا هناك أرملة كان زوجها مصابًا بالزهري، وانتقلت عدواه منه إليها، ثم تزوجها شخص آخر فانتقلت العدوى منها إليه، فهذا الأخير لن يعاقَب بسببه بعذاب الجحيم، ولن يسودّ قلبه، بل ربما يتطهر قلبه أكثر. فالشيء الذي يسوِّد القلب إنما هو الجزء الباطني للإثم، أما الضرر الذي يصيب المرء بسبب جزئه الظاهري فإنما هو ضرر مؤقت فقط.

فالله تعالى يقول عن آدم أيضًا: ﴿لم نجد لــه عزمًا﴾.. أي أن الخطأ الذي صدر عنه لم يكن عن قصد، وإنما كان خطأ اجتهاديًّا، كما تقول التوراة أيضًا إن الشيطان قال لــه إن هذا عمل حسن

يساعده على التمييز بين الخير والشر، فظن آدم أنه صادق في قوله، فوقع في الخطأ؛ فثبت أن خطأه كان اجتهاديًّا.

١١- ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعًا﴾ (الزمر: ٥٤).. أي أن ذنوب المرء كلها تُغفر لـــه بالتوبة الصادقة؟ صحيح أن المسيحية تزعم أن الذنب لا يمكن أن يغفر، ولكنا لا نناقش هنا أي الموقفين صحيح، موقف الإنجيل أم موقف القرآن، وإنما نسجل هنا موقف القرآن بهذا الشأن. إن القرآن يؤكد أن التوبة تتسبب في غفران الذنوب، وإذا كان غفران الذنوب ممكنًا، فإلغاء العقاب أيضًا ممكن حتمًا.

١٢- ثم يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ ربه جنّتانِ﴾ (الرحمن: ٤٧).. أي أن له جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. والواضح أن الجنة الدنيوية لا تعني الأموال والمتع المادية، فهناك كثير من عباد الله الصالحين الأخيار الذين كانت حالتهم المادية أسوء من الكفار بكثير. خذوا النبي ﷺ مثلا، فإن أحد العمال في أوروبا اليوم يأكل أفضل مما أكله الرسول ﷺ، ويلبس أحسن مما لبسه. فلا يمكن إذن أن يراد بالجنة الدنيوية النعم المادية، وإلا للزم القول أن العامل الأوروبي في الجنة وأن الصلحاء الكبار والأولياء الأخيار لم يكونوا في الجنة. فالجنة الدنيوية إنما تعني هنا السكينة الروحانية، ودخولها يعني التمتع بقرب الله تعالى. فالله ﷻ يعلن هنا أن الذي في قلبه خشية الله سيكون مقربًا لديه ﷻ في

هذه الدنيا وفي الآخرة أيضًا. وهذا يعني بكل وضوح وجلاء أن بوسع كل إنسان أن يكون مقربًا لدى الله تعالى، أما لو كان الإنسان آثمًا بالوراثة فأنى لـــه أن يحظى بقرب الله تعالى؟

١٣- ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ومَن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ (الإسراء: ٧٣). وهذا لا يعني أن الشخص الضرير في هذه الدنيا سيظل ضريرًا في الآخرة أيضًا، فإن هذا ظلم عظيم؛ إنما تعني الآية الأعمى روحانيًّا الذي لم يحظ برؤية الله تعالى بالعيون الروحانية. ولهذه الآية مفهومان: سلبي، وإيجابي.. أي سيكون في الآخرة أناس عميان، وسيكون فيها من لن يكونوا عميانًا، فالله تعالى يؤكد هنا أن قلوب الجميع لا تفسد في الدنيا، بل إن قلوب البعض تظل طاهرة في الدنيا، وأن الذي لن يقدر على رؤية الله في الآخرة إنما هو ذلك الذي يصير قلبه فاسدًا في الدنيا.

١٤- وكذلك ورد في الحديث الشريف: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين).. أي أن كل طفل يولد بفطرة سليمة وبروح مائلة إلى الخير، ثم إن والديه يجعلانه يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مجوسيًّا. فثبت بذلك أيضًا أن كل إنسان يولد بفطرة صحيحة، وأن الشر يتسرب إليه بتأثير من حوله.

١٥- وورد في حديث آخر أن الله تعالى قد جعل لكل إنسان قلبًا نقيًّا، فيأتي إلى الدنيا ويعمل الحسنات والسيئات، وكلما عمل حسنة تركت في قلبه بقعة بيضاء، وكلما ارتكب سيئة صارت على قلبه بقعة سوداء، وإذا استمر في السيئات ازدادت البقع السوداء في قلبه حتى يسود القلب كله في آخر المطاف، وإذا واظب على فعل الخيرات صار قلبه كله أبيض ناصعًا، فلو أن البياض غلب قلبَه كله صار في مأمن من السيئات، أما لو غلب السواد قلبَه كله حُرم الخيرَ نهائيًّا✪. (ابن جرير، قوله تعالى: كلا بل رانَ على قلوبهم).

هذا أيضًا يؤكد أن الإنسان يولد بفطرة سليمة تظل بريئة إلى فترة طويلة. فإذا ابيض قلبه كله، وصار الخير هو الصفة الغالبة فيه، نال النجاة بدون الإيمان بأي كفارة، أما لو اسود قلبه كله وغلبت عليه السيئات لم تغن عنه أي كفارة شيئًا.

ولكن المسيحية تزعم أن آدم ارتكب الإثم، فعوقب عليه، ثم انتقل إثمه إلى ذريته بالوراثة، فما كان بوسع الإنسان بعده أن ينجو بنفسه من هذا الإثم الذي ينتقل إليه بالوراثة تلقائيًّا، فمست الحاجة إلى الكفارة التي قدمها المسيح حاملاً على رأسه آثام

✪ ورد في الحديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبَه؛ ذاك الرين الذي ذكر الله عز وجل في القرآن ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانوا يَكْسِبُون﴾ (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين رقم الحديث ٧٦١١). (المترجم)

الإنسانية كلها. وهذا يعني أن الإنسان– بحسب العقيدة المسيحية– يُخلق عبدًا للشيطان، ولا ينجو من قبضته إلا بالإيمان بكفارة المسيح.

الكتاب المقدس يدحض العقائد المسيحية

لقد سبق أن بينت أن القرآن الكريم يرفض تمامًا هذه العقيدة المسيحية وما يتعلق بها من أمور. إنه يعلن أن الإنسان لم يرث أي إثم، وأنه لم يُخلق آثمًا، ولا حاجة لــه إلى أي كفارة ولا فداء. إن فطرته نقية صالحة للتطور والترقي، حتى يصبح محبوبًا لدى الله تعالى. وأنه لو ارتكب إثمًا من الآثام فتاب عنه فتوبته مقبولة.

تعالوا لنرى الآن كيف يرد القرآن الكريم على عقيدة المسيحيين هذه، وهل تؤيد التوراة عقيدتهم أم لا؟ فإذا لم تؤيدها فيجب ألا تبقى للمسيحيين أيضًا شبهة في أن عقيدتهم باطلة.

وإذا تدبرنا في هذه العقيدة المسيحية نخلص إلى المسائل التالية:

الأولى: أن الإثم قد انتقل إلى الإنسان بالوراثة.

الثانية: ولأنه قد ورث الإثم فليس بإمكانه أن يتطهر بنفسه.

الثالثة: ولأنه لا يمكنه التطهر بنفسه، اقتضت رحمة الله تعالى – الذي هو رحيم كريم – فداءً لطهارته.

الرابعة: أنه قد تطهر فعلاً بهذه التضحية.

ولا بد لنا الآن من فحص هذه المسائل الأربع لمعرفة الحقيقة.

فلنتناول أولاً المسألة الأولى القائلة أن آدم ارتكب الإثم، فصار كل النسل الإنساني آثمًا، لأن إثمه انتقل إليهم بالوراثة.

تعالوا نر الآن هل ارتكب آدم الإثم حقًّا؟ وهل التوراة والإنجيل يُثبتان ذلك؟ فلو ثبت من الكتاب المقدس أنه لم يرتكب الإثم حقًّا لبطلت هذه المسألة كلها تمامًا.

إن دراستي تكشف أن الكتاب المقدس يعلن أن آدم لم يرتكب الإثم، وأن الشيطان هو الآخر لم يرتكب الإثم، بل هناك ما هو أكثر من ذلك؛ إنه يعلن أن الذي ارتكب الإثم هو الله نفسه، والعياذ بالله. وإليكم أدلتي على ذلك.

اعلم أن الكتاب المقدس عبارة عن عدة أسفار تحتوي على أحوال الأمة الإسرائيلية بدءًا من موسى حتى المسيح عليهما السلام وحوارييه. والأسفار المشتملة على أحوالهم بداية من موسى عليه السلام حتى النبي ملاخي تسمى "العهد القديم"، أما التي تحوي أحوال المسيح عليه السلام وحوارييه فتسمى "العهد الجديد". وطبيعي ألا يقيم اليهود للعهد الجديد وزنًا، أما النصارى فيؤمنون بضرورة العمل بالعهدين كليهما. وفي العهد القديم خمسة أسفار لموسى عليه السلام، والكتاب الأول منها اسمه سِفْر التكوين، وفيه ذُكرت قصة آدم عليه السلام التي ورد فيها:

"وأقام الربُّ الإلهُ جَنّةً في شرقيٍّ عدْنٍ ووضَع فيها آدمَ الذي جبَله. واستنْبتَ الربُّ الإله مِن الأرضِ كلَّ شجرةٍ بهيّةٍ للنظر،

ولذيذة للأكل، وغرَس أيضاً شجرةَ الحياةِ، وشجرةَ معرفةِ الخيرِ والشرِّ في وسطِ الجنةِ". (التكوين ٢: ٨-٩).

سوف نرى أكانت شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر شجرتين أم شجرة واحدة. إنها شجرة واحدة عندي، ولكن التوراة لم تحسم الأمر، فتارة تجعلهما واحدة، وتارة أخرى تعتبرهما اثنتين.

ثم تقول التوراة: "وأمر الرّبُّ الإلهُ آدمَ قائلا: "كُلْ ما تشاء من جميع أشجار الجنّة، ولكنْ إيّاك أن تأكل من شجرةِ معرفةِ الخير والشرّ، لأنّك حين تأكل منها حتمًا تموت". (المرجع السابق: ١٦-١٧)

ثم ورد فيما قالته حواء: "ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله : لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا".(التكوين ٣: ٣).

ثم تخبر التوراة أن الشيطان تقدم – علمًا أن التوراة قد استخدمت كلمة "الحية" للشيطان– "فقالت الحيّةُ للمرأة: لن تُموتا، بل إنّ الله يعرِف أنه حين تأكُلانِ مِن ثمر هذه الشجرة تنفتحُ أعينُكما فتصيران مِثله، قادرينِ على التمييز بين الخير والشرّ". (المرجع السابق: ٤-٥).

إن التدبر في هذه العبارات يوضح لنا أن الخطأ لم يكن من آدم، ولا من الشيطان، بل الذنب كله من الله – والعياذ بالله– لأنها تؤكد أن الشجرة كانت شجرة الحياة ومعرفة الخير والشر، ومع ذلك قال الله لآدم: "لأنك حِين تأكُل منها حتمًا تموت". وهذا

يعني أن ما قال الله تعالى لآدم كان - والعياذ بالله -كذبًا، سواء أكان الموت هنا يعني موتًا جسديًّا أو روحانيًّا، إذ لا يموت الإنسان موتًا روحانيًّا بمعرفته الخير والشر، بل يوهب حياة روحانية، كما لا يمكن أن يموت موتًا ماديًّا لأنها شجرة الحياة، ولا يمكن أن يموت بأكل ثمرها.

فثبت جليًّا أن إله التوراة هو الذي كذب وخدع آدم إذ قال لــــه: لا تأكل من شجرة الحياة وإلا ستموت فورًا. كما أن حواء أيضًا لتشهد أن الله تعالى نهاهما عن ثمر تلك الشجرة: "لا تأْكُلا مِنْهُ ولا تلْمُساهُ لِكيْ لا تمُوتا" (التكوين ٣: ٣).

أما الشيطان فقال لحواء بحسب التوراة: "لنْ تمُوتا، بلْ إنّ الله يعْرِفُ أنّهُ حِين تأْكُلانِ مِنْ ثمرِ هذهِ الشّجرةِ تنْفتِحُ أعْيُنُكُما فتصِيرانِ مِثْلهُ، قادِريْنِ على التّمْيِيزِ بيْن الْخيْرِ والشّرِّ" (المرجع السابق: ٤-٥)؛ وليس في قولـــه مثقال ذرة من الكذب، إذ قد وصف الشجرة بالصفتين الموجودتين فيها، أي أنها شجرة الحياة ومعرفة الخير والشر، بمعنى أن الأكل منها يهب الحياة، ويساعد على التمييز بين الخير والشر. فثبت بحسب التوراة أن الشيطان لم يخدع آدم، بل الله تعالى - والعياذ به - هو الذي خدعه.

ثم علينا أن نرى هل مات آدم وحواء بأكل ثمر الشجرة؟ كلا، لم يمت آدم ولا حواء، بل ظلا حيّين كما أكد لهما الشيطان،

وبطل – معاذ الله– ما قال الله تعالى له: "لأنّك حِين تأْكُلُ مِنْها حتْماً تمُوت".

ويجب أن نرى هل بدأ آدم وحواء يميّزان بين الخير والشر بعد أن أكلا من ثمر الشجرة؟ نعم، إنهما أخذا بعد أكله يميزان بين الخير والشر بحسب التوراة.

لقد حاول آدم أن يعرف الخير والشر، وأن يترقى في مجال الخير، ويصبح إنسانًا حقًّا؛ ولا يمكن لإنسان أن يعتبر ذلك سيئة. أما الشيطان فأخبره أن الله تعالى يخدعك حيث يقول لك إنك تموت بأكل الشجرة، ولكنك لن تموت، بل ستحيا، وتصبح عاقلاً تميز بين الخير والشر؛ والتوراة نفسها تخبرنا أن آدم بعد أن أكل من الشجرة صار عاقلاً وبدأ يعرف الخير من الشر؛ فثبت أن الإثم لم يرتكبه آدم ولا الشيطان، بل ارتكبه كائن آخر، وهو إله التوراة الذي كذب إذ قال لآدم عن شجرة الحياة إنها شجرة الموت ستموت بأكل ثمرها. وكان الموت هنا يمكن أن يعني موتًا ماديًّا أو روحانيًّا، ولكنهما ما ماتا أي موت منهما. إنهما لم يموتا ماديًّا لأنها كانت شجرة الحياة، ولم يموتا روحانيًّا لأنها شجرة معرفة الخير والشر أي الشجرة التي تهب آكلها حياة روحانية جديدة. فثبت أن الإثم لم يصدر عن آدم ولا عن الشيطان، بل عن الله – معاذ الله – الذي خدع آدم.

ولا يمكن للمسيحية أن تقول هنا إن الذي كذب هو الإله الأب، وليس الإله الابن. ذلك أن الإله في المسيحية هو مجموعة الأقانيم الثلاثة، حيث لا ينفصل الإله الأب عن الإله الابن، ولا الإله الابن عن الإله الروح القداسة؛ فثبت أن الإله الأب حين كذب فقد كذب معه الإله الابن والإله الروح القدس كذلك.

إذن فإذا كان الإثم قد انتقل بالوراثة فلا بد من التسليم، بحسب التوراة، بأن هذا الإثم لم يصدر عن آدم بل عن الله – والعياذ به – وبتعبير آخر أن يسوع هو الآثم، وعليه تقع كل المسؤولية، لأنه كذب فيما قال لآدم.

فالتوراة، للأسف، تعرض الله تعالى للعالم بصورة ممسوخة مشوهة جدًّا، ويستحيل بعد قراءة هذه العبارات أن يُعد يسوع مخلِّصًا. فأنّى للكاذب المخادع الماكر أن يصير مخلِّصًا للآخرين؟

ومن البراهين الدالة على كون آدم غير آثم أن خطأه كان اجتهاديًّا، كما ينصّ عليه القرآن. ولو سلّمنا جدلاً بصحة قصة التوراة، فإنها هي الأخرى تدعم موقف القرآن هذا بقولها: "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم" (التكوين ١: ٢٧).. أي أن الله تعالى خلق البشر الذكور منهم والإناث كلهم على صورته. وليس المراد من ذلك طبعًا أن لله أنفًا وأذنًا وعينًا وفمًا كما عند البشر، بل المراد منه انعكاس صفات الله تعالى في صفات آدم. وما دام الله تعالى قد خلق آدم

على صورته، وأخبره أيضًا أنه قد خلقه ليكون مظهرًا لصفاته تعالى فكيف يمكن ألا يتصف بصفة معرفة الخير والشر؟ وهذا ما قاله الشيطان لآدم. لقد قال لــه: إن الله تعالى قد جعلك مظهرًا لصفاته، ومن صفاته ﷻ معرفة الخير والشر، ولا بد لك من أن تعرفهما كما يعرفهما الله؛ والسبيل إلى ذلك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، إذ كيف تتمكن من معرفتهما بدون الأكل منها، وكيف تصبح مظهرًا كاملاً لصفاته تعالى بدون أن تتحلى بصفة معرفة الخير والشر؛ فمن الضروري أن تأكل من هذه الشجرة، وبتعبير آخر، من الضروري أن تأكل منها حتى تكون مظهرًا لصفاته تعالى، أو بتعبير ثالث، من الضروري أن تأكل منها حتى تحقق الغاية التي خلقك الله من أجلها.

لنفترض أن كل الحادث وقع كما تقول التوراة، فما ذنب آدم، والحال هذه، لو وقع في خطأ اجتهادي وصدّق قول الشيطان بقوة الدليل الذي قدمه إليه. بل إنني أرى أنه، بالرغم من أن آدم قد انخدع بهذا الدليل في الماضي، فإنه لو عُرض هذا الدليل بالأسلوب نفسه على الناس اليوم لانخدع عدد كبير منهم، موقنين أن مشيئة الله إنما هي أن يأكل الإنسان من تلك الشجرة، وليس أن يتجنب أكلها.

إذن فإن إمكانية صدور الخطأ الاجتهادي من آدم لموجودة في بيان التوراة، خاصة وإنها تنص على أن الله تعالى نفسه قد أكد أن

معرفة الخير والشر صفة من صفاته تعالى، حيث ورد فيها: "ثُمّ قال الربُّ الإلهُ: "ها الإنسان قد صار كواحد منا، يميِّز بين الخير والشرّ". (التكوين ٣: ٢٢).

علمًا أن النصارى يرون أن كلمة "منّا" يراد بها الأقانيم الثلاثة، بينما يرى اليهود أن المراد منها الله تعالى وملائكته، لأن الله تعالى كما يعرف الخير والشر كذلك يعرفهما الملائكة؛ فيكون مفهوم هذه العبارة عند اليهود أن آدم قد بدأ يعرف الخير والشر كما يعرفهما الله وملائكته، ويكون مفهومها عند النصارى أن آدم بدأ يعرف الخير والشر كما يعرفهما الإله الأب والإله الابن والإله الروح القدس.

لقد اتضح من هذه الفقرة من التوراة أن معرفة الخير والشر من صفات الله تعالى، وأن من عرفهما كان مثل الله تعالى أي على صورته، أو كان على الصورة التي خلقه الله عليها بحسب التوراة.

وبالمناسبة، إن فكرة التوراة عن شجرة الحياة مشوشة ومثيرة للضحك، فمرة تقول إنها شجرة واحدة، وأخرى تقول إنهما شجرتان. فقد جاء في التوراة في مكان: أن الله تعالى "غرس أيضًا شجرةَ الحياةِ، وشجرةَ معرفة الخير والشرّ في وسط الجنّة". (التكوين ٢: ٩). بينما ورد في مكان آخر منها: "وأوصى الرب آدم قائلا: مِن جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، ولكن إيّاك أن تأكل من شجرةِ

معرفةِ الخيرِ والشرّ لأنك حين تأكل منها حتمًا تموت". (المرجع السابق: ١٦- ١٧).

فثبت من هاتين الفقرتين أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة واحدة هي شجرة الحياة ومعرفةِ الخير والشر كذلك، إذ لو كانت ثمة شجرتان لنهاه عن الاثنتين.

ولكن ورد في مكان آخر من التوراة أن آدم لما أكل من شجرة معرفة الخير والشر: "ثم قال الربُّ الإلهُ: «ها الإنسانُ قد صار كواحد منّا، يميِّز بين الخير والشرّ. وقد يمُدُّ يده ويتناول من شجرةِ الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد». فأخرجه مِن جنّة عدْنٍ" (التكوين ٣ : ٢٢-٢٣).

فهنا صارت شجرتان منفصلتان: شجرة معرفة الخير والشر، وشجرة الحياة، لأن آدم لما صار عارفًا للخير والشر نتيجة أكل الشجرة أخرجه الله من جنة عدن حتى لا يأكل من شجرة الحياة أيضًا، فيحيا للأبد.

هذا، ويتضح من التوراة أن الموت لم يكن مقدرًا لآدم قبل ارتكاب إثم الأكل من الشجرة، إذا ورد فيها: "لأنّك حِين تأْكُلُ منْها حتْماً تُموت" (التكوين ٢: ١٧). فهذا يعني أن الموت قد كُتِب لآدم وحواء نتيجة أكلهما من الشجرة، ولو لم يأكلا منها لما ماتا.

والعباراتُ التالية من الكتاب المقدس أيضًا تؤكد هذا:

"لا تأْكُلا مِنْهُ ولا تلْمُساهُ لِكيْ لا تمُوتا" (التكوين ٣: ٤).

"ومتى نضجت الخطيئةُ، أنتجـــت الموت" (رسالة يعقوب ١: ١٥).

"ولهذا، فكما دخلت الخطيئةُ إِلَى العالمِ على يدِ إنسانٍ واحدٍ، وبِدُخُولِ الْخطِيئةِ دخل الْموْتُ" (الرسالة إلى أهل رومية ٥: ١٢).

فثبت من ذلك أن التوراة تقول من ناحية إن الله تعالى قال لآدم إنكما إذا أكلتما من تلك الشجرة حل بكما الموت - مع أنها شجرة الحياة، ولا يموت الإنسان بأكلها، بل يحيا - ومن ناحية أخرى، تقول إن الموت كُتب على آدم وحواء من جراء الخطية، وإلا لما ماتا أبدًا؛ وعندما نقرأ بعد ذلك ما ورد في التكوين ٣: ٢٢ تأخذنا حيرة كبيرة إذ جاء فيه أن الرب أخرج آدم من جنة عدنٍ كيلا يأكل من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد!

فما دام آدم قد صار خاطئًا بأكله من شجرة معرفة الخير والشر، فلن يُكتب لـــه بعد ذلك الحياة الأبدية مهما أكل من شجرة الحياة، لأن الخطية نتيجتها الموت. فإما أن يقولوا أن الإثم لا ينتج الموت، بل إن الأكل من تلك الشجرة يهب الحياة، ولكنهم يقولون من جهة أن الإثم نتيجته الموت، ومن جهة أخرى يقولون أن الله تعالى أخرج آدم من جنة عدن لئلا يأكل من شجرة الحياة فيحيا للأبد. فثبت أن الإثم ليست نتيجته الموت، بل كان بإمكان الإنسان أن يعيش رغم كونه آثمًا نتيجة أكله من تلك الشجرة.

بعض الأدلة على بطلان الكفّارة

وهناك سؤال آخر يطرح نفسه وهو: يقول النصارى أن آدم ارتكب الإثم. ونحن نقول: إنه ارتكب الإثم رغم أن أباه وأمه لم يرتكبا أي إثم؛ فإذا كان بإمكان الابن أن يرتكب الإثم بدون أن يقع فيه أبواه، فيجب أن يكون بإمكانه أيضًا أن يفعل الخير وإن لم يفعله أبواه. وإذا كان بإمكان آدم أن يفعل الخير فكيف لا يكون باقي الناس قادرين على فعل الخير؟ فثبت أن لا دخل للوراثة في قيام المرء بالخير أو الشر، بل إن الله تعالى قد خلق الإنسان قادرًا على التطور والترقي وأيضًا على الانحطاط والتردي. إن آدم لم يكن أبوه آثمًا، بل لم يكن لـــه أب أصلاً، ومع ذلك وقع في الإثم، وهذا دليل أكيد على أن الخير أو الشر يصدر عن الإنسان في ظروف معينة، ولا دخل للوارثة في ذلك أبدًا. فثبت أن لا حاجة إلى الكفارة والفداء مطلقًا.

هذا، وعلينا أن نرى كيف غُفر لآدم ذنبه؟ فإذا كان ذنبه قد غُفر بالتوبة فيمكن أن تُغفَر ذنوب أولاده بالتوبة أيضًا، وبالتالي لا داعي لأي كفارة لغفرانهم.

باختصار فإن شهادة التوراة والإنجيل نفسها تهدم كل الأساس الذي حاولوا بناء الكفارة عليه، زاعمين أن الإنسان لا يقدر بنفسه على التخلص من الإثم فلا بد من الإيمان بالكفارة.

هذا، ويتضح لنا من دراسة التوراة أن قصة آدم كلها قصة تمثيلية ومجازية، حيث ورد فيها أن حواء أكلت من ثمر الشجرة،

فأعطت آدم فأكلها، "فانْفتحتْ لِلْحالِ أعْيُنُهُما، وأدْركا أنّهُما عُرْيانانِ" (التكوين ٣: ٧).

فكونهما قد صارا عريانين بأكل ثمر الشجرة يؤكد أن القصة استعارة ومجاز. إذن فتأسيس عقيدة خطيرة على قصة مجازية مخالف للعقل تمامًا.

ثم ورد في التوراة: "فخاطا لأنْفُسهِما مآزر مِنْ أوْراقِ التِّينِ، ثُمّ سمِع الزّوْجانِ صوْت الرّبِّ الإلهِ ماشِياً فِي الْجنّةِ عِنْد هُبُوبِ رِيحِ النّهارِ" (التكوين ٣: ٧-٨).

إن هذه الكلمات أيضًا دليل حاسم على كون القصة استعارة، وأن اللغة المستعلمة فيها لغة مجازية؛ ذلك أن الله تعالى هو خالق الحر والبرد، ولا حاجة به إليهما، ولا يمكن أن يقال عنه أنه خرج بالفعل إلى البستان عند هبوب الريح الباردة ليتقي من لظى الحر، كما يفعل الناس عندنا في الصيف فيذهبون إلى المصايف في جبال "كوئته" أو "مري" اتقاءً من الحر الشديد.

ثم ورد في التوراة: "فاخْتبآ مِنْ حضْرةِ الرّبِّ الإلهِ بيْن شجرِ الْجنّة" (المرجع السابق: ٨).

هذه أيضًا لغة مجازية إذ لا يخفى على الله شيء. وقد أكد القرآن الكريم هو الآخر أنه ما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه تعالى عليم بكل ما هو على وجه الأرض وما تحت الثرى (إبراهيم: ٣٩، وطه: ٧). ولكن التوراة تخبرنا أن آدم

وحواء اختفيا في شجر الجنة حتى لا يراهما. ألا يدل ذلك على أن القصة مجاز وتمثيل فحسب.

وقد ورد في التوراة ما يدل، بظاهره، على أن علم الله محدود، حيث قالت: "فنادى الرّبُّ الإِلهُ آدم: أيْن أنْت؟" (المرجع السابق: ٩). وكأن الله تعالى – الذي يعلم كل ذرة في السماوات والأرض، ولا يخرج عن علمه أي شيء – هو الذي بدأ ينادي في الجنة: أين أنت يا آدم؟ أين غِبت يا آدم؟ وهذا أيضًا دليل على أن هذه لغة مجازية، فإن الله تعالى يرى مِن على عرشه كل ما يحدث في الكون. وإذا كان لا يرى كل شيء فكيف يراقب كل مخلوق في الكون كله؟

ثم ورد في التوراة أن آدم قال: "سمِعْتُ صوْتك فِي الْجنّةِ فاخْتبأْتُ خِشْيةً مِنْك لأنِّي عُرْيانٌ" (المرجع السابق: ١٠).

هل يُعقل أن يخفي آدم عُرْيه عن الله تعالى باستتاره وراء أشجار الجنة؟

إذن فهذه الفقرات كلها توضح جليًّا أن هذه القصة ليست حقيقية، بل قد وردت على سبيل المجاز، ولا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها، لأن لغتها لغة الاستعارة والمجاز. والواضح أن المجاز يحتاج إلى تأويل وتعبير دائمًا، ولا يؤخذ بحرفيته أبدًا.

فنقول للمسيحيين إن الكلام الذي تبنون عليه عقيدتكم بأن آدم أذنب، وأن قلبه اسودّ، مجاز وتمثيل فحسب. فإن مشي الله في الجنة، وخروجه للنـــزهة عند هبوب الهواء العليل، وعدم رؤيته

آدم، ثم نداؤه إياه بصوت عال، أليس كل ذلك مجازًا واستعارة؟ وهل من العقل والمنطق أن تؤسس عقيدة دينية خطيرة على الكلام المجازي؟

وكما قلت من قبل، فإن وقوع آدم في الخطأ، رغم كونه من دون أب ولا أم، لدليل أكيد آخر على أن صدور الخير والشر من البشر في ظروف معينة ممكن، كما أن زوالهما ممكن أيضًا. فلا يبقى للكفارة من حاجة. إذا كان الخير لا يمكن أن يدخل في الإنسان من الخارج، فدخول الشر فيه من الخارج محال أيضًا، وإذا كان الشر يمكن أن يدخل فيه من الخارج فمن الممكن أيضًا أن يدخل فيه الخير من الخارج. وإذا كان آدم - الذي لم يكن له أب ولا أم - قد دخل فيه الشر من الخارج، فمن الممكن تمامًا أن يدخل الخير في أولاده من الخارج، ويجب ألا يفرّق بين الأمرين.

هذا، ويتضح من التوراة أن، آدم رغم اقترافه الإثم، ظل مقربًا لدى الله تعالى (التكوين ٣: ٢١). فكيف أمكن ذلك، يا ترى؟ وليس عند النصارى أي جواب على هذا إلا قولهم إن الله تعالى قد غفر له ذنبه. ونحن نقول: كذلك تمامًا يمكن أن يغفر الله ذنوب ذرية آدم أيضًا، بدون أن يحتاج إلى كفارة.

ولإثبات الحاجة إلى الكفارة أو لإثبات فساد النفس البشرية فسادًا يستحيل بعده إصلاحها لا بد من إثبات أن الإنسان قد فسد بعد إثم آدم فسادًا لم يستطع بعده التمسك بالخير. فلو ثبت

ذلك من الكتاب المقدس فلا بد من التسليم بالكفارة، أما إذا قال الكتاب المقدس نفسه إن الإنسان لم يفسد بعد وقوع آدم في الإثم – الذي ليس إثمًا في الحقيقة عند القرآن الكريم – بل ظل متمسكًا بالخير، فقد بطلت الكفارة من أساسها. إذ لو كان بإمكان الإنسان أن يتحلى بالصلاح، وأن يتجنب الإثم أيضًا بدون أي كفارة، فلم تبق ثمة حاجة إلى شيء جديد من أجل نجاته.

ولنتوجه الآن إلى تعليم الإنجيل نفسه لفحص الأمر. لقد ورد فيه: "أمّا الموتُ، فقد ملك مُنْذُ آدم إلى مُوسى، حتّى على الّذين لمْ يرْتكِبُوا خطيئةً شبِيهةً بِمُخالفةِ آدم، الّذِي هُو رمْزٌ لِلآتِي بعْدهُ" (رسالة بولس إلى رومية ٥: ١٤).

علمًا أن النصارى يقولون إن الموت نتيجة الإثم، وأن المراد من "الآتي" عندهم هنا المسيح، والمراد من مثاله هو آدم. وهذا يعني أن بولس نفسه يعترف بوجود كثير من الناس، منذ آدم إلى موسى، لم يرتكبوا الإثم. وهكذا فإن وجود عدد من الناس ممن لم يرتكبوا الإثم لدليل عملي قاطع على أن الإنسان قادر على تجنب الإثم.

وليكن معلومًا أن هذه العقيدة قد لفّقها النصارى في عجلة وبدون تروٍّ حين تعرضوا لشتى الاعتراضات بعد حادث تعليق المسيح على الصليب، ولذلك نجد الحواريين يقولون تارة شيئًا، ويعارضونه تارة أخرى. خذوا، مثلاً، هذه الفقرة نفسها التي اعترفوا فيها بوجود كثير من الصلحاء، بعد آدم إلى موسى، الذين

لم يرتكبوا الإثم، وبتعبير آخر، أنهم اعترفوا أن ذرية آدم لم يرثوا منه الإثم رغم ارتكابه له. ولكنهم عادوا فعارضوا ذلك في الكتاب نفسه إذ قالوا: "هكذا جاز الْموْتُ على جمِيعِ الْبشرِ، لأنّهُمْ جمِيعاً أخْطأُوا" (المرجع السابق: ١٢).

ولكنهم واجهوا مشكلة أخرى، وهي أن الناموس أي الشرع بدأ بموسى لا قبله، بحسب اعتقادهم (يوحنا ١: ١٧). فالسؤال الذي واجهوه هو: أين كان الإثم قبل نـــزول الشرع؟ فأجابوا عليه بقولهم: "فإِنّ الْخطِيئة كانتْ مُنْتشِرةً فِي الْعالمِ قبْل مجِيءِ الشّرِيعة. إِلاّ أنّ الْخطِيئة ما كانتْ تُسجّلُ، لأنّ الشّرِيعة لمْ تكُنْ موْجُودةً" (المرجع السابق: ١٣).

وكأن الشرع والإثم شيئان منفصلان عندهم. وهذا كلام سليم تمامًا نتفق عليه معهم. فإن الشرع تعليم يؤمر به الناس بفعل شيء أو تركه، وإلا لسخط الله عليهم، أما الإثم فيعني ارتكاب المرء أمرًا قد نهى عنه الشرع صراحةً، وقبل نـــزول الشرع لا يُعتبر أي عمل إثمًا. هذا ما نتفق عليه تمامًا.

ولكنا نقول: إن السيئة سيئة في كل حال، سواء أنـــزل الشرع أم لا. فمثلا نـــزل القرآن وقال: لا تظلموا، فإنه إثم كبير؛ فأدركنا أن الظلم معصية. ولكن صاحب الظلم كان سيُعتبر مرتكب عمل سيئ، سواء أنـــزل هذا الحكم في القرآن أم لا. وهذا هو حال السيئات الأخرى أيضًا، فسواء نـــزل الشرع

نـــزل أم لم ينـــزل، فإن السيئات تظل سيئات، كما أن الحسنات تظل حسنات في كل حال؛ والفرق الوحيد أن البعض سيعتبر أمرًا ما سيئًا، بينما لن يعتبره الآخر كذلك؛ والحال نفسه فيما يتعلق بالحسنة. إذن فإن الشعور بالسيئة أو الحسنة لا يتعلق بالشرع، وإنما يتعلق بالفطرة. وهذا ما يؤكده بولس إذ يقول إن الإثم كان موجودًا في الدنيا، ولكنه لم يكن محسوبًا حيث لم يكن الشرع موجودًا. وهذا هو موقفنا أيضًا إذ نقول: إذا كان الشرع غير موجود في مكان فكل عمل سيئ سيظل إثمًا، ولكنه غير محسوب لغياب الشرع هنالك. فمثلا هناك بقعة في الدنيا بين الأدغال أو الجبال يعيش أهلها منفصلين عن باقي العالم، ولم يصل إليها تعليم الإسلام، ولا علم لهم ببعثة رسول الله ﷺ، ولا يصلي أهلها الصلوات؛ فلن يقول الله لهم: لم لم تصلّوا، ولم لم تصوموا كما علّم الإسلام؟ إذ لا علم لهم بالصلاة والصيام. وقد صرح الحديث الشريف* أيضًا أن أربعة لا حساب عليهم يوم القيامة بحسب

* ونصُّ الحديث: "عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: أربعة يوم القيامة: رجل أصمُّ لا يسمع شيئا، ورجل أحمقُ، ورجل هرِمٌ، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذِفوني بالبعْر، وأما الهرم فيقول: ربي لقد جاء الإسلام وما أعقِل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسول؟ فيأخذ مواثيقهم ليُطِيعُنّه، فيرسل إليهم أنِ ادخُلوا النار. قال: فوالذي نفسُ محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برْدًا وسلامًا.... عن أبي رافع عن أبي هريرة مثل هذا، غير أنه قال في آخره: فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها يُسحب إليها". (مسند أحمد: مسند المدنيين رقم الحديث ١٥٧١٢) (المترجم)

الشرع: رجلٌ يولد أصمّ لا يسمع شيئًا، ورجل مجنون، ورجل هرِمٌ، ورجل مات ولم يبلغه الإسلام، وأن الله تعالى سيبعث لاختبارهم يوم القيامة رسولاً، فمن صدّقه منهم نجا، ومن لم يصدقه عوقب (انظر روح المعاني: قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً).

وقد بين سيدنا المسيح الموعود عليه السلام، مستدلاً بآيات من القرآن الكريم، أن بعض الناس سيحاسبون بحسب فطرتهم النقية (حقيقة الوحي ص ١٨٦).. أي أنهم لا يحاسبون وفق شرع القرآن الكريم، بل سيحاسبون بحسب ما أودع الله تعالى فطرتهم من قوى وكفاءات، لأن الفطرة الإنسانية هي الأخرى تفرق بين الخير والشر حتى ولو لم يساعدها الشرع بهذا الصدد؟

وكان حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يحكي بهذا الصدد قصة شهيرة لـــه مع أحد اللصوص الذي جاءه للعلاج. فنصحه حضرته رضي الله عنه وقال: لا تسرق أموال الناس، فإنه عمل سيئ جدًّا؛ كيف تأكل هذا المال الحرام؟ فقال اللص: لقد استغربت من قولك جدًّا، ويبدو أنك لست مختلفًا عن باقي المشايخ البسطاء. فهل في الدنيا أحد يأكل الرزق الحلال مثلنا؟ فأنت تأخذ من الناس مالهم بمجرد أن تجسّ نبضهم لثوانٍ، أما نحن فنخرج لكسب الرزق واضعين أرواحنا في أكفّنا. فعند كل خطوة نخاف الشرطة ونخشى أن يقبضوا علينا. ونتخطى شتى الأخطار، ونقابل الموت

وجهًا لوجه؛ وبعد تحمل كل هذه الصعاب نكسب هذا المال. فمن ذا الذي يكسب الحلال بطريق أفضل منا؟

عند سماع هذا الكلام، جذب حضرته ﷺ أذيال الحديث إلى أمور أخرى حتى ينسى السارق هذا الموضوع لبعض الوقت. ثم بعد برهة من الزمان قال له: كيف تقومون بالسرقة؟ قال: نحن عصابة من سبعة أو ثمانية أشخاص، ولكل واحد منا مهمة خاصة يؤديها. فأحدنا يقوم بالتجسس، ويدلنا على البيت الذي فيه المال. والثاني يكون ماهرًا في كسر جدار البيت، والثالث والرابع يقفان على طرفي الشارع للحراسة، حتى إذا جاء شخص يحذران على الفور, والخامس يقتحم البيت، والسادس يقف بعيدًا. وكلنا ندهن أبداننا بالزيت، ونلبس السراويل القصيرة فقط حتى تسهل علينا مهمتنا، ماعدا السادس الذي يقف بعيدًا فإنه يلبس لباسًا فاخرًا كالشرفاء، وعنده نجمع المال المسروق حتى إذا رآه بعض المارة لم تأخذه ريبة في أمره، بل ظن أن هذا الشريف هو صاحب المال. ثم هناك صائغ نأخذ إليه الحلي المسروقة، فيُذيبها ويصُوغها سبائك، فنوزّعها فيما بيننا.

هنالك قطع حضرته ﷺ على السارق حديثه وقال لـه: فكيف إذا سطا الصائغ على المال كله و لم يؤتكم منه شيئًا؟ فقال من فوره: هل تظن أنه سيصبح قليل الأمانة لهذه الدرجة ويأكل

أموالنا؟ قلت: يبدو أنك أيضًا تفرق بين الأمانة والخيانة، وتدرك فطرتك أي الأعمال سيئ وأيها حسن؟

وهذا ما قد ركّز عليه المسيح الموعود ﷺ كما أشرتُ، وقال إن بعض الناس سيحاسبون بحسب فطرهم، فلا يسألهم الله تعالى: لم لم تصلّوا الصلاة التي علّم النبي ﷺ إياها، بل سيقول لـــكل واحد منهم: لقد خُلقت بفطرة تميل إلى عبادة أحد، فهل قمت بعبادته ملبيًا نداء فطرتك؟

والأمر نفسه فيما يتعلق بالكذب والسرقة وقطع الطرق. فبعض السذج الجاهلين يأكل أموال الآخرين دون أن يفكر في خطئه، ولكن إذا أكل أحد ماله هو سماه خائنًا كبيرًا؛ وهذا يدل على أنه يدرك بفطرته أن أكل أموال الناس خيانة؟ ومما لا شك فيه أن مثل هؤلاء السذج لا يُعدّون مجرمين عند الشرع، ولكنهم مجرمون عند الفطرة حتمًا ويعاقبون بحسبها.

فكونُ الفطرة الإنسانية تعتبر بعض الأعمال إثمًا، قضية لا يحوم حول صحتها شك، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان هذا صحيحًا فأين مكان الكفارة إذن؟ فلو قال الإنجيل إن الفطرة لعنة لظلت القضية من دون حل، ولكنه يقول إن الشرع لعنة (انظر رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣).. أي أن الشرع جاء بأحكام لا يستطيع الإنسان العمل بها، ومن أجل ذلك قام المسيح بإلغاء الشرع أصلاً.

ولكنا نقول: إن الشرع كان ملغى قبل موسى أيضًا، إذ لم يكن لـــلشرع عندئذ وجود، ولم يكن ثمة حاجة إلى كفارة من أجل نجاة الإنسان، بل نال النجاة بالعمل بأوامر فطرته، أو نال العقاب إذ خالف تعليماتها. فما الحاجة إلى الكفارة إذن؟

فكأن المعضلة الحقيقية التي كانت تتطلب حلاً إنما هي أن الله تعالى أوقع الناس في الشقاء بإنـــزال الشرع. ولكن الكفارة ليست حلاً سليمًا لهذه المعضلة، بل كان حلها بكل بساطة إلغاء الشرع. إن هذا الحل مهما كان بسيطًا، لكنه هو الحل الحقيقي، فإن ما ورد في الرسالة إلى رومية: ٥ يؤكد أن الشرع لم يوجد قبل موسى، فما كان الناس عندئذ يُعدّون مجرمين بحسب الشرع، وبالتالي ما اضطر الله لعقابهم أيضًا. كما وجد عندئذ أناس ما كانوا آثمين حتى بحسب الفطرة أيضًا، بحسب هذه الرسالة نفسها.

فاتضح من كل هذه العبارات المقتبسة من كتب المسيحيين أن الفساد لم يحصل بإثم آدم أبدًا، بل حصل بخطأ ارتكبه الله نفسه – والعياذ به. إنه تعالى أنـــزل الشرع على موسى، وحين لم يستطع الناس العمل به، اضطر الله لعقابهم بحسب الشرع، فأرسل المسيح وألغى الشرع للأبد.

ولكنا نقول: ما كانت ثمة حاجة لإرسال المسيح لإلغاء الشرع، بل إن الله الذي بعث موسى بالشرع كان بإمكانه أن يقول بكل

بساطة للنبي يوشع الذي جاء بعده: إن الناس لا يقدرون على العمل بالشرع، فها أنا ألغيه إلى الأبد.

ثم نسأل النصارى: إذا كان الإثم موجودًا، ولكنه ظل غير محسوب، فأين غاب العدل الإلهي الذي تتشدقون به، فالعدل هو الأساس الثاني لكفّارتكم حيث تقولون: لو غفر الله تعالى للناس ذنوبهم لم يعُد عادلاً. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: متى تتغير ماهية شيء من الأشياء بتغيير اسمه؟ فمثلاً إذا سرق شخص وقلنا: إنه لن يعاقب لأن شريعة موسى لم تنــــزل بعد، وإذا سرق شخص آخر قلنا: يجب أن يعاقب في الجحيم الأبدية لأن شريعة موسى تعتبره آثمًا؛ فكيف يجوز ذلك مع أن الفعل واحد في الحالتين؟ إن الأول سرق كما سرق الثاني، وإذا تركنا الأول وعاقبنا الثاني، فأين العدل هنا؟ وأي إنصاف هذا؟ أو خذوا مثلاً الكذب والظلم والسرقة، فلو أننا لم نمنع الناس من هذه الأفعال، أو لم نعدّ صاحب هذه الأفعال آثمًا، فهل يُعدّ هذا تقيًّا طاهر القلب، يا ترى؟ كلا. إن الآثم أو الظالم أو الكاذب أو السارق لن يكون متقيًا بارًّا لمجرد أننا لم نسمّه بهذه الأسماء. وإذا لم يكن هذا آثمًا رغم اقترافه هذه الأفعال، بينما يصبح غيره آثمًا بارتكابها فأين العدل والإنصاف؟

إلى هنا أكون قد ناقشت قضية الإثم نقاشًا مبدئيًّا وفلسفيًّا. أما الآن فأخبركم أن التوراة تنص على وجود الصالحين في الدنيا

بالفعل. فقد ورد عن أخنوخ – وهو ابن لحفيد آدم وأب لجد نوح – أنه بعد أن أنْجب متُوشالح عاش "ثلاث مئة سنة سار فِيها مع اللهِ. ووُلد لهُ بنُون وبناتٌ. وكانتْ كُلُّ أيّامِ أخنُوخ ثلاث مئة وخَمْساً وستِّين سنةً. وسار أخنُوخُ مع اللهِ، ثُمّ توارى مِن الْوُجُودِ، لأنّ الله نقلهُ إِليْه" (التكوين ٥: ٢٢-٢٤).

تؤكد هذه العبارة سير أخنوخ مع الله تعالى. والبديهي أن سيره مع الله ﷻ لا يعني أنهما خرجا للسياحة لثلاث مائة سنة، كما يفعل هواة السياحة في هذه الأيام فيقولون لأصحابهم: تعالوا نذهب إلى أمريكا أو نزور بلدًا غيرها. بل إن السير مع الله تعالى تعبير خاص في التوراة، ومعناه أن أخنوخ كان إنسانًا بارًّا متحليًّا بصفات كصفات الله تعالى، أي كان يفعل ما يفعل الله تعالى، فكان رحيمًا بالناس، محسنًا إليهم، محبًّا للجميع، رؤوفًا بهم، منصفًا غير ظالم، معينًا للفقراء وغفورًا وغيرها من صفات الله الحسنى.

ثم ورد عن أخنوخ أنه رُفع إلى السماء، وهذا يعني أنه كان مثل المسيح تمامًا، وكانت مكانته كمكانته، بل لم يعش المسيح إلا ثلاثين سنة، ولكن أخنوخ عاش ثلاث مائة سنة، وقضى حياته كلها في البر والتقوى حتى صار كمثيل لله تعالى، ورُفع إلى السماء.

ولو أننا قرأنا هذا مع قول المسيح التالي: "وما صعد أحدٌ إِلى السّماءِ إِلاّ الّذِي نزل مِن السّماءِ" (يوحنا ٣: ١٣)، لانكشفت

علينا مكانة أخنوخ أكثر، وعلمنا أنه جاء من السماء ولذلك صعد إلى السماء.

والحق أن قول المسيح ﷺ هذا إنما يعني أنه لا يصعد إلى السماء إلا الذين يأخذهم الله تعالى في كنفه منذ صغرهم، فيعيشون تحت رعايته وحمايته. وكان أخنوخ من هؤلاء المحظوظين، حيث تربى منذ نعومة أظفاره تحت ظل فضل الله ورحمته، ثم رُفع إلى السماء كما تقول التوراة.

وأما الملك "ملكي صادق سالم" فقد قالت التوراة في حقه أحسن مما قالته في أخنوخ، وقد أيد الإنجيل أيضًا ما ورد في التوراة في حقه. تخبرنا التوراة أن إبراهيم لما تعرض للاضطهاد في العراق على يد عمه وإخوته أمره الله تعالى بالهجرة إلى فلسطين مع زوجته ومع لوط الذي كان المؤمن الوحيد به. فوصل إبراهيم إلى فلسطين بعد أن ذهب إلى مصر حيث تزوج بهاجر. وكان الله تعالى قد بشره أنه تعالى سيعطيه بلاد فلسطين، وسيكون لـه أتباع فيها. فلما استقر بها ونال قبولاً وشعبية من أهلها حسده الملوك المجاورون، فجاءوه يحاربونه، فخرج للتصدي لهم، فهزمهم بإذن الله. وأثناء عودته من الحرب قابله ملكٌ اسمه ملْكِي صادِق ملكُ شاليم، وكان يُعدّ من كبار أولياء الله والصالحين الأخيار في زمنه. فقدّم له إبراهيم ﷺ عُشرًا من غنائمه، فرفض الملِك صادق أن يأخذها، وقال: ليس بي حاجة إلى المال، إنما أريد أن تهب لي من

معك من الأسرى. فقال إبراهيم: لا بد أن أعطيك المال حتى لا يقول الناس إنني أصبحت ثريًّا بسبب الملِك صادق. وهذا يعني أن إبراهيم عليه السلام رضي أن يدخل في طاعة هذا الملِك (انظر التكوين ١٤: ١٨-٢٤).

وإن الإنجيل أيضًا قد تناول هذا الحادث بالتفصيل، إذ ورد فيه: "فلأجْلنا دخل يسُوعُ إلى هُناك سابقاً لنا. وهُو هُناك يقُومُ بِمُهِمّته نِيابةً عَنّا بعْدما صار رئِيس كهنةٍ إِلى الأبدِ على رُتْبةِ ملْكِي صَادَق" (الرسالة إلى العبرانيين ٦: ٢٠).. أي أن الجميع ماتوا. جاء موسى ومات، وجاء داود ومات، وجاء سليمان ومات، ولكن الملك صادق هذا لم يمت، كما أن المسيح لم يمت.

ثم ورد فيه: "لأن ملْكِي صادق هذا ملِك ساليم كاهِن الله العليِّ.... يبقى كاهنًا إلى الأبد" (المرجع السابق ٧: ١-٣).. فبقاؤه كاهنًا للأبد يعني أنه لن يأتي عليه الموت إلى الأبد.

وورد أيضًا: "الذي استقبل إبراهيم راجعًا من كسْرة الملوك وباركه" (المرجع السابق: ١).. أي أن هذا الملك أعطى إبراهيم البركة، وهذا يعني أنه كان يرى أنه أفضل من إبراهيم.

ثم جاء فيه: "الذي قسم لـــه إبراهيمُ عُشرًا من كل شيء، المترجمُ أولاً ملِك البرِّ، ثم أيضًا ملِك ساليم أي ملِك السلام، بلا أب بلا أم بلا نسب، لا بداءة أيامٍ لـــه، ولا نهاية حياةٍ، بل هو مشبّهٌ بابن الله" (المرجع السابق: ٢-٣).. أي لم يكن للملكِ صادق

أب ولا أمّ، بل كان أزليًّا أبديًّا مثل الله تعالى. لم يكن لعمره بداية، ولم يكن لحياته نهاية، لم يولد ولن يموت، إنما هو حي إلى الأبد مثل ابن الله المسيح. وليس المراد من المسيح هنا من وُلد من بطن مريم، بل ذلك المسيح الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة.

لقد ثبت من هذه العبارات جليًّا أنه كان في الدنيا كائن صالح غير المسيح أيضًا، وقد بلغ من البر والصلاح بحيث سُمِّي ملك الصدق والسلام، واستحق أن يهب البركة لإبراهيم.

ثم ورد في الإنجيل عن زكريا وزوجته: "وكان كلاهُما بارّيْنِ أمام اللهِ، يسْلُكانِ وفْقاً لِوصايا الرّبِّ وأحْكامِهِ كُلِّها بِغيْرِ لوْمٍ" (لوقا ١: ٦).

وبشّر الملاك زكريا عن يوحنا بقوله: "وسوْف يكُونُ عظيماً أمام الرّبِّ، ولا يشْربُ خمْراً ولا مُسْكِراً، ويمْتلِئ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وهُو بعْدُ فِي بطْنِ أُمِّهِ" (المرجع السابق: ١٥).

وهذا يعني أن يوحنا لم ينـزل عليه الروح القدس بعد خروجه من بطن أمه، بل نـزل عليه وجعله تحت تصرفه وهو في بطنها. ومن الواضح أن الإنسان يرتكب الإثم بعد ولادته، أما الذي نـزل عليه الروح القدس وهو في بطن أمه فأنى لـه أن يقع في الإثم. فثبت من شهادة الإنجيل نفسه أن يوحنا لم يقترب منه إثم ولا فساد.

بل لقد قال المسيح ﷺ في يوحنا: "الْحقّ أقُولُ لكُمْ: إِنّهُ لمْ يظْهرْ بيْن منْ ولدتْهُمْ النِّساءُ أعْظمُ مِنْ يُوحنّا الْمعْمدانِ" (متى ١١: ١١). إذن فالمسيح يرى أن يوحنا أفضل منه إذ كان الاثنان من بين المولودين من النساء.

لقد تبين من هذه العبارات أن زكريا ﷺ وزوجته كانا بريئين من أي عيب ومنقصة، وسائرين على أحكام الله تعالى، وأن يوحنا خرج من بطن أمه مفعمًا بالروح القدس مبرّءًا من كل عيب. فإذا كان زكريا وزوجته غير آثمين، فلم لا يمكن أن يكون سواهما أيضًا بريئًا من الإثم وفق هذا القانون نفسه. فوجود الصالحين الأبرار، العاملين بالشرع، والبريئين من العيوب والآثام قبل المسيح وقبل وجود الكفارة، لدليل حاسم على وجود البر في الناس قبل الكفارة؛ فوجوده قبل الكفارة يستلزم وجوده بعدها أيضًا، بدون أن تكون ثمة حاجة إلى أي كفارة وفداء.

علمًا أننا حين نواجه علماء المسيحيين بسؤالنا: كيف نال الناجون قبل المسيح النجاة، وكيف حصل الصلاح للصالحين قبله، يقول بعضهم: لقد صار هؤلاء الأولون صالحين وناجين بسبب إيمانهم بكفارة المسيح. والظاهر البين أنه ادعاء فارغ ليس إلا. وليس عندهم أي دليل عليه إلا قولهم أن إبراهيم وداود وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - قد بشروا بمجيء المسيح.

والحق أن قولهم هذا أيضًا خدعة فقط، إذ لا يوجد في نبوءات إبراهيم ﷺ أي بشارة بمجيء المسيح، إنما أنبأ إبراهيم أن الله تعالى سيبارك أولاده وسيُظهر بهم جلاله وقداسته (التكوين ١٧: ١٩-٢٠، والتكوين٢١: ١٣). والبديهي أن هذه النبوءة لا تخص فردًا معينًا، بل هي عامة لأولاده، وقد ظهر بحسبها الأنبياءُ العظام كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وزكريا عليهم السلام. لا شك أن نبوءات بعض الأنبياء الآخرين تخبر بمجيء مسيح، ولكن شتّان بين الإخبار ببعثة نبي، وبين الإخبار بظهور ابن لله تعالى يكون كفارة لذنوب الناس ولن تستطيع الدنيا أن تنال النجاة بدونها. إن كل نبي - تقريبًا - قد أخبر بمجيء الأنبياء الذين جاءوا بعده، فكانت ثمة أنباء من الأنبياء الأولين بظهور يحيى وداود مثلاً، كما كانت لبعثة عيسى أيضًا، ولكن هذا لا يعني أنهم أخبروا أن عيسى سيكون كفارة لذنوب الناس بحيث لن تنال الدنيا النجاة بدون الإيمان بها.

ثم لو افترضنا أن النبوءة الإبراهيمية كانت تعني ظهور ابن لـــه في المستقبل ستنال الدنيا النجاة بفدائه، لما انطبقت هذه النبوءة على المسيح أبدًا. ذلك لأن دعوى المسيحيين إنما أساسها أن المسيح ابن الله، إذ يقولون أن أبناء آدم آثمون في كل حال، والآثم غير قادر على حمل ذنوب الآخرين، فلم يكن مناص من كائن من غير أبناء آدم، فأرسل الله يسوع ابنه الوحيد ليكون كفارة عن

ذنوبهم. ولكن المشكلة أن المسيح إذا كان ابنًا لله فهو ليس ابنًا لإبراهيم، وإذا كان ابنًا لإبراهيم فهو ليس ابنًا لله تعالى، وبالتالي لم يكن كفارة لذنوب الناس.

إذن فتطبيقهم النبوءة الإبراهيمية على المسيح تستأصل عقيدة الكفارة من جذورها. إنني لا أزال أتذكر جيدًا أني ذهبت ذات مرة إلى لاهور وأنا شاب حيث كان سني إذاك الثامنة عشرة تقريبًا، ورغبت في الحوار مع أحد القسيسين. فذهبت إلى أكبر قسيس هنالك، وقد أصبح فيما بعد عميدًا للكلية التبشيرية المسيحية بمدينة سهارنبور. فوجهت إليه السؤال نفسه، وقلت: كيف كان الناس ينالون النجاة قبل المسيح؟ قال: لأنهم هم الآخرون آمنوا بالمسيح؟ قلت: ما رأيك لو قلت إنهم نالوا النجاة نتيجة إيمانهم بي أنا؟ قال: يجب أن تكون لذلك نبوءة سابقة. قلت: كلام سليم، ولكن هلا أخبرتني بنبوءة كهذه لصالح المسيح؟ قال: هناك نبوءة لإبراهيم في حقه. قلت: لو فحصنا النبوءة الإبراهيمية في كل مكان لوجدنا أنها إذا كانت تتحدث عن نزول البركة في بني إسحاق، فإنها تؤكد نزول البركة في بني إسماعيل أيضًا؛ وإذا كان من حقك تطبيق هذه النبوءة الإبراهيمية على المسيح، فلم لا يحق لي أن أطبقها على محمد رسول الله ﷺ الذي هو من نسل إسماعيل.

ثم قلت لـــه: إذا كان المسيح ابنًا لإبراهيم فكيف يكون كفارة. فأخذ هذا القسيس الذي كان سنه قرابة ستين عامًا، في اللف والدوران في الحديث، و لم يجد جوابًا، وبعد نقاش دار لحوالي ساعة مدّ يديه نحوي على الطريقة الهندية وقال لي: أستميح العذر يا سيدي، فهناك مثل يوناني يقول: إن السؤال يمكن أن يوجهه كل أحمق، أما الجواب فلا بد لـــه من عاقل. فسماني القسيس جاهلاً، وقال عن نفسه إنه لا يملك من الذكاء ما يرد به على الحمقى. وكنت حينذاك في عنفوان شبابي، فما كان مني أن قلت لـــه: آسف يا سيدي، فقد جئتك وفي ظني أنك عاقل.

إذن، فإذا كان المسيح من أبناء إبراهيم فقد بطلت الكفارة، وإذا كان ابنًا لله تعالى فقد بطلت نبوءة إبراهيم، وفي الحالتين يظل الاعتراض كما هو.

أما الجواب الثاني فهو أن إبراهيم إذا كان قد أنبأ بظهور شخص عظيم من بين أولاده، كما هو مشهور وشائع في نسله، فعلينا أن نفحص الأمر لنرى من هي تلك الشخصية. وعند التحري نجد شخصين يدعي كل واحد منهما أنه المصداق للنبوءة الإبراهيمية. وحين نسأل المدعي الأول: ما هو دليلك على أنك من نسل إبراهيم يجيب: أنا ابن فلان بن فلان بن فلان بن فلان بن إبراهيم. وحين نوجه السؤال نفسه إلى المدعي الثاني يجيب: أمي فلانة، وقد تزوجت بعد ولادتي من فلان ابن فلان ابن فلان بن

إبراهيم. فهل في الدنيا عاقل يصدق بأن هذا الثاني هو حقًّا من أولاد إبراهيم عليه السلام. كلا، بل إن الجميع سيصدقون المدعي الأول الذي يوصل نسبه إلى إبراهيم، ولن يصدقوا المدعي الثاني الذي يعتبر زوج أمه من نسل إبراهيم، وبالتالي يظن أنه من أولاد إبراهيم. هذا هو بالضبط حال المسيح ونبينا الكريم عليهما السلام. فقد ورد عن نسب المسيح في الإنجيل تحت عنوان "نسب المسيح بن داود بن إبراهيم" ما يلي: "ويعقوبُ أنجب يوسف رجُل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يُدعى المسيح" (متى ١: ١٦).

وهذا يعني أن المسيح لا يصل نسبه إلى إبراهيم، بل يصل إليه نسبُ يوسف الذي تم تزويجه من مريم بعد أن ولدت المسيح. أما نبينا الكريم محمد رسول الله ﷺ فيعلن أن أباه عبد الله ابن عبد المطلب ابن فلان ابن فلان إلى أن يوصل نسبه إلى إبراهيم عليه السلام. ولذلك نقول للمسيحيين: إن الذي تحاولون عبثًا تطبيق النبوءة الإبراهيمية على شخصه، معتبرين إياه من أولاد إبراهيم، هو نفسه يقول صراحة إن الذي تم تزويج أمي مريم منه لهو من نسل إبراهيم، أما أنا فلست من أولاد إبراهيم أبدًا، ولكن الذي نطبق عليه هذه النبوءة فإنه ﷺ من نسل إبراهيم يقينًا، فكيف يحق لكم أن تعتبروا المسيح مصداقًا لها؟

أما دعوى المسيح بكونه مخلِّصًا للدنيا فقد ادعى به نبينا محمد رسول الله ﷺ أيضًا. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إنْ

كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحبِبْكم الله﴾ (آل عمران: ٣٢)..أي يا محمد، قُلْ للناس إن كنتم تودون أن تحرزوا في الروحانية مقامًا تصبحون به أحباء الله تعالى فعليكم بطاعتي والدخول في بيعتي. وهذا يعني أن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ لا يُكسب الإنسان النجاة فحسب، بل يترقى به حتى يصبح محبوبًا لدى الله تعالى.

ويقول الله تعالى أيضًا ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال: ٢٥). فالقرآن قد أعلن هنا أن محمدًا رسول الله ﷺ يحيي الناس. وبما أن الموت نتيجة للإثم بحسب الإنجيل، فإن إعلان القرآن هذا يعني أن النبي ﷺ مخلِّص للناس، وأن نجاة الناس من الموت، الذي هو نتيجة للإثم، متوقفة على اتباعهم لــه ﷺ.

لماذا قُدِّم المسيح بالذ ات للفداء؟

وهناك سؤال آخر بصدد الكفارة يطرح نفسه وهو: لماذا أُلقيت مسؤولية الكفارة على المسيح بالذات من بين الأقانيم الثلاثة؟ فنحن نسلم جدلاً بكل ما يدعيه المسيحيون، وإن كان كله غباء في غباء. لنفترض (**أولاً**) أن آدم ارتكب الإثم، و(**ثانيًا**) أن إثمه انتقل إلى أولاده بالوراثة، و(**ثالثًا**) أن الإثم الموروث لا علاج لــه في داخل الإنسان، بل لا بد لــه من شيء من الخارج، و(**رابعًا**) أن الكفارة هي العلاج لذلك - وإن كان هذا العلاج يشبه المثل

السائر عندنا: "ضربه على رُكبته ففقأ عينيه"؛ حيث يقولون أن الإثم ما كان لينمحي من الدنيا، ولكنه زال بموت المسيح على الصليب – ولكنا نسأل: إذا كان محو الإثم يتطلب فداء من كائن ذي قدرات إلهية، فلم لم يتقدم الإله الأب نفسه لهذا الفداء؟ أليس الإله الأب ذا رحمة لا تعرف الحدود؟ إذا كانت رحمة الإله الأب لا تعرف الحدود فلم لم يتقدم لهذا الفداء؟ ثم ما الذي منع الإله الروح القدس من أن يقدم هذه التضحية؟

وليست لهذا السؤال إلا إجابتان اثنتان فقط: فإما أن يقولوا إنه لو مات الإله الأب أو الإله الروح القدس لأتى الفناء على الكون كله، ولكن التسليم بهذه الإجابة يعني أن الإله الابن كان ناقصًا، فقُدِّم للفداء لأن موته ما كان يعرض الكون للفناء.

أو يقولوا أن الإله الأب والإله الروح القدس لم يحبّا الناس كما أحبهم الإله الابن، فلم يتقدما للفداء من أجلهم. ولكن هذه الإجابة تصم الإلهين الأب والروح القدس بالعيب والمنقصة. ثم إن هذه الإجابة تخالف ما ورد في الإنجيل عن الإله بأنه إله المحبة (رسالة بولس الثانية إلى مؤمني كورنثوس ١٣: ١١)، بينما لم يرد هذا في حق الإله الروح القدس ولا الإله الابن. فالتسليم بأي من الإجابتين يؤدي إلى اعتبار أحد الأقانيم الثلاثة ناقصًا، والناقص لا يمكن أن يكون إلهًا باعتراف جميع الأديان.

هل الكفّارة ضرورية؟

ثم هناك سؤال آخر: هل الكفارة ضرورية عند اليهودية؟ إن التوراة في رأينا تؤكد أن لا حاجة لأي كفارة وفداء. ذلك أن الكفارة إنما يُلجأ إليها لو استحال غفران الذنوب، ولكن التوراة تعلن أن غفرانها ممكن، حيث إنها مليئة بتعليم غفران الذنوب، كما أنها تسهب في ذكر التضحيات والقرابين التي نالت القبول عند الله تعالى؛ بل إنها تخبرنا بوجود أناس بعد آدم تقبل الله تضحياتهم فمنحهم قربه. فقد ورد فيها:

"وحدث بعد أيام أن قايين قدّم من أثمار الأرض قربانًا للرب، وقدّم هابيلُ أيضًا مِن أبكار غنمه ومِن سِمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانِه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدًّا وسقط وجهُه. فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفعٌ، وإن لم تحسن فعند الباب خطيّةٌ رابضةٌ، وإليك اشتياقها، وأنت تسُودُ عليها"* (التكوين ٤: ٣-٧).

علمًا أن قايين هذا يدعى عندنا قابيل.

لقد اتضح من هذه العبارة ما يلي:

* ورد في النسخة الأردية مكان العبارة التي تحتها الخط ما تعريبه: "ولكن عليك أن تتغلب عليها". وورد في نسخة عربية أخرى: "لكن يجبُ أن تتحكّم فيها".(المترجم)

الأول: أنه بالرغم من إثم آدم فإن قرابين بعض أبنائه كانت تحظى بالقبول عند الله تعالى، حيث تقبل الله قربان هابيل وجعله من المقربين حيث جاء: "فنظر الرب إلى هابيل وقربانِه". ونظرُ الرب إلى هابيل لا يعني أنه تعالى اكتفى بالنظر إليه، إنما معناه أن الله تعالى جعله من المقبولين المقربين لديه، معتبرًا قربانه شيئًا يزيد درجة صاحبه باستمرار، إذ لا يعني قبول الهدية عند الله تعالى إلا أن ينال صاحبها الجزاء عليها منه ﷻ.

فترى أن هابيل وقابيل كلاهما من أبناء آدم، وقد وُلدا بعد ارتكابه الإثم الذي من المفروض أن يرثاه منه بحسب العقيدة المسيحية، ومع ذلك عندما قرّبا قربانًا تُقبِّل من أحدهما و لم يُتقبّل من الآخر. فلو كان الإثم قد انتقل إليهما بالوراثة لما قدّما أي قربان أصلاً، أو لم يُتقبل من أيهما إطلاقًا.

الثاني: ورد في هذه الفقرة: "إن أحسنت أفلا رفعٌ".. أي إذا صرت صالحًا أفلا تُرفع درجتك وتصير مقبولاً لدى الله تعالى؟ إن هذه الكلمات تؤكد إمكانية صلاحه إذا أراد، لأن كلمة "أفلا رفعٌ" يعني أن باب التقرب إلى الله مفتوح أمامه، وهي طبعًا درجة عالية من النجاة.

وهذا يوضح أن بني آدم حينذاك أيضًا كانوا يتقربون إلى الله تعالى بأعمالهم لا بالكفارة، وأنهم رغم ارتكابهم الذنوب كانوا يحظون بالقبول لديه تعالى من خلال توبتهم؛ فثبت بذلك أن

بإمكان كل إنسان أن يصير صالحًا، وأن يصبح مقربًا لدى الله تعالى، وإلا لما قال الله تعالى لقابيل، الذي صار جراء إثمه غير مقبول لديه تعالى: "إن أحسنت أفلا رفعٌ".

الثالث: ثم ورد في هذه العبارة: "وإن لم تحسن فعند الباب خطيّةٌ رابضةٌ، وإليك اشتياقها".

تزعم المسيحية أنه بعد أن ارتكب آدم الإثم غُرس الإثم في قلب الإنسان، وهذا هو معنى الإثم الموروث أيضًا، ولكن التوراة تعلن هنا أن الإثم لن يدخل في قلب الإنسان، بل هو رابضٌ عند باب بيته؛ وهذا يعني أن الإثم لا يوجد في قلب الإنسان بل يأتي من الخارج؛ وبتعبير آخر إن الإثم شيء خارجي وليس شيئًا موروثًا مختلطًا بلحم الإنسان ودمه.

الرابع: ثم ورد في هذه الفقرة أن الله تعالى قال لقابيل: "وأنت تسُودُ عليها".. أي عليك أن تتغلب على هذه المعصية. والله لا يأمر إلا بما هو ممكن الوقوع، فنحن أيضًا لا نقول للصبي – اللهم إلا إذا كنا نمازحه مزاحًا خاطئًا – أن اذهب واحمِل إلينا السيارة أو الفيل مثلاً، وإنما نأمره بما في وسعه وطاقته. أو لا يقول مدير مكتب للموظف أن اذهب واحمل إليّ عربة القطار، لأنه لو أمره بذلك، سيصفر وجهه، وسيتسلل من غرفته ليقول لزملائه إن حضرة المدير قد صار مجنونًا، إذ أمره بما يخرج عن وسعه وطاقته.

كذلك تمامًا لو كان التغلب على الإثم مستحيلاً لما أمر الله تعالى قابيل بالتغلب عليه.

لا جرم أن الله تعالى لم يقبل من قابيل قربانه وقال لـــه لأنك لم تقدم القربان بإخلاص وحسن نية فقربانك مردود، ولكنه تعالى أوضح لـــه أيضًا أن هذا لا يعني أن قربانك مردود للأبد ولن يقبل بعد ذلك إلى يوم القيامة، بل قال لـــه: أمامك فرصة للتغلب على المعاصي لتحظى بمرضاتي. وهذا يعني أن الإنسان قادر على أن يتغلب على الإثم بجهده.

إذن فالله تعالى يعلن هنا حتى عن إثم قابيل، دعك من إثم آدم، أنه ليس بشيء يستحيل التغلب عليه، بل هذا ممكن، وعليك أن تسعى لذلك.

هذا، وقد اتضح من هذه الفقرة أيضًا أن المسيحيين هم أتباع قابيل، وأن المسلمين هم أتباع هابيل. ذلك أن المسيحيين يؤمنون بقربان الكفارة، فلأن قربانهم لا يُقبل مثل قربان قابيل، فإنهم يعادون محمدًا رسول الله ﷺ والمسلمين انتقامًا منهم. وكما أن الله تعالى قال لقابيل: "إن لم تُحسن فعند الباب خطيّةٌ رابضةٌ، وإليك اشتياقها"، فإننا نرى المشهد نفسه في العالم المسيحي اليوم حيث كثرت الذنوب حتى تجاوزت كل الحدود.

وباختصار، فإن التوراة أيضًا تؤكد أنه كان بوسع الإنسان أن يصير صالحًا بعد اقترافه الإثم أيضًا، وأن بذرة الإثم لم تُغرس في

قلبه، بل كان الإثم يهاجمه من خارجه، وأن باب التوبة كان مفتوحًا أمامه بعد ارتكاب الإثم، وأن إمكانية التغلب عليه كانت موجودة لـــه، وأنه لم يكن قادرًا على التغلب على الإثم فحسب، بل على أن يصير من عباد الله المقبولين أيضًا. وبالتالي لم يكن ثمة شيء على الإطلاق يضطر إلى الكفارة كما يزعم المسيحيون.

ولا يزال هناك سؤالان هامان بصدد الكفارة وهما: لنفترض أنه لم يكن للخير وجود في الناس، فاقتضى الأمر فداء عن شرورهم ومعاصيهم، ولكن هل كانت هناك حاجة إلى ابن لله تعالى لهذه الكفارة؟ ثم هل كان المسيح ابنًا لله حقًّا؟

وللإجابة على السؤال الأول، نتوجه إلى كتاب المسيح ﷺ نفسه. اعلم أن الكتاب المقدس يخبرنا أن أنبياء الله تعالى قد أتوا بشتى المعجزات والآيات، فكانوا يحيون الموتى، ويشفون المرضى، ويباركون في الطعام وما إلى ذلك (الملوك الثاني ٥: ٣-١٤). ولكن المسيحيين يزعمون - أقول هنا "المسيحيين يزعمون" لأنهم يعزون إلى الإنجيل أمورًا كثيرة من عند أنفسهم لا أثر لها فيه رغم تعرضه للتحريف والتغيير- أن الأنبياء لا يقدرون على مساعدة الإنسان على غفران ذنوبه. إنهم يقدرون على إحياء الموتى كما فعل إيلياء وأليشع (انظر الملوك الثاني ٤: ٣٥)، ولكن لا يستطيعون مساعدة الناس على غفران معاصيهم، فاقتضى الأمر فداء من ابن الله تعالى!!

تعالوا نر الآن: هل يؤيد الإنجيل هذه العقيدة؟

ورد في الإنجيل أن الناس جاءوا المسيح بمفلوج مطروح على السرير، فلما رآه قال: "ثِقْ يا بُنيّ، مغفورةٌ لك خطاياك" فأخذت الناس حيرةٌ من قوله هذا (انظر متى ٩: ٢-٣).

وهذا بالضبط ما تفعله المسيحية حيث تقول: كيف يمكن للإنسان أن يغفر خطأ غيره.

ويقول الإنجيل بعد ذلك: "فعلِم المسيحُ أفكارهم فقال: لماذا تفكّرون بالشر في قلوبكم. أيّما أيسرُ: أن يقال "مغفورة لك خطاياك"، أم أن يقال قُمْ وامْشِ؟" (المرجع السابق: ٤-٥).. بمعنى أي الأمرين أسهل في رأيكم؟

لا شك أن الأسهل عند المسيحية هو أن يقال للمفلوج "قُمْ وامْشِ"، أما القول "مغفورة لك خطاياك"، فمستحيل عندها. ولكن الإنجيل يخبرنا أن المسيح قال لهم بعدها: "ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا، حينئذ قال للمفلوج: قُمْ احملْ فراشك واذهبْ إلى بيتك. فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجّبوا ومجّدوا الله الذي أعطى الناس سلطانًا مثل هذا" (المرجع السابق: ٦-٨).

إن هذا الحادث من الإنجيل يؤكد أن معجزة غفران الذنب وشفاء المفلوج الذي مشى فورًا إلى البيت إنما أتى بها واحد من البشر وليس الله تعالى.

ثم ورد في الإنجيل حادث امرأة زانية غفر لها المسيح ذنوبها مع أنها لم تكن مؤمنة به (انظر يوحنا ٨: ١-١١).

هل كان المسيح ابن الله حقًّا؟

أما السؤال الثاني فهو: إذا كان غفران الذنوب لا يتم إلا بكفارة ابن لله تعالى، فهل كان المسيح ابنًا لله حقًّا؟ فاعلم أن ليس عند المسيحيين أي دليل على كون المسيح ابنًا لله تعالى حقًّا إلا قول المسيح إنه ابن الله. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل كان المسيح بالفعل موصوفًا بصفات الله وقدراته؟ فنحن عندما نقول، مثلاً، إن الله موجود، فإننا نقدم أيضًا البراهين على وجوده، فنذكر شتى صفاته وقدراته التي لا توجد في الإنسان ولا في أي كائن آخر. ولكن المسيحيين لا يقدمون لنا ما يوجد في المسيح ولا يوجد في الأنبياء الآخرين كبرهان على ألوهيته. بل الحق أن التوراة قد ذكرت كثيرًا من الأمور التي توجد في الأنبياء الآخرين ولا توجد في المسيح، ولكنه بحث منفصل لسنا بصدده الآن.

إن المسيحيين يقولون: لأن المسيح قال إنه ابن الله فقد صار ابن الله. ونحن نقول: صحيح أن المسيح قال عن نفسه إنه ابن الله، ولكن علينا أن نرى هل استخدم هذا التعبير كمصطلح لأداء معنى خاص، أم بمعناه الحرفي الشائع عند الناس كقولنا: إن هذا ابن زيد وذاك ابن عمرو وفلانًا ابنُ خالد؟

وفيما يتعلق بقول المسيح عليه السلام عن نفسه إنه ابن الله فقد ورد في الإنجيل ما يلي: "نعمْ أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك. كلُّ شيء قد دُفع إليّ مِن أبي. وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابنُ ومن أراد الابنُ أن يعلن لـــه" (متى ١١: ٢٦-٢٧).

كما ورد في موضع آخر قوله: "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلُص به العالمُ" (يوحنا ٣: ١٧).

وفي هذا القول أيضًا سمى المسيح عليه السلام نفسه ابن الله، ولكنه قد قال هنا شيئًا يتعارض مع ما ورد في مثله الشهير باسم "مثل الكرْم" حيث قال: إنسانٌ غرس كرْمًا، وسلّمه إلى كرّامين، وسافر زمانًا طويلاً. وفي الوقت أرسل إلى الكرامين عبدًا لكي يعطوه من ثمر الكرم، فجلده الكرامون وأرسلوه فارغًا. فعاد وأرسل عبدًا آخر، فجلدوا ذلك أيضًا وأهانوه وأرسلوه فارغًا. ثم عاد فأرسل ثالثًا، فجرّحوا هذا أيضًا وأخرجوه. فقال صاحب الكرم: ماذا أفعل؟ أُرسل ابني الحبيب، لعلهم إذا رأوه يهابون. فلما رآه الكرامون تآمروا فيما بينهم قائلين: هذا هو الوارث، هلُمُّوا نقتُلْه لكي يصير لنا الميراث. فأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فماذا يفعل بهم صاحب الكرم؟ يأتي ويُهلك هؤلاء الكرامين، ويعطي الكرم لآخرين" (لوقا ٢٠: ٩-١٦).

فإن هذا المثل يؤكد أن الابن إنما أُرسل ليقيم الحجة على هؤلاء ويعاقبهم إذ لم يؤدوا لأبيه ما عليهم من ثمر البستان، ولكن الفقرة السالفة تتنافى مع هذا المثل إذ ورد فيها: "لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلُص به العالمُ".

ثم ورد أن المسيح قال لتلاميذه: "فاذهبوا وتلْمِذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩).

وهناك أماكن أخرى أيضًا ورد فيها قول المسيح عليه السلام إنه ابن الله، بل الابن الوحيد لله تعالى. ولكن ينبغي ألا يغيب عن البال أن المسيح نفسه قال أيضًا، وفي أماكن كثيرة من الإنجيل، إنه ابن الإنسان. فلا يحق لنا أن نفضل دعوى لـــه على دعوى أخرى، إنما علينا أن نثبت بالأدلة والبراهين، لا بمجرد الظن والتخمين، أي القولين هو الصحيح، وأيهما الخطأ.

نقرأ في الإنجيل قول المسيح: "ابن الإنسان لم يأت ليُخدم بل ليخدم" (متى ٢٠: ٢٨).

وبالمناسبة فإن هذا ما أعلنه أيضًا مثيل المسيح أعني سيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية إذ قال باللغة الفارسية:

مَنِهْ أز بهرِ ما كرسي   كه مأموريم خدمت را

(آئينه كمالات إسلام، الخزائن الروحانية ج ٥ ص ٥٥)

أي لا تقدّم لي الكرسي فإني مأمور بالخدمة.

فلأن الناس يقهرون الفقراء عمومًا على الخدمة ويصبّون عليهم أنواع الظلم، صرّح المسيح عليه السلام للناس عنه وقال إن ابن الإنسان لم يأت ليُخدم بل ليخدم. ولا غرو أنه تعليم سام فيما يتعلق بالأخلاق، ولكن فيما يتعلق بماهية المسيح فثبت به أنه كان ابن الإنسان.

ثم قال المسيح عليه السلام: "وكما كانت الحال في زمن نوحٍ، كذلك ستكون عند رجوع ابن الإنسان" (المرجع السابق ٢٤: ٣٧).

وقال أيضًا: "في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان" (المرجع السابق: ٤٤).

أي أن بعثة المسيح الأولى كانت كإنسان، وستكون بعثته الثانية كإنسان أيضًا، ولكنه سيأتي في وقت لن يتوقع الناس مجيئه فيه. وفيه إشارة إلى أن الناس يعتبرون بعثة المسيح عبثًا وسيكذّبونه كما حصل بالأنبياء الآخرين.

وقال المسيح عليه السلام أيضًا: "اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابنُ الإنسان" (يوحنا ٦: ٢٧).

أي أن الناس يسعون عمومًا للأشياء المادية من غذاء ولباس وما إلى ذلك، ولكن عليكم أن لا تسعوا للمتع المادية العابرة، وإنما للغذاء الروحاني الذي يهب الحياة الحقيقية، والذي يمدّكم به ابنُ الإنسان المسيحُ.

والغريب أنه بالرغم من تعليم المسيح هذا فإن أمته هي أكثر الأمم تكالبًا على الدنيا، وأكثرها بعدًا عن الروحانية.

وقال المسيح عليه السلام: "يا يهوذا، أبقُبلةٍ تسلِّم ابن الإنسان" (لوقا ٢٢: ٤٨).

وكان يهوذا هذا أحد تلاميذ المسيح الذي سلّمه لأعدائه نظير ثلاثين شاقلاً. كان المسيح يعيش بعد حادث الصليب مختبئًا عن العدو، وكان هو وتلاميذه يلبسون ثيابًا متشابهة، وينقّبون وجوههم كيلا يُعرَف المسيح من بينهم (انظر يوحنا ٢١: ٤). وكان الأعداء يبحثون عنه، فأعطوا تلميذه يهوذا هذا ثلاثين شاقلاً كرشوة ليدلّهم على المسيح. فقال للعدو: تعالوا معي حيث يجلسون معًا، فسوف أتقدم والشخص الذي سأقبّله هو المسيح. ولكن الله تعالى أخبر المسيح عليه السلام بالوحي بغدر يهوذا وتآمره مع العدو، فلما جاء يهوذا بالشرطة، وتقدم ليقبّله قال لـــه المسيح: "يا يهوذا، أبقُبلةٍ تسلِّم ابن الإنسان".

فثبت بكل هذه الأقوال للمسيح عليه السلام نفسه أنه كان إنسانًا عند بعثته الأولى، وسيكون إنسانًا لدى بعثته الثانية، وأنه كان إنسانًا حين علِّق على الصليب. وما دام المسيح عليه السلام نفسه يعترف بكونه إنسانًا فكيف جاز للمسيحيين أن يفسروا كلمة "ابن الله" بما يخالف التوراة والإنجيل كليهما؟ فإما أن يقولوا أن المسيح كان – معاذ الله – مجنونًا حيث قال تارة إنه ابن الله، وأخرى إنه ابن

الإنسان؛ أو نحاول إيجاد حل لهذه المعضلة، فنقول إن أحد التعبيرين حقيقة والآخر استعارة، وإذا عرفنا أيهما حقيقة وأيهما مجاز لتوصلنا إلى النتيجة الصحيحة. فلو ثبت أن كلمة "ابن الإنسان" مجاز، لكان المسيح ابنًا لله حقيقةً، وأما لو ثبت أن تعبير "ابن الله" مجاز لتبين أن حكاية كون المسيح "ابن الله" التي يبني عليها المسيحيون كفارتهم لحكاية باطلة تمامًا.

وحينما ندرس الإنجيل من هذا المنظور نجد المسيح عليه السلام يقول: "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون" (متى ٥: ٩).

فالمسيح عليه السلام قد أطلق هنا تسمية "أبناء الله" على أناس غيره أيضًا، فثبت بذلك أن أحدًا إذا سُمي ابنًا لله فلا يصبح ابنًا لله حقيقة، وإلا فإن كل صانعي السلام يمكن أن يدّعوا أنهم أبناء الله حقًّا، وأنهم يصلحون لأن يكونوا كفارة وفداء لذنوب الناس.

بيد أن هذه العبارة لا تؤكد وجود أبناء لله سوى المسيح فحسب، ولا تؤكد بطلان الكفارة المزعومة فحسب، بل تكشف لنا أمرًا آخر أيضًا، وإليك بيانه.

لقد بيّن المسيح عليه السلام هنا السبب الذي جعل هؤلاء أبناءً لله تعالى. فلو أنه لم يبين السبب لاختلف الناس في بيان السبب والحكمة وراء تسميتهم. فقال المسيح عليه السلام إن الذي ينشر الصلح والسلام فهو إنسان مبارك، لأن نشر السلام يجعل الإنسان ابنًا لله

تعالى؛ وكأنه ﷺ جعل الصلح والسلام شرطًا ليصبح أحد ابنًا لله تعالى.

ولكن هذا الأمر نفسه يكشف لنا أن المسيح لم يكن ابنًا لله تعالى، لعدم توفر هذا الشرط فيه. والدليل على ذلك هو قوله: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا" (متى ١٠: ٣٤).

وهذا يعني أن إنجيل "متى" يسجل في مكان قول المسيح إن الإنسان إذا نشر السلام بين الناس استحق أن يسمى ابنًا لله تعالى، بينما يعلن الإنجيل نفسه في موضع آخر اعتراف المسيح أن هذه الصفة لم توجد فيه، فثبت أنه لا يمكن أن يسمى ابنًا لله تعالى. فلربما سُمي "ابن الله" لسبب آخر بسيط.

وثمة قول آخر للمسيح ﷺ سمي فيه أناس آخرين "آلهة" أو "أبناء الله"، مبينًا أنه ليس ابن الله حقيقة. حيث ورد في الإنجيل أن المسيح قال لليهود:

"الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي، ولكنكم لستم تؤمنون، لأنكم لستم من خِرافي كما قلت لكم. خِرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد".

(لقد ظن اليهود بقول المسيح هذا أنه يدعي الألوهية)

"فتناول اليهود أيضًا حجارة ليرجُموه. أجابهم يسوع: أعمالاً كثيرة حسنة أريتُكم من عند أبي، بسبب أي عمل منها ترجُمونني؟"

(أي أني آمر الناس بالبر، فهل ترجمونني بسبب ذلك؟ إني أدعوهم إلى الحلم والعفو والرحم، فهل تريدون رجمي لهذا السبب؟ إني أعظهم أن يحبّوا الله ويخافوه، فهل ترشقونني من جراء هذا؟ إني أخدم الإنسانية وأنصح الآخرين بخدمة الفقراء، فهل ترجمونني لهذه الجريمة؟ لقد قمت بأعمال حسنة كثيرة أمرني الله بها، فما هي جنايتي التي بسببها تريدون أن ترجمون؟)

"أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجُمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجديف، فإنك، وأنت إنسان، تجعل نفسك إلهًا؟ أجابهم يسوع: أليس مكتوبًا في ناموسكم "أنا قلت: إنكم آلهةٌ"؟"

(أي أليس مكتوبًا في التوراة أن الله تعالى قد سمى عباده "أبناء الله"؟)

"إن قال "آلهة" لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله – ولا يمكن أن يُنقض المكتوب – فالذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون لـــه إنك تجدّف لأني قلت: إني ابن الله؟"

(أي لقد أُطلق في التوراة اسم "آلهة" عليكم، ومع ذلك لم تصيروا آلهة في الحقيقة، ولم تصبحوا كافرين بسبب ذلك، حيث

قلتم إنها استعارة ومجاز فحسب، ولكن حين أطلق الله عليّ اسم "ابن الله" قلتم إني كافر! إذا كان السابقون لم يصبحوا كافرين رغم تسميتهم بالآلهة، فلم تستشيطون غضبًا وتسمونني كافرًا لورود اسم "ابن الله" في حقي؟ وتتهمونني بادعاء الألوهية بسببه، وتريدون أن ترجموني.

فترى أن المسيح ﷺ يعترف هنا صراحة أن اسم "ابن الله" الوارد في حقه في الكتاب المقدس لا يعني أنه ابن الله تعالى حقيقة.)

"إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا أن الآب فيّ وأنا فيه. فطلبوا أيضًا أن يمسكوه، فخرج من أيديهم" (يوحنا ١٠ : ٢٥-٣٩).

أي ما الفائدة من النـــزاع اللفظي؟ عليكم أن تروا أعمالي، فهل هي أعمال الموحدين أم أعمال المشركين؟ فإذا كانت أعمالي كلها تكشف توحيد الله وجلاله وجب عليكم تفسير كلمة "ابن الله" الوارد في الوحي في حقي على ضوء أعمالي.

لقد اتضح من هذا أن المسيح ﷺ قد بيّن بنفسه المراد من قوله إني "ابن الله"، فقال إنني لا أعني بذلك أنني إله بالفعل، بل أسمي نفسي ابن الله على سبيل الاستعارة، تمامًا كما سُمي بعض الأولين

في التوراة آلهةً على سبيل الاستعارة، إذ لم يكونوا آلهة في الحقيقة عندكم.

والعبارة التي يشير إليها المسيح ﷺ هنا الواردة في التوراة شرعِ اليهود نجدها في الزبور كالآتي: "الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جورًا وترفعون وجوه الأشرار. سِلاهْ. اقضُوا للذليل ولليتيم. أنصِفوا المسكين والبائس. نجُّوا المسكين والفقير. مِن يد الأشرار أنقذوا. لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشّون. تتزعزع كل أسس الأرض. أنا قلت: إنكم آلهةٌ وبنُو العليِّ كلُّكم، لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقُطون. قُمْ يا الله، دِنِ الأرض، لأنك أنت تمتلك كلّ الأمم" (المزامير ٨٢: ١-٨).

فقول داود ﷺ: "في وسط الآلهة يقضي" معناه أن المؤمنين آلهة ويقضي الله بين هؤلاء الآلهة.

أما قولـــه: "قلت: إنكم آلهة، وبنُو العليِّ كلُّكمْ" فواضح تمام الوضوح، حيث يعلن داود ﷺ لبني إسرائيل أنهم كلهم آلهةٌ وأبناءُ الله العليِّ، ولكنه يذكّرهم أيضًا أنه بالرغم من تسميته إياهم "آلهة وأبناء الله" فإنهم يموتون كما يموت البشر، لأنهم ليسوا آلهة في الواقع ولا أبناء الله في الحقيقة. أي أنهم لن ينجوا من الموت، ولكن الله حي لا يموت أبدًا. وإنما سُمّوا "آلهة" أحيانًا وأبناء الله" في

أحيان أخرى لكي يُنصفوا في الأرض مثل الله تعالى، وينفّذوا أوامره في الدنيا، فإذا فعلوا ذلك صاروا مظهرًا لله تعالى.

ومن الناس من يرون أن الوحي والإلهام ليس إلا ما يجول بقلوب الأنبياء من خواطر وأفكار، وهؤلاء يطلقون على هذا السِّفر "زبورَ داود" معتبرين إياه بنات أفكاره فحسب، ولكننا نحن المسلمين نؤمن، وفق تعليم القرآن، بأن الزبور من وحي الله تعالى، وأنه تعالى هو الذي قال لداود عليه السلام إن بني إسرائيل آلهة وأبناء الله تعالى. ولكنه عليه السلام عاد وأوضح لهم الأمر وقال: لا تظنوا أن هذه التسمية حقيقية، بل ستموتون كما يموت البشر، وستأكلون كما يأكل البشر، وستلبسون كما يلبس البشر. لقد سماكم الله آلهة وأبناء لــه لكي تصلحوا أعمالكم على ضوء هذا اللقب، فتسعوا للتحلي بصفات الله تعالى، وتدعوا الناس إلى العمل بوصاياه تعالى، وتنصفوا الفقراء، وتساعدوا الضعفاء، وترحموا المساكين، وتعفوا عن المسيئين.

إن المسيحيين يخدعون عامة الناس بقولهم إن المسيح قد سمِّي إلهًا أو ابن الله بالمعنى الحقيقي، ولكن هذه الفقرة من إنجيل يوحنا توضح بما لا يدع مجالاً للشك أن المسيح قد سمى نفسه ابن الله بالمعنى الذي سمى به داود عليه السلام بني إسرائيل "آلهة" و"أبناء الله"، وكما سمِّي كثير غيرهم آلهة وأبناء الله في التوراة، وإلا لبطل استدلال المسيح المذكور هنا. إذ يقول المسيح لليهود: لا جرم أني

أسمي نفسي ابنًا لله تعالى، ولكن هذا لا يعني أني ادعيت الألوهية، إذ قد سمي الأولون أيضًا آلهة وأبناء الله. أما القول أن المسيح يدعي بذلك أنه ابن الله حقيقةً فهو مردود لأنه يُبطل استدلال المسيح هذا؛ إذ كان بإمكان اليهود أن يقولوا لـــه إن الأولين قد سُموا آلهة وأبناء الله على سبيل الاستعارة، ولكنك تسمي نفسك ابن الله حقيقةً، ولكن المسيح يقدم لهم هذه العبارة من الزبور، وهذا يكشف بكل جلاء أنه يعترف هنا بأنه لا يسمي نفسه ابن الله إلا بالمعنى الذي سُمّي به الأولون آلهة وأبناء الله تعالى.

وإذا كان المسيح ابن الله بالمعنى الذي كان به الأولون آلهة وأبناء الله تعالى للزم أن يكون هؤلاء الأنبياء السابقون من بني إسرائيل صالحين للكفارة تمامًا كما يصلح لها المسيح عند النصارى، وإذا كان أولئك الأنبياء لا يستحقون ذلك فلا يستحقه المسيح أيضًا، لأن أساس الكفارة إنما هو على كون المسيح ابن الله، ولكن الواقع أن لا خصوصية للمسيح في ذلك، كما أثبتُّ من قبل، فهناك مئات الأنبياء وملايين المؤمنين الذين سُمّوا أبناء الله تعالى في التوراة.

إلى هنا أكون قد سُقتُ البراهين من التوراة على بطلان زعم المسيحيين أن المسيح نفسه ادعى أنه ابن الله فصار كفارة عن ذنوب البشر، حيث أثبت من التوراة أنه عليه السلام كان ابن الله بالمعنى الذي كان الأولون به أبناء الله تعالى.

والآن ندرس الأمر من منظور آخر متجهين إلى قوله الثاني إني ابن الإنسان، لنرى أي الأمرين حقيقة: كونه عليه السلام ابن الله أم كونه ابن الإنسان؟ ونرجع من أجل ذلك إلى كلام المسيح نفسه ثانية؟

اعلم أن أحدًا إذا قال إنه ابن الله فادعاؤه هذا قد يكون استعارة وقد يكون حقيقة، ولأن كلا الاحتمالين وارد، فلا بد لنا من إيجاد حل لمعرفة الحقيقة. فمثلاً لو قلتَ لأحد صبيانك مشيرًا إلى بعض زوارك الشجعان: إنه أسد، ثم زرتَ حديقة الحيوانات وقلتَ للصبي مشيرًا إلى الحيوان المعروف بهذا الاسم: إنه أسد، فكيف يعرف الصبي أيهما أسد في الحقيقة وأيهما أسد على سبيل الاستعارة؟ يجب أن تكون هناك علامة مميزة لمعرفة ذلك. والعلامة المميزة هي أن الصبي يقرأ ويرى في كتابه للتاريخ الطبيعي أن للأسد براثن وذنَبًا ووجهًا كبيرًا وشكلاً مخيفًا، وعندما تقول له عن شخص شجاع: إنه أسد، يدرك الصبي على الفور أن هذا استعارة إذ لا يرى لهذا الشخص ذنَبًا ولا براثن ولا وجهًا كوجه الأسد، بل يجد وجهه كوجوه الآدميين. وعندما تقول له في حديقة الحيوانات: هذا أسد يدرك الصبي أنك تعني بذلك الحيوان المعروف الذي رأى صورته في كتابه. وبالمثل حينما نقول عن أحد "إنه ابن الله" فكيف يدرك السامع هل قولنا هذا حقيقة أم استعارة. ينبغي أن تكون هناك علامة مميزة لذلك حتى لا يساء

الفهم. فمثلاً قال الله تعالى في القرآن الكريم لنبينا محمد ﷺ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم﴾ (الفتح: ١١)، والحقيقة أن اليد التي كانت فوق أيديهم هي يد النبي ﷺ لا يد الله سبحانه وتعالى؛ ومع ذلك لا نقول أن نبينا ﷺ إله. لماذا؟ لأنه لا توجد فيه ﷺ صفات الله التي ذكرها القرآن في مواضع أخرى. مثلاً يقول الله تعالى عن نفسه إنه لا يأكل ولا يشرب، ولكن النبي ﷺ كان يأكل ويشرب؛ ويقول الله عن نفسه إنه ﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾ ، ولكن النبي ﷺ كان بحاجة إلى السِّنة وإلى النوم؛ ويقول الله تعالى عن نفسه إنه ﴿لم تكنْ لــه صاحبة﴾، ولكن النبي ﷺ كانت لــه تسع أزواج. فالصفات التي توجد في الله لا توجد في النبي ﷺ، وأما الصفات التي تنــزه الله عنها فهي موجودة في النبي ﷺ؛ ومن أجل ذلك لما قال الله تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم﴾ أدركنا على الفور أنه استعارة، و لم نقل إن النبي ﷺ إله في الحقيقة، بل هو بشر، وهذا هو اعتقاد جميع المسلمين في العالم، ما عدا بعض الجهال منهم.

فقد زارني أحد الإخوة قبل فترة، وكان يقرأ القرآن قراءة واضحة جدًّا رغم كونه أميًّا. فلما سألته عن سبب ذلك قال: هذا بفضل صحبة الشخص الأحمدي الذي كان سببًا في انضمامه إلى جماعتنا، فكان يتقن قراءة القرآن بشكل رائع. ثم أخبرني هذا الأخ الجديد: كنت ذات مرة في زيارة بعض أقاربي غير الأحمديين،

فقلت لـــهم أثناء النقاش: انظُروا فإن النبي ﷺ نفسه يعلن ﴿إنما أنا بشرٌ مثلُكم﴾ (فصّلت: ٧)، فثاروا كلهم وقالوا: لولا أنك من أقاربنا لفعلنا بك كذا وكذا، فالأفضل لك أن ترحل من عندنا على الفور بدون أن تتفوه بكلمة أخرى، فإننا لم نسمع أبدًا من قبل أن محمدًا رسول الله ﷺ بشر.

إذن فثمة بعض الجهلاء من المسلمين الذين يعتقدون بهذا، ولكن العقلاء يؤمنون بأن محمدًا رسول الله ﷺ هو أفضل البشر، وسيد الرسل، وحبيب الله ﷻ، ولكنه بشر على كل حال.

فإذا قال المسيح ؑ "إني ابن الله"، فعلينا أن نفحص هل كان هو نفسه قد ادعى بما يعزوه المسيحيون إليه أم لم يدّع؟

عندما يُسأل المسيحيون عن الأمور المادية الصادرة عن المسيح من أكل وشرب يقولون: إنه أكل وشرب لأنه قد أُرسل إلى الدنيا بجسم إنساني. وإنا لا نخوض هنا في النقاش حول أكله وشربه، ولكنا نقول: لا بد للمسيح – إذا كان إلهًا – أن يتصف على الأقل بما يتصف به الله تعالى من الأمور الروحانية، إذ لا يمكن أن يخلو الإله بعد مجيئه إلى الدنيا من الكمالات الروحانية التي لا بد من وجودها فيه بصفته إلهًا. ولكنا نقرأ عن المسيح في الإنجيل:

"وفيما هو خارج إلى الطريق ركَض واحد وجثا لـــه وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرِث الحياة الأبدية؟ فقال لـــه

يسوع: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله" (مرقس ١٠: ١٧-١٨).

إن أول صفة لله هي كونه صالحًا لأن صاحب العيب لا يمكن أن يكون إلهًا، ولكن هذه الصفة الإلهية الأولى أيضًا لا توجد في المسيح، بل أنكر وجودها فيه بقوله: "لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله".

وبالمناسبة، فإني أنبه الإخوة أن المسيحيين قد حرفوا بعض الفقرات في الإنجيل ومنها هذه الفقرة، إذ جعلوا العبارة الآن كالآتي: "لماذا تسألني عن الصلاح" بدل "لماذا تدعوني صالحًا" (انظر متى ١٩: ١٧ من الطبعة الأردية)*. وذلك بعد ما اعترض عليهم سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وقال: تزعمون أن المسيح صار كفارة لأنه ابن الله، مع أن قوله هذا يدل صراحة على أنه لم يكن إلهًا إذ ينكر كونه صالحًا، وإذا لم يكن كذلك فكيف صار كفارة. فقوله هذا يبطل الكفارة من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكد التوحيد (جنغ مقدس ص ١٣٦). فما كان من المسيحيين، بعد سماع هذا الاعتراض إلا أن حرفوا هذه العبارة من إنجيل متى.

*علمًا أن هذه العبارة لا تزال كما هي في الطبعة العربية التي اقتبسنا منها (المترجم).

مع أن هذه الكلمات موجودة في جميع الطبعات القديمة بالإنجليزية واليونانية والألمانية وغيرها، وكذلك الطبعات الأردية الصادرة قبل عام ١٩١٠.

وهناك سبعة أو ثمانية عشر مكانًا في الكتاب المقدس حرفوا فيها العبارات نتيجة اعتراضات سيدنا المسيح الموعود عليه السلام.

إن قول المسيح هذا يؤكد أمرين: أولهما أن الله تعالى يتصف بالصلاح لأنه لا يمكن أن يكون إلهًا بدون الصلاح. والثاني أن المسيح ليس صالحًا، وبالتالي ليس إلهًا.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام وهو يتحدث عن بعثته الثانية: "فمن شجرة الزيتون تعلَّموا المَثلَ. متى صار غصنُها رَخْصًا وأخرجت أوراقَها تعلمون أن الصيف قريب. هكذا أنتم أيضًا متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب. الحق أقول لكم: لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله. السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده" (متى ٢٤: ٣٢-٣٦).

والظاهر من قول المسيح عليه السلام هذا أنه ينكر كونه عالمًا للغيب، مع أن من صفات الله تعالى أنه عالم الغيب. فإنكاره بأنه لا يعلم الغيب ولا أخبار المستقبل هو بمنـــزلة اعتراف منه أن قوله "أنا ابن الله" ليس حقيقة، بل استعارة.. ويعني فقط أنه محبوب لدى الله تعالى.

هذا، وقد ركز الإنجيل على كلمة "الإله الواحد" أيضًا، فقد ورد فيه قول المسيح عليه السلام: "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبَلون مجدًا بعضُكم من بعض، والمجدُ الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه" (يوحنا ٥: ٤٤).

فترون أن المسيحية تقدم لنا الثالوث، ولكن المسيح عليه السلام يستخدم هنا صراحة تعبير "الإله الواحد".

كذلك ورد في الإنجيل قوله عليه السلام: "وهذه الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوعَ المسيح الذي أرسلتَه" (المرجع السابق ١٧: ٣).

كان من الممكن أن يقول المسيحيون: إنا نعني بالإله الواحد مجموعة الأقانيم الثلاثة: الإله الآب والإله الابن والإله الروح القدس، لأن الواحد عندنا ثلاثة، والثلاثة واحد. ولكن هذه الفقرة من يوحنا ١٧: ٣ تبطل تفسيرهم التافه هذا، إذ لم يذكر المسيح عليه السلام هنا نفسه ضمن مصطلح "الإله الواحد" وإنما ذكر نفسه على حدة. ولو كان هو أيضًا إلهًا لما ذكر نفسه منفصلاً عن الإله الواحد. فثبت أن الإله الواحد هو غير المسيح، وهذا هو التوحيد، أي أن لا يُشرَك مع الإله الواحد أحدٌ، لا الابن ولا الروح القدس ولا أي شيء آخر.

إن هذه الفقرة أيضًا تثبت أن كلمة "ابن الله" الواردة في حق المسيح إنما هي استعارة فقط، ولا تعني أبدًا أن المسيح شريك مع

الله في ألوهيته، بل ما هي إلا تعبير عن الحب، شأنها شأن قول الأم لولدها: إنك فلذة كبدي، إنك مهجتي، إنك قرة عيني، فمن ذا الذي يحمل قولها هذا محمل الحقيقة؟ وهل يدفنون الولد معها عند وفاتها بحجة أنه في الواقع كبدها وقلبها وعينها وليس طفلاً. هل هناك أحد ارتكب هذه الحماقة؟ وأحيانًا يرى الواحد منا طفلاً لقريب أو صديق له، فيقول له: يا بُنَيَّ؛ فهل، يحق لهذا الطفل أن يدعى بكونه وارثًا لـــه، ويقول: لقد سميتني ابنًا لك، وكل هؤلاء القوم شهود على ذلك؟ كلا، إن الجميع يعرفون أنها كلمات حب وشفقة فحسب.

فإذا كان للناس الحق أن يتكلموا بمثل هذا الكلام، فإن لله تعالى أيضًا كل الحق أن يكلّم عباده الأخيار بكلام مماثل تعبيرًا عن حبه لهم وعطفه عليهم، فيقول لبعضهم: إنك ابني، كما قال للمسيح وغيره من الأنبياء الكثيرين. فقوله تعالى "إنه ابني" لا يعني أن الله لم يعُد إلهًا واحدًا، بل صار هناك – معاذ الله – إلهان أو ثلاثة.

فثبت من هذه العبارات أيضًا أن المسيح سمي "ابن الله" على سبيل الاستعارة لا الحقيقة.

هذا، ويعتقد المسيحيون أنه لم يكن للمسيح الإلهِ الابن جسد كما ليس للإله الأب ولا للإله الروح القدس جسد (يوحنا ١: ١٤)، ولكنه لما جاء إلى العالم ليُصلَب كفارةً عن ذنوب الناس تجسَّدَ.

وبتعبير آخر، إن السبب الوحيد لتجسُّد المسيح هو أن يُصلَب من أجل ذنوب الناس ويموت مرة، لأن الموت نتيجة الإثم؛ فمادام قد حمل ذنوبهم فلا بد أن يموت مرة، وبموته أُنجزت واكتملت خطة تكفير ذنوب العالم.

لو كان هذا الادعاء صحيحًا للزم أن لا يكون للمسيح جسم حين عاد إلى الحياة، فإن الهدف الإلهي قد تحقق، وتم غفران ذنوب النوع الإنساني، ولم يعد هناك حاجة لتجسُّد الإله الابن، بل ينبغي أن يصبح بلا عيب مثل الإله الأب. ولكن الإنجيل يخبرنا أن المسيح حين عاد إلى الحياة - في رأيهم - بعد حادث الصلب كان لـــه جسد، وأنه بجسده صعد إلى السماء، وفي روايات أخرى أنه بجسده صعد إلى قمة جبل وغاب✪.

وهذا يعني أنه خرج من القبر بجسده، وليس هذا فحسب بل صعد إلى السماء أيضًا بجسده، مع أنه ما كان بحاجة إلى أي جسد. وهكذا فإن صرح ألوهية المسيح كله يتهدم وينهار، إذ ثبت أن هذا الذي كان عند المسيحيين إلهًا متساويًا مع الإله الأب لا يزال حتى اليوم جالسًا في السماء مقيدًا في الجسد.

ثم لا يخبرنا الإنجيل هل سيُطلَق المسيح من قيد الجسم أم لا، بل يتضح منه أنه عند نـــزوله الثاني أيضًا سينـــزل بجسده، حيث

✪ انظر مرقس ٢٠: ١٩-٢٠، ولوقا ٢٤: ٥٠-٥٢، وقاموس الكتاب بالأردو تحت كلمة "عنيا". (المترجم)

ورد: "وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحاب بقوة كثيرة ومجد" (مرقس ١٣: ٢٦).

علمًا أن المراد من مجيئه في سحاب هو أن الناس لن يفهموا دعواه بسهولة، بل ستثار ضدها شتى الشكوك والشبهات.

إن هذه الفقرة تقول صراحة إن الناس سيرون المسيح نازلاً من السماء في الجسد لدى نـــزوله الثاني أيضًا، والبديهي أن لن يموت ثانية إذ قد ذاق الموت لدى مجيئه الأول من أجل الكفارة التي قد تمت وانتهت، ولا مجال لموته ثانية. إذن فإما أن يعترف المسيحيون أن المسيح سيبقى مقيدًا في سجن الجسد إلى الأبد، ولن يطلَق سراحه مطلقًا، وإما أن يعترفوا ببطلان النظرية التي قدموها للعالم بصدد تجسد المسيح. إذ لو كانت تلك النظرية صحيحة لوجب تحرر المسيح من قيد الجسد بعد حادث الصلب، ولكن الإنجيل يقول إنه عاد إلى الحياة بجسده هذا، وصعد إلى السماء بجسده أيضًا.

هل كان المسيح راضيًا بالكفّارة؟

هذا، ويدعي المسيحيون أن المسيح صار فداء، ولكن إثبات هذه الدعوى يتطلب منهم الرد على سؤال هام هو: هل كان المسيح راضيًا بهذه الكفارة؟ إن دليلهم الوحيد على الكفارة هو قولهم أن الله تعالى لا يستطيع أن يغفر للناس ذنوبهم، فعاقبَ

المسيح كفارةً عن ذنوبهم. إنهم يقولون إذا كان على زيد دَين، ورضي بكر بأداء دينه نيابة عنه، فقد سقط الدين عن زيد. لقد صار الناس مدينين لله تعالى نتيجة ذنوبهم، وكان الله غير قادر على غفران ذنوبهم لأنه عادل - علمًا أن العدل عندهم يقتضي معاقبة الآثم في كل حال - فحلّ المعضلةَ بأن أخذ من ابنه هذا الدين نيابة عن الناس.

ولكنا نقول: إن الإثم ليس كالمال، وإنما مثله كمثل السرطان. فإذا قال آلاف الناس لمريض السرطان،: لست أنت المصاب بالسرطان بل نحن المصابون به ونحن نتحمل آلامه نيابة عنك، فلن ينفعه قولهم شيئًا. وثمة أشياء كثيرة لا بديل لها ولا كفارة لها، وإن الإثم أحد هذه الأشياء. ورغم هذه الحقيقة نفترض أن ما يقوله النصارى صحيح وأن الإثم يمكن أن يُدفَع لــه عوض وكفارة، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل يجوز لنا أن نسلب شخصًا مالَه لنؤدي به دَين غيره؟ صحيح أن زيدًا لو أراد طوعًا أن يدفع الدين الواجب على بكر فله أن يفعل ذلك، ولكن لو أخذنا من زيد ماله قهرًا لنسدد به دينَ بكر فلن نكون عادلين أبدًا، بل سنظلم ظلمًا عظيمًا. إنه ليس عدلاً لأننا لم نأخذ المال من الذي عليه الدين، وإنه ظلم لأننا سلبنا شخصًا آخر مالَه قهرًا. فلو ثبت أن المسيح عليه السلام كان راضيًا عن أن يؤدي دَين ذنوب الناس نيابة عنهم، كما ثبتت القضايا الأخرى أيضًا، لثبت أنه صار كفارةً،

ولكن المسيحيين إذا لم يستطيعوا أن يثبتوا رضى المسيح عن حمل ذنوب الناس، لسقط بناء الكفارة كلها، وإن أثبتوا القضايا الأخرى التي سبق أن أثبتُّ بطلانها في الصفحات الماضية، لأن الذي قدموه للكفارة قد أُرغم عليها إرغامًا. هلموا نر ماذا يقول الإنجيل بهذا الصدد.

لقد جاء في الإنجيل عن المسيح عليه السلام: "وجاءوا إلى ضيعة اسمها جَثْسَيماني، فقال لتلاميذه: اجلسوا ههنا حتى أصلي. ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهَش ويكتئب. (أي أخذ المسيح عليه السلام معه للدعاء ثلاثة فقط من تلاميذه). فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكُثوا هنا واسهَروا. (أي أن المسيح قد ابتعد عن هؤلاء الثلاثة أيضًا حتى لا يأخذه الخجل من وجودهم وهو يبكي ويبتهل خلال الدعاء). ثم تقدم قليلاً وخرّ على الأرض، وكان يصلي لكي تعبُر عنه الساعة إن أمكنَ (يعني كان يدعو أن لا يتمكن العدو من صلبه الذي كان من المفروض أن يحمل عن طريقه ذنوب جميع الناس). وقال يا أبا الآبُ، كل شيء مستطاع لك، فأَجِزْ عني هذه الكأس. (هذا يعني بكل جلاء أنه كان يُرغَم على الصلب إرغامًا، ولم يكن راضيًا بأن يُصلب). ولكنْ وليكنْ لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت. (يعني أنني لا أريد أن أُصلَب لأكون كفارة، ولكنك تريد صلبي، فماذا أفعل أمام إرادتك. وكأنه تعالى كان يُكرهه على ما لا يريد. ومثله كمثل صاحب

مصرف لا يأخذ ماله من المستدين، بل يسلب أحدًا من الناس في السوق مالَه، ويظن أن دينه قد تم سداده). ثم جاء ووجدهم نيامًا، فقال لبطرس: يا سِمْعان، أنت نائم؟ (علمًا أن اسمه الحقيقي سِمعان، أما بطرس فهو لقبه ومعناه "الصخرة"، وقد أطلقه عليه المَسيح (مرقس ٣: ١٦)، تفاؤلاً منه أنه سيكون بمنــزلة الصخرة لصالح المسيحية). أما قدرتَ أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهَروا وصلُّوا لئلا تدخُلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف. (أي لأن الله يريد أن أُصلَب فقلبي لا يخاف، ولكن جسمي يشعر بالضعف لكوني بشرًا). ومضى أيضًا وصلّى قائلاً ذلك الكلام بعينه (أي أنه قال مرة أخرى: يا رب، أنا لا أريد أن أصلَب، ولكن إذا كانت هذه إرادتك فلا اعتراض عندي). ثم رجع ووجدهم أيضًا نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلةً، فلم يعلموا بماذا يجيبونه. (وهذا يعني أن المسيح كان يأتيهم في قلق وفزع مرة بعد أخرى، لكي يعرف هل يساعده حواريوه في ساعة العسرة تلك، ولكنه في كل مرة وجدهم نائمين). ثم جاء ثالثةً وقال لهم: ناموا الآن واستريحوا. يكفي. قد أتت الساعة. هوذا ابن الإنسان يسلَّم إلى الأيدي الخُطاةِ. قوموا لنذهب. هوذا الذي يسلّمني قد اقترب" (مرقس ١٤: ٣٢-٤٢).

لقد أكدت هذه العبارة أن المسيح لن يصبح كفارة عن طيب نفس، بل كان يريد أن تعبر عنه هذه الكأس بطريق أو آخر. إذن فكل العملية تمت قسرًا وقهرًا.

والشهادة الثانية بهذا الصدد هي من إنجيل لوقا الذي يقول:

"وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه أيضًا تلاميذه. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة. وانفصل عنهم نحو رمية حجرة، وجثا على رُكبتيه وصلى قائلا: إنْ شئتَ أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكُنْ لا إرادتي بل إرادتك. (وهذا يعني أن هذا الإنجيل أيضًا يؤكد أن المسيح قال لله تعالى إنني لا أريد أن أُصلَب، ولكن إذا كنت تريد صلبي فأنا راض. وبتعبير آخر، أنا لا أريد تسديد دين الآخرين، ولكن إذا كنت تريد سلبي فماذا أفعل؟) وظهر ملاك من السماء يقوّيه. (انظروا فإن الملاك يقوي الرب! وهذا كأن يساعد الحصانَ فأرٌ بل ما دونه من الحيوانات والحشرات). وإذْ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقُه كقطراتِ دم نازلة على الأرض. (وهذا بالرغم أن تلك الأيام كانت أيام برد قارس، إذ كان الشهر شهر ديسمبر/ كانون الأول، والمكان في الشمال وعلى أحد الجبال. ولكن الحزن كان مستوليًا على المسيح بحيث أخذت قطرات العرق تتساقط منه لشدة إلحاحه وابتهاله في الدعاء). ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نيامًا من الحزن. (علمًا أن لوقا

يخفي هنا الحق ويقول أمرًا عجيبًا، بينما سجل مرقس الأمر الواقع صراحة إذ قال إن المسيح كان يرجع إلى تلاميذه مرة بعد أخرى لشدة الحزن فيجدهم نيامًا، فيقول لهم قوموا وصلّوا، ولكنهم مع ذلك لم يستيقظوا. ولكن لوقا خاف شماتة الأعداء، وفكر في نفسه ماذا سيقول الناس عن تلاميذ المسيح أنهم لم يستيقظوا من أجله في ذلك الوقت العصيب أيضًا رغم إيقاظه إياهم مرة بعد أخرى، فقال إن المسيح "وجدهم نيامًا لشدة الحزن." وكأن الإنسان – عند لوقا – ينام وقت الحزن، ويستيقظ ويصلي ويدعو عندما لا يكون في حزن ولا فزع؟) فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قُوموا وصلُّوا لئلا تدخلوا في تجربة" (لوقا ٢٢: ٣٩-٤٦).

لقد اتضح من هذه الفقرة أيضًا أن المسيح عليه السلام لم يرد أن يُصلَب، في حين أن كفارتهم إنما أساسها كله على زعمهم أن المسيح صُلب برغبته، فما دام المسيح لم يُصلب برغبته فكيف صار كفارة؟

يقول المسيحيون أحيانًا: ليس هناك من جبر وإكراه، لأن المسيح نفسه قال: "ولكن لتكُنْ لا إرادتي بل إرادتك". ولكنا نقول: صحيح أن المسيح لما رأى أن الله يريد صلبه في كل حال قال "ولكن لتكُنْ لا إرادتي بل إرادتك"، إذ لا يُتوقع من نبي أن يرفض شيئًا يريده الله تعالى؛ ولكن ألا يدل هذا أن المسيح لم يقدم الكفارة برغبته هو، والكفارة لا تصح برغبة الله، وإنما تصح إذا

تّمتْ برغبة مَن يصبح كفّارة وفداء. ولكن المسيح عليه السلام قال صراحة إني لا أريد أن أكون كفارة، وإن كان رضي بها فيما بعد حين لم يجد من ذلك بدًّا. فكان مثله كمثل مسافر يحاصره الصعاليك في فلاة، فيضع ماله في أيديهم ضاحكًا، لأنه يعرف أنه لو رفض قُتل؛ ولكن هذا لا يعني أبدًا أنه أعطاهم ماله برضاه ورغبته. فلا نقاش في أن الله تعالى أرغم المسيح على الصلب، وإنما السؤال هل تم الصلب بإرادة المسيح نفسه أم لا؟ إذا كان الصلب قد تم بإرادته عليه السلام فقد صار كفارة وإلا فلا. ولكن الفقرات المسجلة أعلاه تكشف بكل جلاء أن المسيح لم يرد أن يُصلب، إذن فكل العملية تمت بالجبر والإكراه، وهذا يبطل الكفارة تمامًا.

يقول بعض النصارى أن هذه الحالة للمسيح كانت مؤقتة وقد زالت فيما بعد. ولكي نعرف صدق هذا الادعاء أو كذبه نتوجه إلى الإنجيل نفسه لنرى حالة المسيح وقت الصلب. لقد حفظت جميع الأناجيل جملة واحدة للمسيح بالعبرانية صرخ بها لربه صرخة أليمة حين عُلّق، ودُقت المسامير في أيديه وأرجله، ألا وهي: "إيلي إيلي لما شبقتني" (متى ٢٧: ٤٦).. أي إلهي إلهي، لماذا تركتني؟ فما هي خطيتي التي من جرائها تخليت عني ولا تنظر إلي برحمة وتحنن.

إن ادعاءه هذا أيضًا يبين بكل وضوح أنه لم يُصلب برغبته، بل قد ظن في وقته الأخير أيضًا أن الله قد خذله، وألقاه في المحنة؛ وهذا يعني أنه لم يكن راضيًا بالصلب. وحيث إنه لم يكن راضيًا

بأن يصلب لا قبل حادث الصليب ولا وقت الحادث، ولم يكن جاهزًا لتقديم هذا القربان، فثبت أن صلبه لا يصلح لأن يكون كفارة.

هل كان المسيح بريئًا من إثم آدم؟

ثم لا يزال هناك سؤال آخر يجب الرد عليه: هل كان المسيح بريئًا من إثم آدم ليصير كفارة؟ ذلك أن نظرية الكفارة تقول أن الإنسان يستحيل عليه أن يكون طاهرًا، لأن آدم وقع في الإثم، وأن الإنسان من نسل آدم، والنسل يرث أباه، فلا بد لأولاد آدم أن يرثوا إثمه، ولا يمكن أن يتخلصوا من إثمه؛ وحيث إنهم لا يمكنهم أن ينالوا النجاة؛ ولما لم يكن بمقدور الإنسان الآثم أن يكون كفارة لآثم آخر، فكان لزامًا أن يكون ثمة كائن غير آثم يتقدم برغبته ليتحمل عقاب ذنوب الناس نيابة عنهم؛ وهذا الكائن هو المسيح الناصري الذي كان ابن الله، إذ حمل ذنوب الآخرين وصار كفارة عنهم بموته على الصليب.

هذه هي نظرية الكفارة. ولو ثبت الآن أن المسيح لم يكن بريئًا من الإثم لبطلت هذه النظرية كلية، لأن غير البريء من الإثم لا يمكن أن يصبح كفارة. يقول المسيحيون عن أنبياء الله الآخرين أنهم لم يكونوا بريئين من الإثم فلا يمكن أن يكونوا كفارة؛ فما كان لإبراهيم ولا لموسى ولا لداود - عليهم السلام- أن يكونوا

كفارة لأنهم أنفسهم كانوا آثمين، وليس بوسع الآثم أن يحمل وزر الآثم الآخر. ولكننا نجد الإنجيل يعلن أن المسيح نفسه لم يكن بريئًا من الإثم، إذن لم يكن بوسعه أن يحمل أوزار الآثمين الآخرين.

إن الدليل الذي تقدمه المسيحية على كون الإنسان آثما إنما هو أنه من نسل آدم الآثم فصار آثمًا مثل أبيه الآثم. ولكننا نقول: إن المسيح أيضًا كان من نسل آدم إذ كان ابن حواء، فهو الآخر آثم.

يقول المسيحيون أن الإنسان ورث الإثم من آدم، ولما كان المسيح من دون أب، فلم يرث إثم آدم. ولكننا نقول: إن الميراث يمكن أن ينتقل من الأب والأم كليهما. فمثلاً إذا كانت الأم مصابة بالزهري أو السل أو الصرع أو الجنون فيمكن أن ينتقل مرضها هذا إلى ابنها أيضًا، وهناك أمثلة كثيرة لذلك. فإن الفحص والتحري في أحوال الناس يكشف انتقال عيوب الوالدين الأخلاقية أو البدنية أو النفسية إلى أولادهم بالوراثة، ولا يرثها الأولاد من الأب فقط دون الأم، بل يرثونها من الأم والأب كليهما. فما دام المسيح من أولاد حواء، فقد ورث الإثم من أمه، وصار آثمًا كأناس آخرين، أيًّا كان أبوه. إنه لا يمكن أن ينجو من الإثم الموروث إلا إذا أثبت المسيحيون أنه لم يكن من أولاد آدم ولا حواء كليهما. وهناك إمكانية أخرى لبراءته من الإثم الموروث، وهي أن يثبتوا أن حواء لم ترتكب الإثم، إذ يقال عندها إنه لم يكن من نسل آدم الآثم بل كان من أولاد حواء التي لم تقع في الإثم.

ولكن الحق أن المسيح لا يمكن أن يُعَدّ بريئًا من الإثم في هذه الحالة أيضًا، إذ لو سلّمنا جدلاً أن حواء لم تقع في الإثم، وأن آدم وحده الذي وقع فيه، فمع ذلك لا ينجو المسيح من الإثم إلا إذا ولدته حواء نفسها. ولكن المشكلة أن المسيح لم تلده حواء، بل ولدته امرأة اسمها مريم التي جاءت بعد حواء بآلاف السنين، حيث مسّ خلالها أبناءُ آدم بنات حواء آلاف المرات، ونتيجة لهذا الاتصال بينهم والمتكرر لآلاف المرات جاءت آلاف الأجيال، حتى وُلدت مريم؛ فكيف، يا ترى، يمكن لمريم أن تظل بريئة من إثم آدم رغم كل هذه الاتصالات المتكررة بين أولادهما؟ لو أن مريم وُلدت من حواء مباشرة بدون أي فاصل بينهما، ثم لو كانت حواء بريئة من الإثم أيضًا، لجاز القول إن إثم آدم لم ينتقل إلى مريم، ولكنها ليست من أولاد حواء مباشرة، بل هي من بنات حواء اللواتي تلوثن بالإثم الموروث آلاف المرات، فكيف يمكن للتي تلوثت بالإثم الموروث من آدم أن تتسبب في براءة المسيح من الإثم؟

وليكنْ معلومًا أن حواء لم تكن بريئة من الإثم الذي في ارتُكب في البداية، بل كانت أشد إثمًا من آدم بحسب التوراة حيث ورد فيها:

"وكانت الحيّة أحيلَ جميعِ حيوانات البرية التي عملِها الرب الإلهُ. (علمًا أن الحية هي الشيطان في لغة التوراة). فقالت للمرأة:

أحقًّا قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ (وهذا يعني أن الشيطان لما ذهب إلى المرأة للإغواء، فلم يقل لها: سمعتُ أن الله قد نهاكما عن الأكل من شجرة معينة، بل قال لها: هل نهاكما الله عن كل شجر الجنة). فقالت المرأة للحية: مِن ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالمٌ أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَين الخيرَ والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجةٌ للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر؛ فأخذت من ثمرها وأكلتْ، وأعطت رجُلَها أيضًا معها، فأكل. فانفتحت أعينُهما، وعلِما أنهما عريانانِ. فخاطا أوراق تينٍ وصنَعا لأنفسهما مَآزِرَ.

وسمِعا صوتَ الربِ الإلهِ ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأتُه من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الربُ الإلهُ آدمَ وقال لـــه: أين أنت؟ فقال: سمعتُ صوتك في الجنة فخشيتُ لأني عريان فاختبأتُ. فقال: مَن أعلمَك أنك عريان؟ هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدمُ: المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ. فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلتِ؟ فقالت المرأة: الحيةُ غرّتْني فأكلتُ. فقال الرب الإله للحية: لأنكِ فعلتِ هذا، ملعونةٌ أنتِ من جميع البهائم ومِن جميع وحوش البرية. على بطنكِ

تسعَينَ، وترابًا تأكلين كلَّ أيام حياتك. وأضع عداوةً بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحَق رأسَك وأنت تسحقين عَقبَه. وقال للمرأة: تكثيرًا أكثّر أتعابَ حَبَلِك. بالوجَع تلدين أولادًا، وإلى رجُلك يكون اشتياقك وهو يسُود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا: لا تأكلْ منها، ملعونةٌ الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشَوكًا وحَسَكًا تُنبت لك، وتأكل عشبَ الحقل. بعَرَق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذتَ منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود" (التكوين ٣: ١-١٩).

هذه هي القصة التي ذكرها التوراة حول وقوع آدم في الإثم. إنها تكشف أن الشيطان كان في الواقع يقصد إغواء آدم وطرده من الجنة لظنه أن وجود آدم يهدد حكمه وسلطانه؛ أما حواء فما كان الشيطان يستشعر منها أي خطر. وكأن آدم هو الساكن الحقيقي في الجنة، وأما حواء فخُلقت بسبب آدم، كما دخلت الجنة بسببه أيضًا. فكان الهدف الأساسي للشيطان أن يغوي آدم، ولكنه لم يذهب إليه رأسًا، بل ذهب إلى حواء، وحثّها على أكل ثمر الشجرة، فجعلت آدمَ يأكل منه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا ذهب الشيطان إلى حواء مع أنه كان يريد إغواء آدم في الواقع؟ لم لم يذهب إليه رأسًا؟

والجواب أن الشيطان كان يعرف أنه لو ذهب إلى آدم لإغوائه مباشرة فلن يحقق هدفه لأن آدم لم يقع في خداعه، فذهب أولاً إلى حواء لمعرفته أنها ستقع في فخه بسرعة، فيسهل عليه إغواء آدم بواسطتها. ومن أجل ذلك نجد أن الله تعالى حين سأل آدم: "هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها"، أجاب آدمُ: "المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ".. أي أن المرأة التي أعطيتَني إياها هي التي غرّتني، حيث قلت في نفسي إنها عطية منك ولا يمكنها أن تخطئ، فأكلتُ من ثمر الشجرة بسببها. إذن فإن آدم أيضًا يؤكد أن المرأة هي التي غرّته، كما نجد أن الشيطان أيضًا ذهب إلى المرأة أولاً وأغواها.

لقد اتضح من هذا ما يلي:

أولاً- أن حواء هي التي ارتكبت الإثم أولاً.

ثانيًا - أنها كانت أضعفَ من آدم وأكثرَ عرضةً للغواية ومن أجل ذلك ذهب الشيطان إليها أولاً.

ثالثًا - أن المولودين من آدم وحواء كليهما سيكونون أقلَّ رغبة في الإثم ممن يولدون من حواء فقط. ذلك أن الناس قد ورثوا بعض الإثم من آدم وبعضه من حواء، والقاعدة أن اجتماع القوتين العالية والضعيفة ينتج إنتاجًا متوسطًا، ولكن الذين يولدون من حواء فقط، التي كانت أشد ميلاً إلى الإثم، ستكون ذريتهم أقرب إلى الإثم حتمًا. إذن فكان المسيح أقرب إلى الإثم من الآخرين

لكونه من ذرية حواء وحدها، فلا يمكن أن يكون كفارة للآخرين.

قد يقال هنا: إن الله تعالى قادر على أن يخلق الصالحين من بين الذين يولدون من حواء وحدها. ونحن نقول: إننا أيضًا نسلم بأن الله قادر على ذلك قدرة مطلقة، ولكن المشكلة أن الكفارة المسيحية ليست قائمة على قدرة الله المطلقة، وإنما أساس الكفارة عندهم أن الإنسان آثم بولادته وأنه قد ورث هذا الإثم من آدم. أما فيما يتعلق بقدرة الله فنحن المسلمين نؤمن بأن الله تعالى قادر على أن يخلق الصالحين من ذرية آدم أيضًا، بل إنه قد خلقهم من نسله فعلاً، كما أنه تعالى قادر على أن يخلق الصالحين من بين أولاد حواء الآثمين. ولكن المسيحيين يعتقدون أن أولاد الآثم لا يمكن أن يكونوا صالحين أبدًا، فما دامت هذه عقيدتهم، فلا حاجة لمناقشة قدرة الله على خلق الصالحين من ذرية الآثمين؟ فلو قالوا إن أولاد حواء أيضًا يمكنهم أن يكونوا صالحين، لقلنا في الجواب: إن الله تعالى قادر على أن يخلق الصالحين من ذرية آدم كذلك. فلا داعي إذن إلى القول بالإثم الموروث، ولا حاجة إلى أي قربان من قِبل ابن الله كفارةً عن الآثمين، وهكذا فإن بناء الكفارة كله ينهار تمامًا في لمح البصر.

على المسيحيين أن يعترفوا ببساطة أن الله قادر على أن يخلق الصالحين من أولاد الآثمين، ولكنهم إذا اعترفوا بهذا لصالح أولاد

حواء، ولم يعترفوا به لصالح أولاد آدم، فهو أمر غير معقول. إن السؤال الحيوي هو: هل الله قادر على خلق الصالحين من بين أولاد الآثمين أم لا؟ فإذا كان قادرًا على خلق الصالحين من أم آثمة، فإنه قادر أيضًا على خلق الصالحين من أب آثم، أما إذا لم يكن قادرًا على خلق الصالحين من أب آثم، فلا بد لنا من الإقرار بأنه غير قادر على خلق الصالحين من أم آثمة.

إذن فإذا أمكن أن يُخلق المسيح من أم آثمة فيمكن أن يُخلق الصالحون الآخرون أيضًا، بل يمكن أن يُخلق منهم من هم أكثر صلاحًا من المسيح لأنهم يحملون الجينات من الأب والأم كليهما.

لقد سبق أن ذكرتُ شيئًا من الحوار الذي جرى بيني وبين القسيس الذي صار فيما بعد عميدًا للكلية التبشيرية بسهارنبور، وكان اسمه wood على ما أظن، وأذكر لكم الآن بقية هذا الحوار.

لقد قلت لـــه: أخبِرني ماذا سيحصل لو مزجت بين الماء الحار والماء البارد؟ قال: سوف تخف برودة الماء البارد قليلاً، كما ستقل حرارة الماء الحار قليلاً، ليصبح الماء الممزوج فاترًا؟ قلت: أخبِرني الآن: هل ذهب الشيطان أولاً إلى آدم أم إلى حواء؟ قال: إلى حواء. قلت: هل كان الشيطان يهدف لإغواء حواء أم إغواء آدم؟ قال: إغواء آدم. قلت: إذا كان هدفه إغواء آدم فلم لم يذهب إليه رأسًا؟ ما الداعي لهذا اللف والدوران؟ قال: لأنه ظن أن حواء أضعف من آدم وإغواءَها أسهل، وبعد إغوائها لن يحتاج إلى إغوائه

لأنها ستغويه تلقائيًّا. قلت: هذا يعني أن حواء كانت أضعف من آدم؟ قال: نعم. قلت: إذا كانت حواء أضعف من آدم، وهي التي وقعت في الإثم أولاً، وهي التي قامت بإغوائه أيضًا، فكيف يمكن أن يكون الكائن الذي وُلد منها وحدها بريئًا من الإثم؟ أرجوك أن تضع في حسبانك مثال الماء البارد والماء الحار، ولنَقُلْ إن آدم مثله كمثل الماء البارد، وأن مثل حواء كمثل الماء الحار، ولن يكون إثم ذريتهما مثل إثم الذين هم ذرية حواء وحدها، فلا بد أن يكون المسيح المولود من حواء وحدها أكثر إثمًا من الآخرين.

فقال القسيس على ذلك: ألا يخرُج الذهب من التراب؟ قلت: هذا هو أصل النـــزاع بيننا وبينكم. إذا كان خروج الذهب من التراب ممكنًا، فمهما قلتم بإثم آدم، إلا أنه لا بد لكم من الاعتراف بإمكانية خروج الصالحين من أولاده، ولن يكونوا بالضرورة آثمين.

فلما أفحمته بهذا الدليل قال: لا يخرج الذهب من التراب، وإنما يخرج الذهب من الذهب؛ ولأن آدم آثم فلا بد أن يكون أولاده أيضًا آثمين، ولن يكونوا صالحين، لأن الذهب يخرج من الذهب. فقلت: فلا بد إذن من الاعتراف بكون ابن حواء أكثر إثمًا من غيره، لأنها كانت أكثر إثمًا من آدم؛ فهي التي أكلت ثمر الشجرة الممنوعة، بل أطعمت آدم إياه، وهكذا صار إثمها مزدوجًا. فقال مبهوتًا: لا يخرج الذهب من معدن التراب، بل المعدن معدن التراب، ولكن قد يخرج منه الذهب. قلت: فلم لا تعترف بذلك

بصدد آدم، وتقول إن خروج الصالحين البريئين من جميع العيوب من بين أولاده، رغم إثمه، لممكن.

فلم يبق بعد ذلك أمام المسيحيين إلا أن يقولوا: إن المسيح بريء من جميع أنواع الإثم لأنه ابن الله، ولا مجال لأن ينتقل الإثم الموروث إليه، أو أن يكون أقل إثمًا أو أشده لكونه من نسل حواء وحدها. وكأنهم يقولون: إن المسيح لم يكن بريئًا من الإثم لكونه من بطن مريم وحدها، بل لكونه ابن الله تعالى.

ونحن نقول: إذا كانت ولادة المسيح من دون أب خاليةً من أي حكمة، وإذا كان هو ابنَ الله حقيقة وأسمى من تأثير إثم آدم أو حواء ولو وُلد من أم فقط، فلماذا ظلمه الله تعالى هذا الظلم العظيم إذ خلقه خلقًا جلب عليه الخزي والعار من كل الدنيا، حيث جعله عرضة لأن يقول الناس عنه في مجالسهم إنه ليس ابن الحلال. إذا كان بريئًا من الإثم في كل حال، وأسمى من أن يتأثر من إثم الأب أو الأم، فما الداعي لخلق كل هذه المشاكل له، ولماذا آذى الله مريم والمسيح بتعريضهما لهذه التهمة البشعة. لقد كان ابن الله بالتالي بريئًا من كل عيب وإثم، فكان الأولى أن يخلقه الله من أب وأم حتى يظل بريئًا من الإثم بقدرته، ولا يُتّهم بكونه ولد الحرام.

قد يقول المسيحيون هنا: إنكم أيضًا تؤمنون بولادة المسيح بدون الأب، معرضّين إياه لتهمة الأعداء، وفي نفس الوقت ترفضون فكرة الكفارة المسيحية أيضًا؟

والجواب أن الحكمة في ولادة المسيح من دون أب عندنا هي أن الله تعالى كان وعد إبراهيم ببعثة نبي بعد نبي من بين أولاده وبقاء ملكوت الله فيهم ما دامت السماوات والأرض؛ ثم جدد الله هذا الوعد على لسان الأنبياء بعده على التوالي. وقد تحقق هذا الوعد لقرون طويلة بدون انقطاع حتى تجاسرت أمة موسى وأيقنت أنه مهما حدث فإن الله تعالى لن يتخلى عن ذرية إبراهيم، وأن النبوة والسيادة لن تخرجا عن أمة موسى. فلم ينفع اليهودَ إنذارُ الأنبياء مثل إرميا وغيره، فكلما جاءهم نبي وقدّم لهم تعليمه كفروا به مستهزئين ساخرين، وظانين أن الله تعالى قد منحهم هذه النعمة للأبد. فأخبرهم الله تعالى على لسان بعض أنبيائه أن عذراء ستلد ابنًا (إشعياء ٧: ١٥، ومتى ١: ٢٣).. بمعنى أن ذلك الموعود سيكون نصفه من بني إسرائيل ونصفه لن يكون منهم. وتحقق هذا النبأ في شخص المسيح إذ وُلد من غير أب، وكان هذا تحذيرًا لليهود أن نصف النبوة قد نــزعت منهم - لأن النسب إنما يكون من قبل الأب - فإن لم يرتدعوا بعد ذلك عن الرفض والإنكار فإن النبي القادم لن يكون من بني إسرائيل إطلاقًا، لا من قبل أبيه ولا أمه، وإن كان من بني إبراهيم. وهذا ما حدث بالضبط.

لقد كان لإبراهيم وعود كبيرة من الله تعالى، ولم يرد ﷻ أن يحرم اليهود بركاتِ هذه الوعود بدون سبب، فبعث فيهم نبيًّا بعد نبي. فلما تواتر بعث الأنبياء من بينهم لمدة طويلة أيقنوا أنه يستحيل أن تنتقل النبوة إلى غير بني إسرائيل. فأنذرهم الله على لسان بعض أنبيائه إنذارًا شديدًا كان لا بد أن يرجعوا بعده إلى صوابهم لو كان فيهم مثقال ذرة من الإيمان، ولأدركوا أن شيئًا ما واقع حتمًا جراء شرورهم. ولكنهم لم يكترثوا لذلك الإنذار بل أصروا على شرورهم إصرارًا. فبعث الله المسيح وفق إنذاره وجعله من دون أب، محذرًا اليهود: ها قد نـــزعتُ نصف النبوة منكم، وسوف أنـــزع نصفها الباقي إذا لم ترتدعوا عن شروركم. فإن النبي الذي بعثته الآن هو منكم من قبل أمه فقط، ولكن ليس لـــه أب منكم، ولكن النبي القادم لن يكون من بني إسرائيل إطلاقًا، وإن كان من بني إبراهيم. وبالفعل بعث الله تعالى نبينا محمدًا رسول الله ﷺ الذي كان من بني إسماعيل، وانقطعت النبوة من بني إسرائيل للأبد.

إذن فلا اعتراض على إيماننا بأن المسيح كان بلا أب، لأن فيه حكمة بالغة، ولكن السبب الذي يذكره المسيحيون لولادته بدون أب فهو مرفوض عندنا، لأنه لا يبرئ ساحة المسيح من الإثم، بل يجعله أكثر إثمًا من غيره؛ وهكذا تبطُل فكرة الكفارة تمامًا.

هل كفّر المسيح عن ذنوب الدنيا؟

وهناك سؤال هام آخر بصدد الكفارة وهو: هل صلبُ المسيح يمكن أن يصبح كفارة عن ذنوب الدنيا حقًّا؟

والجواب أننا لو سلّمنا جدلاً بما يقوله الإنجيل عن حادث الصليب، فمع ذلك نرى أن المسيح لم يقدم أي قربان في الحقيقة، إذ يتضح لنا من الإنجيل أن المسيح لم يبق في القبر إلا يومًا ونصفه أي حوالي ٣٦ ساعة فحسب، حيث وقع حادث الصليب بعد ظهر يوم الجمعة، وقام المسيح صباح يوم الأحد (انظر مرقس ١٦). ولنفترض أن العقيدة المسيحية ببقاء المسيح في جهنم ليوم ونصفه صحيحة، بيد أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف صار بقاء المسيح في جهنم ليوم ونصفه كفارةً عن ذنوب الدنيا، بالرغم أن جهنم عند المسيحيين أبدية، وأن كل من يلقى فيها سيمكث فيها إلى الأبد؛ وذلك على عكس عقيدتنا نحن المسلمين، حيث نؤمن بأن الله تعالى سيعفو عن أهل النار أيضًا بعد فترة، وذلك لقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿فأُمُّه هاوية﴾(القارعة: ١٠).. أي أن جهنم هي بمنـــزلة رحم الأم، فكما أن الجنين يخرج من الرحم بعد بقائه فيه لفترة، كذلك سيخرج أهل جهنم بعد مكوثهم فيها لمدة من الزمن، وسيُدخلهم الله في الجنة في آخر المطاف.

فمن جهة، ترى المسيحية أن الجحيم أبدية، وأن من دخل فيها لن يخرج منها أبدًا، ومن جهة أخرى نجد أن عدد المؤمنين بالمسيح

في العالم كله يصل مئات الملايين؛ إذ يبلغ عددهم في هذا العصر وحده قرابة سبعمائة مليون. فلو أن هؤلاء السبعمائة مليون شخص دخلوا النار، وبقوا فيها إلى الأبد، فيمكن أن تقدروا طول فترة هذا العذاب. وهذا يخص المسيحيين المعاصرين فقط، أما إذا أخذنا في الحسبان كل المسيحيين في جميع العصور فلن نستطيع إحصاء هذه المدة بالأرقام.

ولنفترض أن معدل عمر جيل واحد من الناس هو ثلاثون عامًا.. أي هناك ثلاثة أجيال في كل قرن، وأن معدل عدد المسيحيين الذين وُجدوا على مرّ العصور هو مائة مليون مسيحي في كل جيل - إذ كانوا في البداية قلة، ثم بلغوا عشرات الآلاف، ثم مئات الآلاف، ثم الملايين حتى وصل عددهم اليوم سبعمائة أو ثمانمائة مليون - ولنفترض أنه قد خلا حتى الآن ٥٧ جيلاً من المسيحيين؛ فإذا ضربنا ٥٧ في ١٠٠ مليون صار المجموع ٥٧٠٠٠٠٠٠٠٠ (خمسة مليارات وسبعمائة ميلون)؛ والآن لو ضربنا عذاب خمسة المليارات وسبعمائة المليون مسيحي في الأبدية لعجزنا عن تحديد هذا الزمن بالأرقام. وهذا يعني أن المسيح لو لم يقدم الكفارة عن ذنوب الدنيا لمكث خمسة المليارات وسبعمائة المليون مسيحي في الجحيم إلى أبد الآباد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول المسيحيون أن الله تعالى أبقى المسيح في جهنم ليوم ونصف فقط مقابل العذاب المؤبد لكل هؤلاء الناس الذين يقدر

عددهم بخمسة مليارات وسبعمائة مليون نسمة. ومع ذلك يقولون أن الله تعالى عادل! فهل من العدل أن يُعفى خمسة مليارات وسبعمائة مليون من العذاب الأبدي ببقاء المسيح في العذاب ليوم ونصفه فقط؟ إذا كان الأمر يخص الآخرين قرر الله عذابهم في الجحيم إلى أبد الآبدين، وحين خص الأمر ابنَه أخرجه الله من الجحيم بعد يوم ونصفه فقط، وقال: هذا يكفي كفارة عن ذنوب كل هؤلاء!

إن قصة "العدل الإلهي" هذه تماثل قصة "نور جمال" الشهيرة في بلادنا. يحكى أن أطفالا أشرارًا كانوا يلعبون خارج القرية، فرأوا حمارًا ميتًا، فقالوا فيما بينهم: تعالوا نطبخه ونأكله، ولا بأس إن كان لحمًا حلالاً أم ميتةً، فإنه لحم على كل حال. فطبخوه وأكلوه. وعندما وصل الخبر إلى أهل القرية شعروا بالذعر واستنكروا الأمر، فسارعوا إلى شيخهم وقالوا: لقد قامت القيامة، فقد أكل أولادنا لحم حمار ميت، ونخاف أن يحل بنا العذاب. قال الشيخ: لا شك أنها معصية كبيرة ولا بد من كفارة تؤدونها فورًا، وإلا أحاط بكم العذاب. فزادهم الشيخ خوفًا على خوف. فقالوا: أخرِجْنا، يا شيخ، من هذه الورطة وإلا سنهلك جميعًا. قال: حسنًا، سأنظر في الكتب ثم أخبركم. فلم يزل يتصفح كتب الفقه طيلة اليوم، ثم قال لهم في المساء: لقد وجدت الحل. فقد ورد في الكتب أن كفارة هذه المعصية أن يُنصب عمود، ثم يوضع حوله

الخبز حتى يختفي بين أكوام الخبز، ثم يُتصدق بالخبز في سبيل الله تعالى. وكان عادتهم أنهم إذا أخرجوا شيئًا في سبيل الله تعالى قدّموه للشيخ، فكان غرضه من هذا أن يعطوه كل هذا الخبز، ليأكل منه ما يأكل، ويبيع الباقي. وكانت القرية صغيرة فقيرة، فلما سمعوا قوله سُقط في أيديهم، وقالوا لــــه: نحن لا نقدر على أداءِ هذه الكفارة. قال: فستدخلون النارإذن، هكذا ورد في كتب الفقه. فاجتمعوا للمشورة ثانية، وفيما هم يتشاورن إذ قال أحد الأولاد: إن ابن الشيخ "نورجمال" أيضًا قد أكل معنا. قالوا: حقًّا؟ قال: نعم. فقالوا: تعالوا نخبر الشيخ لعله يجد لنا الآن حلاً آخر أسهل. فأتوه وأخبروه أن ابنك "نور جمال" أيضًا قد أكل من لحم الحمار الميت. فقال الشيخ في نفسه إنه هو الآخر سيضطر الآن لدفع الكفارة، فقال: حسنًا، فسأرى في الكتب ثم أخبركم. فتصفح الكتب وقال لهم: أبشِروا، فقد وجدت الحل وهو أنكم إذا كنتم لا تستطيعون العمل بالحل الأول، فيكفيكم أن تلقوا العمود على الأرض ويضع كل واحد منكم عليه رغيفًا واحدًا، ثم يُتصدق بهذا الخبز فقط!

ألا تماثل قصة "العدل الإلهي" هذه قصةَ "نور جمال"؟ فعندما كان الأمر يخص العبادَ قال الله تعالى: لا بد لهؤلاء خمسة المليارات وسبعمائة المليون أن يبقوا في العذاب إلى الأبد، ولكن حين خص

الأمر ابنَه قال تعالى: يجب ألا يبقى في العذاب إلا ليوم ونصفه، فهذا يكفي كفارةً عن ذنوب كل أهل الدنيا.

ولكن الدنيا لم تفنَ بعد، ولو كُتب لـــها البقاء لألف سنة أخرى أو نصفها لازداد عدد النصارى في هذه المدة - رغم اندحار المسيحية أمام ازدهار الأحمدية إن شاء الله تعالى - بحوالي أربعة مليارات. وعندما يثار السؤال عن كفارة ذنوب هذا العدد الضخم من البشر يقال أنها قد تمت ببقاء ابن الله في الجحيم ليوم ونصفه، ولا يقدح ذلك في عدل الله وإنصافه!

فليضعوا هذه القضية أمام أي شخص عاقل، بدون أي ذكر للمسيح أو الله، ويقولوا لـــه فقط: كان على شخص دَينٌ قدرُه مائة وخمسون ألف دينار، فطالبه الناس بتسديده فلم يستطع. فرُفعت القضية إلى المحكمة. فقال للقاضي: أرجوك إعفائي من هذا الدين، فقال القاضي: لا أستطيع ذلك، لأن هذا يخالف العدل، ولا بد من عقابك. ثم دعا القاضي ابنَه وقال له: أعطِ هؤلاء القوم دينارًا ونصفه مكان دينهم. فلما دفع إليهم ابنه دينارًا ونصفه قال لهم القاضي: قد تم سداد كل الدَّين الذي كان لكم عليه. فهل من عاقل في الدنيا يعتبر القاضي مصيبًا في حكمه؟ كلا، بل سيقول الجميع إن القاضي ليس خائنًا غير عادل فحسب، بل إنه خدّاع ومكّار وظالم أيضًا، إذ أخذ من ابنه دينارًا ونصف دينار ودفعه لأصحاب المال قائلا: ها قد دُفع لكم مالكم كله.

وهذه هي بالضبط فكرة الكفارة المسيحية أيضًا. إنها تزيد الاعتراض على الله تعالى بدلاً من أن تدفعه عنه، وإن لعبة إلقاء ابنه في الجحيم، ولو ليوم واحد، لا تدل على أن الله عادل، بل تثبت أنه ظالم، بل خداع ومكار أيضًا. فما الداعي إذن لهذه اللعبة؟

قد يقول هنا النصارى: هناك بون شاسع بين الله والعبد، فلا غرابة في أن يساوي العذاب الذي ذاقه ابن الله في يوم ونصفه العذابَ الذي كان على الناس أن يذوقوه في الجحيم الأبدية.

والجواب: إذا كان بين الله وبين العباد بونًا شاسعًا لا حد لـــه، كما يعترفون، فالظاهر البديهي أن تحديد هذا البون الشاسع مستحيل على البشر، لأن تقدير الأشياء غير المحددة خارج عن نطاق العقل الإنساني، فإن التقدير إنما يتم عن الشيء المحدود الذي تكون معرفته داخل نطاق القدرة الإنسانية. فاعتقادهم – رغم هذا البون الشاسع بين الله والعباد – أن العذابَ الأبدي الذي كان على خمسة مليارات وسبعمائة مليون مسيحي أن يذوقوه في الجحيم الأبدية، قد ذاقه "الإله" في يوم ونصفه فقط، فصار كفارة لهم، يساوي القول أنهم قد عرفوا بالتحديد المدة التي يذوق فيها الإله عذابًا يذوقه العباد في فترة لا نهاية لها. فكيف عرفوا ذلك، يا ترى، رغم البون الشاسع بين الله والعباد؟ الحق أنه لا يصح في هذه الحالة إبقاءُ الإله في الجحيم لدقيقة بل لواحد من مليون جزء من الدقيقة، بل إلى لمح البصر أو هو أقرب. ذلك لأن الأمر هنا

يخص العبادَ ذوي القدرات المحدودة والإلهَ ذا القدرة المطلقة؛ فتحديدهم قوى الإله ذي القدرات غير المحدودة قياسًا على قوى الإنسان ذي القوى المحدودة لأمر مناف للعقل والمنطق تمامًا. فمن أين جاءوا بهذا الحل؟ وكيف عرفوا بقواهم المحدودة أن الإله ذا القوى غير المحدودة ذاق في يوم ونصفه ذلك العذابَ الذي كان على ملايين الملايين من الناس أن يذوقوه في ملايين الملايين من السنين؟

من الذي دخل الجحيم؟

ثم هناك سؤال آخر: من ذا الذي دخل الجحيم: "ابن الإنسان" أم "ابن الإله"؟ فلو قالوا إن ابن الإنسان هو الذي دخل الجحيم لكان أمرًا مفهومًا، لأن نفس ابن الإنسان كانت مخلوقة من الجسم، ومتعلقة بالجسم، ودخلت في الجحيم أيضًا. ولكن المشكلة أنه لم تكن ثمةَ نفس بشرية في المسيح بحسب اعتقادهم. لا شك أن جسده كان جسدًا إنسانيًّا، ولكن النفس التي تحل فيه هي ابن الله. فكان "ابن الله" يسمى ابنَ الإنسان ما دام مقيدًا في الجسد الإنساني، ولكنه بمجرد أن تحرر من قيد الجسد بالموت على الصليب صار إلهًا على الفور، فإذا صار إلهًا لم يعد لدخوله في الجحيم معنى ولا قيمة. هل الإله أيضًا يحس البرد والحر ويتأذى من شدتهما. إن النفس الإنسانية هي التي تتأذى بالحر إذا دخلت الجحيم، وتحس بالبرد لو أُسكنت في المكان البارد، ولكن ما معنى

الحر والبرد بالنسبة لابن الله الذي هو إله؛ فهو الذي خلق الجنة والنار، فلا الجنة تجلب لـــه الراحة، ولا النار تسبب لـــه الأذى. ورد في الحديث أن الله تعالى سيُدخل قدمه في النار فتبرد*، لأن النار ليست بشيء إزاء الله تعالى.

فإذا كان المسيح ابنَ الإنسان وكانت فيه نفس إنسانية فإن الإله ما دخل النار إطلاقًا، بل الإنسان هو الذي دخلها؛ وأما إذا كانت في المسيح نفسُ ابنِ الله، فبمجرد أن انفصلت نفسه من قيد الجسد بالموت صارت إلهًا، ونفس الإله لن تتأذى شيئًا ولو ألقوها في الجحيم. طبعًا لم تكن في المسيح نفسانِ: نفس للإنسان ونفس للإله، إنما كانت فيه نفس واحدة هي نفس ابن الله؛ فلما تحررت تلك النفس من قيد الجسد لم تعد الجحيم بالنسبة لـــها جحيمًا، ولم تسبب لـــها شيئًا من العذاب ولو ألقوها فيها، لأنها أسمى من الأحاسيس المادية، ولا تؤثر فيها الجنة ولا النار.

أحيانًا يردّ النصارى على ذلك في فزع: إنه كلام مجازي تأخذونه مأخذ الحقيقة عبثًا.

---

* ورد في الحديث: "عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: تحاجَّتِ النارُ والجنة، فقالت النار: أُوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطُهم وعجَزُهم. فقال الله للجنة: أنتِ رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي؛ وقال للنار: أنتِ عذابي، أعذّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكم ملؤُها. فأما النار فلا تمتلئ فيضع قدمَه عليها فتقول: قَطْ قَطْ. فهنالك تمتلئ ويُزوَى بعضُها إلى بعض" (مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها). (المترجم)

ونحن نقول: إذا كان هذا الكلام مجازًا لا حقيقة فلماذا تبنون على المجاز عقائد جديدة غريبة، فهذا أيضًا يُبطل كفارتكم. ذلك أن هذا الكلام إذا كان عندكم مجازًا واستعارة، فلا يحق لكم أن تبنوا عليه عقائد جديدة عجيبة ثم تدْعوا الناس إلى الإيمان بها. فمثلاً لو قلنا عن شخص إنه أسد، فقال لنا السامع: أين ذنبه وبراثنه، فنجيبه: لقد سميناه أسدًا على سبيل الاستعارة، ولكنك لم تفهم هذه الاستعارة، وظننت أننا سميناه أسدًا في الحقيقة، فلا يحق لنا بعد ذلك أن نسميه أسدًا على سبيل الحقيقة. وبالمثل، إذا قال المسيحيون إن هذا الكلام مجاز فلا بد لهم بعد ذلك من الاعتراف بأن المسيح قد سمي ابن الله على سبيل المجاز، وبالتالي لم يكن بوسعه أن يحمل ذنوب الآخرين، ولا أن يبقى في الجحيم ليوم ونصفه، بل إن كل هذه الأمور باطلة ولا تمتّ إلى الحقيقة بصلة على الإطلاق.

والآن نتوجه إلى سؤال آخر وهو: لنفترض أن الكفارة المسيحية أمر ممكن، وأن المسيح ابن الله، ولكن علينا أن نرى هل قدم المسيح فعلاً تلك التضحية التي يصير بها كفارة أم لا؟

إن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي بحسب ما ورد في الإنجيل. فإن المسيح لم يمت على الصليب، و لم يقدم ذلك القربان الذي يصير به كفارة عن ذنوب الناس. والواقع أن نـــزول المسيح من الصليب حيًّا لحقيقةٌ فيها موت المسيحية، أعني لو ثبت أن

المسيح قد نــزل من الصليب حيًّا لبطلت المسيحية تمامًا، ولو ثبت أن المسيح قد مات بعد حادث الصليب موتًا طبيعيًا لبطلت كل العقائد الخاطئة التي هي شائعة بين الفرق الإسلامية. فنــزول المسيح من على الصليب حيًّا يقضي على المسيحية، وموته الطبيعي يقضي على الشرك والإلحاد الشائعين بين المسلمين. فلو ماتت المسيحية لصار الإسلام حيًّا ثانية، ولو قُضي على الشرك والإلحاد لعادت الحياة للإسلام أيضًا.

إنجازان عظيمان للمسيح الموعود عليه السلام

وقد أنجز سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هاتين المهمتين كلتيهما. فمن جهة، قد أنقذ المسيحَ الناصري عليه السلام من الموت الصليبي، وبالتالي من اللعنة، قاضيًا على المسيحية، ومن جهة أخرى قد أنقذ الإسلام من الشرك والإلحاد الشائعين بين المسلمين بإثباته أن المسيح قد مات موتًا طبيعيًّا؛ ذلك أن نبي الله عيسى عليه السلام الذي لم يستفض من فيوض محمد رسول الله ﷺ، ولم يستفد من دينه، ولم يقتبس من قبسه، ستكون بعثته في ملة الإسلام إهانة – حاشا لله – لنبينا الكريم ﷺ، بل إن مجيئه لهو تدمير لكل ما أنجزه ﷺ. فقام سيدنا المسيح الموعود ﷺ بشن هجومين قضى بهما على المسيحية وعلى الشرك والإلحاد. فبالهجوم الأول أحيا المسيح الناصري ليقضى به على المسيحية، وفي الهجوم الثاني أمات المسيح ليقضى به على الشرك والإلحاد. وذانك إنجازان عظيمان ستذكرهما الدنيا

إلى يوم القيامة. ولكن المؤسف أن جماعتنا لم تدرك أهميتهما بعد و لم تولهما العناية الكافية. ذلك أن الأمور الأخرى التي بينها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام - من قبيل أين ذهب المسيح عليه السلام بعد حادث الصليب - فهي أدلة جانبية، أما القضية الجوهرية فإنما هي نـــزول المسيح الناصري عليه السلام من الصليب حيًّا. فلو ثبت أن المسيح عليه السلام كان قد نـــزل من الصليب حيًّا فقد ماتت المسيحية.

وهذه حقيقة قد اعترف بها المسيحيون أنفسهم. فقد قال Mr Criltondon، سكرتير عام زمالة الجامعات بلندن، (inter university fellowship of London) في خطاب ألقاه في مسجد فضل بلندن يوم ١١ مارس ١٩٥٦ ما يلي:

"إذا صحّت النظرية التي تقدمها الجماعة الإسلامية الأحمدية حول وفاة المسيح فلا بقاء للمسيحية. ذلك أن المسيح إذا كان لم يمت على الصليب حقًّا لم يعُدْ للمسيحية أساس تقوم عليه، ولا بد، والحال هذه، أن ينهار صرحها كله ويستوي بالأرض" (جريدة "الفضل" ٢٧ نوفمبر ١٩٥٦ ص ٤ عمود ١١).

المسيح الموعود يكون من أمة المصطفى ﷺ

فإذا ثبت أن المسيح عليه السلام قد مات موته الطبيعي فقد قُضي على الشرك والإلحاد من بين المسلمين، وبطُل كل ما نسجوه بخيالهم من القصص الواهية، وبطلت كل العقائد الفاسدة التي شاعت بينهم

منذ زمن طويل. ذلك أن المسيح إذا كان قد مات ميتة طبيعية فإن المسيح الموعود مجيئه لا بد أن يُبعث من بين أمة المصطفى ﷺ، وبالتالي تتراءى للإسلام والمسلمين غاية عظيمة ينشدونها. ذلك أن الأمم التي تفقد الأمل تموت حتمًا، ولكن الأمم التي لا تفقد الأمل لا تفنى أبدًا، فكلما أوشكت على الانهيار لمعت لها بارقة أمل وساندتها، ونفخت فيها روح الحماس والنهوض ثانيةً؛ فتقول في نفسها: لا داعي لليأس والقنوط، فلا تزال أمامنا الفرص الكثيرة للوصول إلى الدرجات العلا. ولكن الأمة التي تفقد الأمل تموت للأبد.

فثبت من ذلك أن المسيح الموعود عليه السلام قد قام بإنجازين بارزين: أولهما أنه قضى على المسيحية بإثباته أن المسيح الناصري عليه السلام كان حيًّا حين أُنــزل من على الصليب، وثانيهما أنه أنقذ المسلمين من الشرك والإلحاد بإثباته وفاة المسيح بحسب آيات القرآن الكريم. فما أروع هذا الكلام الذي يشبه الشعر بأن المسيح الموعود عليه السلام أحيا المسيح وقضى على المسيحية، وأمات المسيح وأحيا الإسلام. ذلك أن أساس المسيحية إنما هو على موت المسيح على الصليب، فلو ثبت أنه لم يمت على الصليب، بل ظل على الصليب حيًّا وأُنــزل منه حيًّا لبطلت الكفارة المسيحية.

إذن فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل مات المسيح على الصليب أم لا؟ وهل بالفعل قدّم الفداء الذي صار به كفارة عن

ذنوب الناس؟ يتضح لنا من الإنجيل أن المسيح لم يمت على الصليب، كما لم يقدم ذلك القربان الذي يُسمى الكفارة.

لو درسنا الإنجيل بتدبر لانكشف علينا أن المعجزة الحقيقية للمسيح عليه السلام التي تفتخر بها المسيحية، والتي نراها مميزة بارزة بين الآثار المسيحية الأولى إنما هي معجزته المشابهة بمعجزة يونان النبي (يونس عليه السلام). لقد ظل المسيحيون ضعفاء لمدة طويلة بعد حادث الصليب، فكانوا يفرّون من بلد إلى آخر، ويعيشون على العموم في الخفاء، لأن الناس كانوا يصبّون عليهم أنواع الظلم والاضطهاد. فعلاوة على الظلم الذي لاقوه في بداية أمرهم على يد اليهود في فلسطين فإنهم أُوذوا فيما بعد من قِبل الشعوب المشركة ولا سيما الرومان. ذلك أن المسيحي ما كان يمتنع من قوله إن المسيح ملكُ العالم، ولكن ما إن تخرج هذه الكلمة من فمه حتى يستشيط الروماني غضبًا ويعتدي عليه. وكانت المظالم اليهودية قد خفّت في تلك الحقبة من الزمن. بل يتضح من بعض الآثار القديمة أن المسيحيين حين كانوا يختفون في بعض المخابئ كان اليهود أيضًا يختفون معهم فرارًا من عدوان الرومان، إذ كانت اليهودية والمسيحية ديانتين متماثلتين، ولم يكن المسيحيون قد ابتعدوا بعدُ عن الشرع الموسوي كما هم اليوم، بل كانوا يسعون جاهدين للعمل به. فكان مثل الفريقين إذاك كمثل المسلمين الأحمديين وغيرهم من المسلمين؛ حيث نصلّي كما يصلّون، ونصوم كما

يصومون، ونحجّ كما يحجّون، ونقرأ القرآن كما يقرءون؛ ولو أن أحدًا نظر إلى الفريقين بادئ الرأي، دون النظر إلى الاختلاف العقائدي الموجود بينهما، لقال لا فرق بين المسلمين الأحمديين وغيرهم من المسلمين. وبالمثل كان المسيحيون يؤمنون بالتوراة مثل اليهود، ويُخرجون الصدقات مثلهم، ويؤمنون بضرورة العمل بوصايا التوراة كما كان اليهود يرونه ضروريًّا. فبسبب اشتراك الفريقين في العمل بالشرع الموسوي، كان الرومان إذا ثاروا ضد النصارى اضطهدوا معهم اليهود أيضًا معتبرين الفريقين فريقًا واحدًا. فكان النصارى في أول أمرهم مضطهَدين من قبل اليهود فقط، ولكن الوضع تغير فيما بعد، حيث اضطهد الرومان كلا الفريقين دون التمييز بين مسيحي ويهودي. فكان اليهود أيضًا يختبئون مع النصارى فرارًا من الاضطهاد الروماني، كما تدل على ذلك الآثار الموجودة في روما.

وإنني أشيد بعزيمة المسيحيين الأوائل إذ ركّزوا على التبشير تركيزًا كبيرًا على الرغم من المعارضة الشديدة من قبل الرومان، والاضطهادِ الذي لاقوا من قبل الحكومة أيضًا. فكانت لهم في الإمبراطورية الرومانية مراكز كبيرة للتبشير، وبسبب تبشيرهم كان الرومان يعارضونهم ويظلمونهم ويسلبونهم أموالهم وعقاراتهم. ولكن الظلم لا يدوم طويلاً، فكانوا يؤذونهم لفترة ثم يُخلون سبيلهم، مثلما يحدث في الهند في هذه الأيام حيث يثور الهندوس

في منطقة ما، فيضطهدون المسلمين بينهم، ثم يسود الهدوء ثانية، ثم يعتدون على المسلمين في مكان آخر لفترة ثم يسكتون. وكان من مراكز المسيحيين الكبيرة روما وإنطاكية والإسكندرية. فكان القسيسون في هذه المراكز التبشيرية الثلاثة يتعرضون لعدوان العدو الذي كان يغتالهم، أو يصيبهم بالجراح. ونتيجة لهذه الاعتداءات المستمرة كان المسيحيون يختفون أحيانًا في بيوتهم أو أحيائهم، أو يهربون إلى القرى المجاورة، أو يختفون في الملاجئ الأرضية. إذ كانت العادة عندئذ أن البعض كانوا يبنون قبورهم في الغرف الأرضية بالحفر في الأراضي الجبلية. وكان النصارى يجهزون هذه الحفر والمغارات الأرضية ليعيشوا فيها مختبئين أيام الاضطهاد. ويوجد في روما أماكن كثيرة كهذه التي عاش فيها النصارى لمدة طويلة، والتي تسمى سراديب أو أقبية الموتى Catacombs. ولا تزال بها صور نحتها النصارى حفاظًا على حماسهم الديني وإحياءً لذكرى شهدائهم. كما توجد على بعض قبورهم لوحات تحتفظ بمعلومات عن صاحب القبر وحادث استشهاده. ولقد شاهدت بنفسي بعضًا من هذه المغارات والسراديب، إذ يصعب على المرء أن يزروها كلها، حيث تمتد على مسافة سبعين ميلاً تقريبًا. إن رؤية هذه السراديب تكشف تاريخ المسيحية القديم، إذ تتجلى بها للرائي نوعية الاضطهاد الذي صُبّ على النصارى قبل ازدهار المسيحية، كما يعرف المرء عقائد النصارى في تلك العصور من

خلال العبارات والصور المنحوتة. ولكن، في القرن الثالث الميلادي، تنصَّر الإمبراطور الروماني نفسه (الموسوعة البريطانية تحت Church History)، فنالت المسيحية القوةَ والازدهار. وإن هذه الآثار الموجودة في السراديب هي المصدر الوحيد لمعرفة ما كان قبل ازدهار المسيحية.

المبادئ الثلاثة للمسيحية القديمة

توجد في هذه السراديب ثلاثة صور على العموم: صورة سفينة نوح، وصورة راع حوله الخراف، وصورة يونان النبي والحوت يبتلعه. وهذا يوضح أن الديانة المسيحية أُسست على مبادئ ثلاثة بحسب التاريخ القديم، وبتعبير آخر، كانت هناك ثلاث قضايا هي وثيقة الصلة بالمسيحية. فصورة راع مع خرافه تشير إلى أن المسيح عليه السلام قد جاء لجمع الخراف الضالة من بني إسرائيل، وصورة سفينة نوح تومئ إلى أن المسيح جاء بصفة منجٍّ لهم، وصورة يونان النبي تشير إلى تلك المعجزة التي سنناقشها بعد قليل.

إذن فإن هذه الصور الثلاث إيماءة إلى أن المسيحية تتأسس على هذه المبادئ الثلاثة: أولاً- أن المسيح جاء لجمع خرافه الضالة، وثانيًا- أنه مخلص ومنجّ، وثالثًا- أنه قد أُعطي معجزة كمعجزة يونان النبي دليلاً على صدقه.

آية يونان النبي ودلالاتها

فثبت بذلك أن أساس المسيحية مبني على تلك المعجزة وحدها، بل إنها هي المعجزة الحقيقية عند المسيحية، كما أن الآثار القديمة في التراث المسيحي من صور وعبارات منحوتة في أول عهد المسيحية أيضًا تشير إلى هذا الأمر، أعني صورة راع مع خرافه، وصورة سفينة نوح، وصورة يونان النبي وهو يدخل في بطن الحوت. فكل هذا يدل على أن هذه هي معجزة المسيحية، بل إن المسيح عليه السلام نفسه قد اعتبرها معجزته الفريدة والحقيقية. فقد ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام كان يلقي الوعظ، فحينئذ "أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم، نريد أن نرى منك آية؟ فأجاب وقال لهم: جيل شرّير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال" (متى ١٢: ٣٨-٤٠).

فالمسيح عليه السلام لم يردّ على هؤلاء بأني قد أريتكم آيات كثيرة فلم لا تنتفعون بها، كما لم يقل لهم إني سأريكم آيات كثيرة، بل قال لهم لن أريكم أي آية إلا آية يونان النبي. وهذا يدل على أن المسيح قد اعتبر آيته هذه هي الآية الحقيقية. والبديهي أن ليس ثمة نبي قد أتى بآية واحدة فقط، بل إن الإنجيل نفسه يخبرنا أن المسيح

قد أرى آيات أخرى كثيرة. فقول المسيح ﷺ "ولا تُعطى لـــه آية إلا آية يونان النبي" إنما يعني أنه فيما يتعلق باليهودية فإن الآية الهامة والمحورية التي يعطاها المسيح إنما هي آية يونان النبي، وذلك في رأي المسيح نفسه. وهذا ما تؤكده شهادة النصارى الأوائل أيضًا، كما بينتُ من قبل. والحق أن المسيحي من الزمن الأول هو الأحق والأولى بأن يفهم الهدف من المسيحية، وإن أول صورة من صورهم الثلاث التي نحتها المسيحيون الأوائل في السراديب إنما تتعلق بحادث يونان النبي، وهذا دليل على أن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون أن آية يونان النبي هي معجزة المسيح الحقيقية والحيوية، أما الصورتان الأخريان فهما تابعتان لها.. بمعنى أن آية يونان النبي التي يعطاها المسيح هي نفسها تدل على أن المسيح بُعث منجيًا، وراعيًا كذلك كما سأبين لاحقًا، حيث ذهب المسيح ﷺ لجمع خرافه الضالة إلى إيران وأفغانستان وكشمير، وبلّغهم رسالة الله تعالى (Jesus Died in Kashmir P. 78-80). إذن فإن آية المسيح الجوهرية الفريدة والكاشفة لمكانته العظمى إنما هي آية يونان النبي، وذلك بشهادة المسيحيين الأوائل وأيضًا بحسب قول المسيح نفسه.

وإنجيل لوقا أيضًا يؤكد ذلك إذ ورد فيه قول المسيح: "هذا الجيل شرّيرٌ، يطلب آية، ولا تعطى لـــه آية إلا آية يونان النبي،

لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل" (لوقا ١١: ٢٩-٣٠).

وجدير بالملاحظة أن لوقا قد سجل هنا أمرًا زائدًا. فبينما يقول "متى" إن المسيح قال عن ذلك الجيل "لا تُعطى لـــه آية إلا آية يونان النبي، لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان، وهوذا أعظم من يونان ههنا" (متى ١٢: ٣٨ -٤١)، يركز لوقا على قول المسيح "لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل". وكأنه يركز خاصة على أن المسيح سيكون آية لهذا الجيل على النحو الذي كان عليه يونان النبي آية لأهل نينوى.

لقد تبين من هذه الفقرات والأدلة أن الآية التي ظهرت للمسيح في زمنه إنما هي آية يونان النبي. وما هي تلك الآية؟ لقد شرحها المسيح نفسه بقولـــه: "لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاث أيام وثلاث ليال".

واعلم أن الشَّبَه بين شيئين لا تعني بالضرورة أن يكونا مماثلين في كل شيء تمامًا، إنما المراد أن يماثلا في الأمور الأساسية الحيوية. وهذا ما يقصده المسيح عليه السلام بقوله هذا، أي أن يمكث ثلاثة أيام

وثلاث ليال في القبر في حماية الله تعالى كما مكث يونان النبي في بطن الحوت محميًا بيد الله تعالى. ذلك أن دخول أحد في بطن الحوت ليس بمعجزة، فهناك آلاف من الناس قد يلتقمهم الحوت، ولا أحد يسمي ذلك معجزة. فما هي معجزة يونان النبي إذن؟ إنما هي أنه ظل في بطن الحوت محميًّا بيد الله تعالى ليكون لقومه آية من عند الله.

والآن نرى كيف مكث يونان النبي في بطن الحوت ثلاثة أيام. نقرأ في كتابه في التوراة ما يلي:

"وصار قول الرب إلى يونان بن أَمِتَّايَ قائلاً: قُمْ واذهَبْ إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها لأنه قد صعد شرُّهم أمامي. فقام يونان ليهرب إلى تَرْشِيش من وجه الرب. فنـــزل إلى يافا، ووجد سفينة ذاهبة إلى تَرْشِيش، فدفع أجرتها، ونـــزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب.

(أي عوضًا عن أن يذهب يونس إلى نينوى ليبلّغ أهلها رسالة الله، كما يفعل أنبياء الله ورسله عملاً بأوامره ﷻ، فكّر في نفسه أن الله رؤوف رحيم كريم، ينذر الناس بالعذاب على لسان رسله أولاً، وحين يتضرعون ويبتهلون يعفو عنهم، فيتّهمون الرسلَ بالافتراء إذ لم يحل بهم العذاب؛ وأنا لست ممن يتحمل هذا الخزي والعار، فلا أذهب إلى نينوى أصلاً).

فأرسل الرب ريحًا شديدة إلى البحر، فحدث نَوءٌ عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر. فخاف الملاحون وصرخوا كلٌّ واحد إلى إلهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم.

(علمًا أن السفن في الزمن الغابر كانت شراعية لا تحمل أثقالاً كبيرة، فإذا جاء الطوفان وخاف الناس على غرقها ألقوا بعض أمتعتهم في البحر لتخفّ السفينة).

وأما يونان فكان قد نــزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نومًا ثقيلاً.

(أي أنه فيما كان الآخرون يدعون الله تعالى ويخففون من أحمال السفينة، كان يونس يغط في نوم عميق).

فجاء إليه رئيس النُّوتيِّةِ وقال لــه: ما لك نائمًا؟ قُمِ اصْرُخْ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نلقي قُرَعًا لنعرف بسبب مَن هذه البليّة؟ فألقَوا قرعًا، فوقعت القُرْعة على يونان. فقالوا لــه: أخبِرْنا بسبب مَن هذه المصيبة علينا؟ ما هو عملك، ومن أين أتيت؟ ما هي أرضك، ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبراني، وأنا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر.

(إن بيان التوراة هذا غلط، إذ لم يكن يونس عبراني الأصل، بل كان من قوم آخرين إذ كان مرسلاً إلى نينوى التي هي عاصمة

المملكة الآشورية، فكان آشوريًّا. علمًا أن آشور لم تكن في بلاد الشام، وإنما هي من ممالك العراق القديم، وكانت تقع شمالي مدينة بابل، وكانت حدودها تصل إلى آرمينيا شمالاً، وإلى كردستان شرقًا، وإلى جزء من الأراضي الواقعة غربي نهر دجلة غربًا؛ أي أن آشور كانت تضم جزءًا من العراق الحالي أيضًا. لقد كانت مملكة قوية في الأيام الغابرة، وكانت عاصمتها في البداية مدينة آشور الواقعة على بعد ٦٠ ميلاً شمالي الموصل، وتسمى حاليًّا قلعات شرجت. ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة نينوى.

والباحثون الأوروبيون أيضًا مختلفون في كون يونس من بني إسرائيل (الموسوعة اليهودية تحت Jonah).

فخاف الرجال خوفًا عظيمًا وقالوا لــه: لماذا فعلت هذا؟ فإن الرجال عرفوا أنه هاربٌ من وجه الرب لأنه أخبرهم. فقالوا لــه: ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا، لأن البحر كان يزداد اضطرابًا؟ فقال لهم: خُذوني واطرَحوني في البحر فيسكُن البحر عنكم، لأني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم.

ولكن الرجال جذفوا ليرجّعوا السفينة إلى البر، فلم يستطيعوا لأن البحر كان يزداد اضطرابًا عليهم. فصرخوا إلى الرب وقالوا: آه يا رب، لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دمًا بريئًا، لأنك يا رب فعلت كما شئت. ثم أخذوا يونان وطرحوه

في البحر، فوقف البحر عن هيجانه. فخاف الرجال من الرب خوفًا عظيمًا، وذبحوا ذبيحة للرب، ونذورا نذورًا.

وأما الرب فأعدَّ حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان. فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال.

فصلى يونان إلى الرب إلهِه من جوف الحوت وقال: دعوتُ مِن ضِيقي الربَّ فاستجابني. صرختُ من جوف الهاوية فسمعتَ صوتي. لأنك طرحتَني في العمق في قلب البحار، فأحاط بي نهرٌ، جازت فوقي جميع تياراتك ولججك، فقلت: قد طُردت من أمام عينيك، ولكني أعود أنظر إلى هيكل قدسك. قد اكتنفتْني مياه إلى النفس. أحاط بي غَمرٌ. التفّ عشب البحر برأسي. نـــزلتُ إلى أسافل الجبال. مغاليق الأرض عليّ إلى الأبد. ثم أَصعدتَ من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي. حين أعيتْ فيّ نفسي ذكرتُ الربَّ، فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيلَ كاذبة يتركون نعمتهم، أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك، وأوفي بما نذرتُه. للرب الخلاصُ.

وأمر الرب الحوتَ، فقذف يونانَ إلى البر.

ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً: قُمِ اذهَبْ إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ لها المناداة التي أنا مكلِّمُك بها. فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب. أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام. فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم

واحد، ونادى وقال: بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى بالله، ونادَوا بصوم، ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملكَ نينوى، فقام عن كرسيّه، وخلع رداءه عنه، وتغطى بمِسْح، وجلس على الرماد. ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلا: لا تذُق الناسُ، ولا البهائم، ولا البقر، ولا الغنم شيئًا. لا تَرْعَ ولا تشرَبْ ماء. وليتغطَّ بمسوحٍ الناسُ والبهائم، ويصرخوا إلى الله بشدة، ويرجعوا كلٌّ واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم. لعل الله يعود ويندم، ويرجع عن حُمُوِّ غضبه فلا نهلك.

فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه.

فغمَّ ذلك يونانَ غمًّا شديدًا، فاغتاظ وصلى إلى الرب وقال: آه يا ربّ. أليس هذا كلامي إذ كنتُ بعدُ في أرضي. لذلك بادرتُ على الهرب على ترشيش لأني علمت أنك إله رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر. فالآن يا رب، خُذْ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي. فقال الرب: هل اغتظتَ بالصواب؟

وخرج يونان من المدينة، وجلس شرقي المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلة، وجلس تحتها في الظل حتى يرى ماذا يحدث في المدينة. فأعدّ الربُ الإلهُ يَقْطينةً فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاًّ على

رأسه لكي يخلّصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحًا عظيمًا.

(لاحِظْ أن التوراة تقول هنا أن يونس صنع لــه المظلة أولاً، ثم أخرجَ الله اليقطينة؛ مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى اليقطينة بعد المظلة، لأن المظلة أروح من اليقطينة. ولكن القرآن الكريم لا يذكر أي مظلة، وإنما يذكر اليقطينة فقط (الصافّات: ١٤٧)؛ فثبت أن بيان القرآن هو الصحيح والأقرب إلى المنطق).

ثم أعدّ الله دودة عند طلوع الفجر في الغد، فضربت اليقطينةَ فيبِستْ. وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعدَّ ريحًا شرقية حارّة، فضربت الشمسُ على رأس يونان، فذبُل، فطلب لنفسه الموت، وقال: موتي خير من حياتي. فقال الله ليونان: هل اغتظتَ بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال: اغتظتُ بالصواب حتى الموت. فقال الرب: أنت شفِقتَ على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربّيتَها، التي بنتَ ليلةٍ كانت وبنتَ ليلة هلكتْ؛ أفلا أشفقُ أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة✪ من الناس الذي لا يعرفون يمينهم من شمالهم، وبهائمُ كثيرة" (يونان: الإصحاحات ١-٤)

✪ الربوة هي عشرة آلاف نسمة. (المترجم)

هذه هي واقعة يونان النبي التي أشار المسيح إليها هنا. إنها توضح لنا أن يونس عليه السلام لما تلقى الوحي من الله تعالى أن اذهبْ إلى قومك وبلِّغهم رسالات الله، فلم يذهب للتبليغ، بل فكّر في نفسه أن رسل الله عندما يبلغون قومهم رسالات الله يبلغونهم أيضًا بعض الأنباء التي فيها إنذار وتحذير من الله تعالى، ولكن الله تعالى رحيم بعباده ويعفو عنهم، وهذا يعرّض رسله للخزي والإهانة. فقرر يونس أن يهرب إلى بلد آخر حتى لا يرى هذا الخزي من قبل قومه. ولكن الله تعالى أراد منه أن يذهب إلى قومه ليبلغهم رسالاته. فألقاه في البحر على يد هؤلاء الملاحين، ثم أمر حوتًا كبيرًا بابتلاعه، فابتلعه وهو حي. وتقول التوراة إنه كان يدعو ويبتهل إلى الله تعالى وهو في بطن الحوت، والبديهي أن الحي هو الذي يدعو الله تعالى وليس الميت. ثم قذَفه الحوت بأمر الله تعالى إلى البر لا في البحر، ثم أرسله الله تعالى إلى نينوى ليبلغهم رسالته، فذهب ونجح في دعوتهم.

نتوصل من دراسة هذه المعجزة إلى ما يلي:

الأول: أن يونس دخل في بطن الحوت وهو حي.

الثاني: أنه مكث في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وهو حي.

الثالث: أنه خرج من بطنه وهو حي.

الرابع: أن زمن دعوته بدأ في الحقيقة بعد خروجه من بطن الحوت. إذ لم يخبر الناس قبل هذا الحادث أن الله تعالى قد بعثه

لإصلاحهم. من الممكن أن يكون قد ذكر ذلك لبضعة أشخاص، ولكنه لم يوجه دعوته إلى الناس عامة، بل أراد أن يفر إلى بلد آخر، ولكن الله تعالى أرجعه إلى بلده ثانية بعد حادث الحوت ليبلّغ قومه رسالة الله، ففعل وآمن به قومه.

بعد استيعاب هذه المعجزة جيدًا لا يسع أحدًا أن ينكر أن هذه المعجزة لا تنطبق على المسيح عليه السلام إلا بالشروط الآتية:

الأول: أن يدخل المسيح في القبر وهو حي.

الثاني: أن يمكث في القبر وهو حي.

الثالث: أن يخرج من القبر وهو حي.

الرابع: أن تتاح لــه فرصة الدعوة الناجحة بعد خروجه من القبر.

فهذه هي الأمور الأربعة التي تُستفاد من حادث يونان النبي. فإذا كانت قصة الصلب المسيحية صحيحة فثبت أن هذه الأمور الأربعة كلها لم تتحقق في المسيح عليه السلام. أعني:

أولاً: إذا كان المسيح قد مات على الصليب، و(**ثانيًا**) إذا كان قد مكث في القبر، بل في الجحيم، وهو ميت، فلم تثبت لــه أي مشابهة بيونان النبي. ذلك أن يونان دخل في بطن الحوت وهو حي، ومكث في بطنه وهو حي، وكان على صلح مع الله تعالى إذ كان يدعوه ويبتهل إليه؛ ولكن المسيح دخل في القبر وهو ميت، ثم

إنه مكث في الجحيم كل هذه الأيام، وهذا يعني أنه صار من المبعَدين عن الله تعالى.

ثالثًا: إذا كان المسيح قد خرج من القبر بعد أن عاد إلى الحياة ثانية فلم تثبت مماثلته بيونان النبي، لأن يونان لم يخرج من بطن الحوت بعد أن عاد إلى الحياة ثانية، بل كان حيًّا قبل دخوله في بطنه، وكان حيًّا وهو في بطنه، وكان حيًّا حين خرج من بطنه.

رابعًا: وإذا كانت مهمة المسيح قد انتهت بعد خروجه من القبر بعد أن عاد إلى الحياة - كما تزعم المسيحية أنه مكث أولاً في الجحيم للأيام الثلاثة كفارةً عن ذنوب الناس، ثم بعد عودته إلى الحياة صعد إلى السماء ليجلس على عرش أبيه - فلم تثبت له أي مماثلة بيونان النبي. ذلك أن الله تعالى قد أتاح ليونان النبي فرصة الدعوة الناجحة بعد خروجه من بطن الحوت. والحق أن هذه هي معجزته الحقيقية، إذ بين الله تعالى للدنيا أن يونان رفض أوامرنا ولم يرد أن يكون رسولاً منا خوفًا منه أن يرفضه القوم فيرى الخزي والهوان من قِبلهم، فهرب، فألقيناه في بطن الحوت، فلبث في بطنه حيًّا، ثم قذفه الحوت إلى اليابسة بأمرنا، فأرسلناه ثانية إلى بلدة نينوى نفسها، فبلّغهم رسالتنا، فجعلناه ناجحًا في دعوته. وهكذا كشف الله للدنيا أن الذي يختاره لرسالته فإنه مهما ظن أنه ضعيف، ومهما احتقره الناس، فإن الله تعالى قادر على أن

يجعل رسالته تنجح على يد هذا الإنسان الضعيف المحتقَر نفسه، ويجعله من المقبولين بين القوم.

هذه هي معجزة يونان النبي التي أظهرها الله لأهل نينوى. ولكن قصة المسيح، كما يعرضها المسيحيون على العالم، لم تُثبت للمسيح أي مشابهة بيونان النبي؛ لأن معجزة يونان الحقيقية إنما هي أن الله تعالى وفّقه للقيام بالدعوة الناجحة، فرأى القوم أن هذا الذي كان قد فر منهم بسبب ضعفه قد صار مصلحًا ناجحًا، فصدّقوه وغيّروا ما بأنفسهم. إن أهل نينوى لم يروا يونان النبي وهو يدخل في بطن الحوت، ولم يروه أيضًا وهو يمكث في بطنه حيًّا، ثم لم يروه وهو يخرج من بطنه حيًّا، إذ كان يونان إذّاك بعيدًا عنهم مسافة ألف ميل تقريبًا؟ ولكنه حين عاد إلى نينوى، فرأوا أن ذلك الشخص الذي هرب من عندهم خوفًا من ألا ينجح في دعوته، قد أخذه الله تعالى وأتى به إليهم ثانية فجعله ناجحًا في دعوته. فكانت معجزة عظيمة لهم إذ كشفت لهم عما يملكه الله تعالى من قدرة عظيمة وقوى خارقة.

فإذا كان المسيح عليه السلام يعلن عن نفسه: "لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل" (لوقا ١١: ٣٠)، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما الذي شاهده أهل نينوى.

لا شك أن دخول يونان في بطن الحوت آية، وأن بقاءه في بطنه حيًّا أيضًا آية، وأن خروجه من بطنه حيًّا أيضًا آية، ولكنها آيات لم يراها أهل نينوى، إن الآية التي شاهدوها إنما هي أن يونان النبي سوّلت له نفسه أن لا يبلغهم رسالات الله، ففرّ من عندهم إلى بلد آخر، ولكن الله تعالى اضطره للعودة إليهم من مكان يبعد عنهم مئات الأميال، بعد أن ألقاه في شتى المحن والشدائد، ثم أنجز على يده المهمة التي بعثه من أجلها. لقد كفر به القوم وعارضوه في أول الأمر، ولكنهم اضطروا في آخر المطاف للإذعان له والانقياد. هذه هي الآية التي رآها أهل نينوى. ولن تتحقق هذه الآية في المسيح إلا إذا دخل في القبر حيًّا، ومكث في القبر حيًّا، وخرج من القبر حيًّا. غير أن هذه الجزئية من المعجزة أيضًا ما كان العدو ليشاهدها. أما إذا قام المسيح عليه السلام بدعوة الخراف الضالة من بني إسرائيل، التي كانت تقطن قريبًا من نينوى وفي إيران وأفغانستان وكشمير، وأدخلها في دينه، ونجح في إنجاز المهمة التي وكلها الله إياه، فقد ثبتت مماثلته بيونان النبي، وانكشفت للدنيا المعجزة التي وعد بالإتيان بها. أما إذا لم يثبت ذلك فلم يأت المسيح بآية كآية يونان النبي. فكما أن يونان النبي ذهب لدعوة قومه بعد خروجه من بطن الحوت، ونجح في دعوتهم، كان لزامًا على المسيح أيضًا بعد خروجه من القبر أن يبلغ بني إسرائيل رسالات الله، ويدعوهم إلى الهدى. وإن لم يفعل ذلك فلم تتحقق فيه آية يونان النبي

كاملةً، ولا يجوز القول إنه أرى قومه الآية التي أراها يونان النبي قومه. ذلك أن أهل نينوى رأوا بأم أعينهم أن الشخص الذي هرب من عندهم من دون أن يبلغهم رسالاته ظنًّا منه أنه أحقر من أن يفعل ذلك، قد عاد إليهم ثانية حتى اضطروا للإيمان به، ولكن المسيح إذا كان قد غاب بعد حادث الصليب فكيف ثبت شَبَهُه بيونان، وما هي الآية التي رآها الناس على يده كما رآها أهل نينوى على يد يونان.

إذن فالآية التي كان على المسيح أن يُري الناس إياها كما أراها يونان النبي – أي أن يريهم كيف يحقق الله تعالى ما يريد على يد عباد يظنون أنهم أحقر من أن يحملوا تلك المسؤولية – فلم يُرها المسيح، وأما الذي لم يُره يونان فقد أراه المسيح. لقد دخل يونان في بطن الحوت ولكن أهل نينوى لم يروا ذلك، ومكث في بطنه حيًّا ولكنهم لم يروا هذا أيضًا، وخرج من بطنه حيًّا، ولكنهم لم يروا تلك أيضًا؛ ولكن الله تعالى لما أتى به إلى نينوى ثانية أنجز المهمة التي فوضها الله إليه، وبالتالي أخبر الناس أن لا مهرب أمام قدر الله تعالى. لقد هربتُ من قدره فأتى بي إليكم ثانية. هذه هي الآية التي رأوها على يده. وكل من كان عنده ذرة من العقل إذا تدبر هذه الآية لقال تلقائيًّا: سبحان الله، ما أعظمَها من آية! كان يونان يحسب نفسه أحقر من أن يحمل رسالة الله إلى أهل نينوى، فخاف وهرب إلى بلد آخر، ولكن الله تعالى أخذه وأتى به إليهم

ثانية، فلما بلّغهم رسالاته لم يجدوا بدًّا من الإيمان به والإذعان لـــه، وذلك خلاف ظنه أنهم لن يصدقوه. فكلما تدبر العاقل هذه الآية ازداد إيمانًا بقدرة الله وقال من تلقائيًّا: سبحانك اللهم، ما أعظمَ شأنَك وما أجلَّ قدرتك! تعزّ من تشاء وتذل من تشاء. أما لو قال يونان لقومه: لقد مكثت في بطن الحوت حيًّا، وخرجت من بطنه حيًّا، لرموه بالكذب والخداع، ولم يصدّقوه.

فشَبَهُ المسيح بيونان النبي لا يتحقق إلا إذا دخل القبر حيًّا، ومكث فيه حيًّا، وخرج منه حيًّا، ثم قام بعد حادث الصليب بالدعوة الناجحة في قبائل بني إسرائيل. ولكن الإنجيل يخبرنا أن الآية التي لم يُرها يونان قومه قد أراها المسيح قومه، وأما الآية التي أراها يونان قومه فلم يُرها المسيح قومه.

تخبرنا التوراة أن يونان لم يُر أهلَ نينوى آيةَ دخوله في بطن الحوت حيًّا، ومكوثه فيه حيًّا، وخروجه منه حيًّا، ولكن الإنجيل يقول أن المسيح أرى الناس آية دخوله في القبر، ومكوثه فيه، وخروجه منه. ثم تخبرنا التوراة أن الآية التي أراها يونانُ قومَه هي أنه بعد خروجه من بطن الحوت قام بدعوتهم حتى اضطروا للإيمان به. ولكن الإنجيل يقول أن المسيح غاب بعد خروجه من القبر، دون أن يقوم بأي دعوة، وهذا يعني أن الآية التي أتى بها يونان والتي هي آيته الحقيقية لم يأت بها المسيح، وأن ما لم يُره يونان أراه المسيح.

ثم تخبرنا التوراة أن يونان دخل في بطن الحوت حيًّا، ومكث فيه حيًّا، وخرج منه حيًّا، ولكن المسيحيين يقولون أن المسيح دخل القبر وهو ميت، ومكث في القبر ثلاثة أيام وهو ميت، ثم خرج منه بعد أن عاد إلى الحياة. فلو صح قولهم هذا لثبت أن المسيح لم يُرِ آية يونان النبي؛ وأما لو ثبت أن المسيح قد أرى آية يونان النبي، وأنه لم يمت على الصليب، وأنه لم يمكث في القبر ميتًا، لبطلت فكرة الكفارة كلها، لأن الكفارة إنما تثبت إذا ثبت أن المسيح قد مات على الصليب حاملاً عن الناس ذنوبهم، ولكنه إذا ثبت أنه لم يمت على الصليب فثبت أيضًا أنه لم يقدم أي فداء، وبالتالي بطلت الكفارة.

إذن فإن حادث الصليب، كما يقدمه المسيحيون، يناقض تمامًا المعجزةَ التي أراها يونان النبي، والتي وعد المسيح قومه أنه سيُريهم إياها.

المسيح عليه السلام وخِرافه الضالّة

هلم الآن لنرى هل تحدث المسيح في نبوءاته عن النتيجة التي استنتجناها من نبوءته عن آية يونان النبي؟ عندما نفحص الإنجيل من هذا المنظور تأخذنا دهشة كبيرة، إذ نجد المسيح يقول نفس ما قلناه آنفًا. بل إن الأنبياء الذين أتوا قبله، والذين بشروا بمجيئه، هم الآخرون قد أشاروا إلى هذا الأمر. لقد ورد في التوراة: "يقول

السيد الربُ جامعُ مَنْفِيِّي إسرائيلَ أجمعُ بعدُ إليه إلى مَجْمُوعِيه" (إشعياء ٥٦: ٨).

فالنبي إشعياء ينبئ هنا أنه سيأتي زمان حين يجمع الله تعالى خراف بني إسرائيل الضالة، وسيبعث نبيًّا يجتمعون حوله. ونبوءته هذه إشارة إلى بعثة المسيح، إذ ليس ثمة شخص آخر سوى المسيح ادعى أنه بُعث لجمع خراف بني إسرائيل الضالة. والمراد من هذه الخراف الضالة القبائلُ الإسرائيلية العشر التي دمّرها وشتّتها العراقيون في عهد نبوخذنصر البابلي. والمؤسف في هذا الهجوم أن اليهود كانوا إذاك مصابين بمرض الفُرقة والتناحر؛ يعادي بعضهم بعضًا. لقد انقسموا إلى دولتين، تسمى إحداهما إسرائيلية، والأخرى يهودية، وكانت عاصمة إحداهما أورشليم، بينما اتخذت الأخرى لها عاصمة أخرى. ولما هاجم العراقيون اليهودَ للقضاء على حكمهم انضمت إليهم إحدى الدولتين اليهوديتين المتناحرتين، فاستولى العراقيون على أرض اليهود مستغلين فرقتهم وتشتتهم، ودمروا كل الأماكن المقدسة اليهودية تدميرًا حتى ذبحوا الخنـــزير في معبد سليمان عليه السلام في أورشليم، وصبّوا على اليهود مظالم كثيرة أخرى. لقد قرر العراقيون قمع اليهود تمامًا لوجود العداء القديم بين الطرفين. فأخذوا معهم عشرًا من القبائل اليهودية، ونفوهم إلى الشرق، ولم يبق في فلسطين من اليهود إلا قبيلتان، وهما اللتان ساعدتا العراقيين ضد قومهما.

وأما القبائل العشر المنفية فقد اكتفت التوراة بقولها عنهم إن العراقيين قاموا بتشتيتهم في شرق إيران، ولكن بحثنا يؤكد أنهم نُفوا إلى أفغانستان وكشمير، وهكذا حالت بينهم وبين أرضهم مسافة هائلة، ولم يستطيعوا التجمع بعد ذلك كما أراد لهم البابليون، فظلت أحوالهم في طي الكتمان لمدة طويلة. ولكن العراقيين ما شتتوا هؤلاء اليهود كلهم في الشرق، بل أسكنوا بعضهم في بابل وما حولها ليخدموهم. وقد رجع هؤلاء إلى فلسطين ثانية بمساعدة ملوك ميديا وفارس، وعمروا أورشليم وقراها مرة أخرى (الموسوعة التوراتية تحت Cyrus). وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أيضًا. بيد أن اليهود الذين تم جلاؤهم إلى كشمير وأفغانستان ما استطاعوا العودة إلى وطنهم. كما أنهم نسوا كثيرًا من عاداتهم وتقاليدهم وحضارتهم متأثرين بالحضارة البوذية بحكم إقامتهم بين البوذيين أحقابًا، فلم يبق مجال لعودتهم إلى أرض الوطن.

وكان اليهود يظنون أن المسيح سيظهر فيأتي إليهم بهذه الخراف الإسرائيلية الضالة، وفق نبوءة إشعياء التي ذكرتُها آنفًا. بل إن المسيح عليه السلام نفسه قد ذكر هذا الأمر في مناسبات عديدة. فذات مرة بعَث جماعةً من تلاميذه للتبشير، وأوصاهم قائلا: "إلى طريق أممٍ لا تمضوا، وإلى مدينةٍ للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متى ١٠: ٥-٦).

وقد نصحهم بالذهاب إلى خراف بني إسرائيل الضالة فحسب دون الأمم الأخرى تحقيقًا لنبوءة إشعياء بأن بني إسرائيل المشتتين سيجتمعون على يد المسيح ثانية.

كذلك ورد في الإنجيل أن امرأة جاءت المسيحَ ﷺ بنتها التي قد ركبها الجن. ويبدو أن عامة الناس في ذلك العصر كانوا يظنون أن الجن يركبون الناس ويصيبونهم بالمرض، وإذا طُرد الجني تماثل المريض للشفاء. فسمعت المرأة أن المسيح يطرد الجن، فجاءت المسيح مسرعة، وهو خارج إلى جهة، وصرخت إليه قائلة: يا سيد، يا مقدَّس الرب، ارحمني واطرد الجن من بنتي. ولكن المسيح لم يكترث لها لكونها من أمة أخرى. ولكنها استمرت في صياحها والتماسها للمسيح، فقال لــه تلاميذه: هذه امرأة تصرخ إليك من أميال أن تطرد الجن من ابنتها. فأجابهم بقوله: "لم أُرسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (انظر متى ١٥: ٢١-٢٤).

فالمسيح ﷺ قد صرح هنا أن الغاية الحقيقية من بعثته أن يقوم بالدعوة بين القبائل الإسرائيلية العشر المشتتة، ويرجع بهم إلى دينهم.

ويبدو أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يعرفون، بناء على وحي الله تعالى، أن القبائل الضالة قد نسوا دينهم و لم يعودوا يعملون بشرع موسى، بحكم عيشهم بين الأمم الأخرى، وأن الله تعالى قد قرر أن يرجع بهم إلى دينهم ثانية. وإن كلمات "خراف بيت إسرائيل

الضالة" أيضًا تؤكد أن هؤلاء لم يبتعدوا عن أرضهم فحسب، بل عن دينهم أيضًا، متأثرين بأهل الأديان الأخرى، فكانوا "الخراف الضالة" ظاهرًا وباطنًا. ومن أجل ذلك قال المسيح ﷺ لليهود إنه لن يريهم إلا آية يونان النبي، وهذه هي آيته الكبرى، مؤكدًا أن مهمته الأصلية إنما هي جمع خراف بيت إسرائيل الضالة هؤلاء.

كذلك ورد في الإنجيل قول المسيح ﷺ: "ولي خِرافٌ أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضًا، فتسمع صوتي، وتكون رعيةٌ واحدة وراعٍ واحد" (يوحنا ١٠: ١٦).

فقد أوضح المسيح ﷺ هنا أن أولئك اليهود الآخرين يعيشون في بلاد أخرى لا في هذا البلد، وقد قرر الله تعالى أن يأتي بهم. أما هؤلاء فقد كفروا به لعنادهم، ولكن أولئك لن يعاندوه بل سيسرعون إلى تصديقه.

أما قولــه "وتكون رعيةٌ واحدة وراعٍ واحد" فيبين أن معظم قوم موسى كانوا نسوا شرعه، فأراد الله تعالى أن يرجع بهم بواسطة المسيح إلى الشرع الموسوي ثانية، ويجعلهم جميعًا أمة واحدة.

لقد ثبت من هذه الفقرات أن الله تعالى كان أنبأ الأنبياء الأولين عن مهمة المسيح، وهي:

الأول: أنه سيبلّغ رسالة الله يهودَ بلاد الشرق كما بلّغها يهود فلسطين.

الثاني: وأنه إذا كانت الخراف الإسرائيلية من فلسطين لم تستجب لندائه فإن الخراف خارجها ستستجيب لندائه وتؤمن به، وذلك بحسب قول المسيح.

الثالث: وأنه لم يكن للمسيح الخيار في أن يذهب أو لا يذهب إلى تلك الخراف الضالة، بل كان لزامًا عليه أن يذهب إليهم ليبلغهم دعوته.

ولو أننا قارنّا هذه الاستنتاجات الثلاثة بآية يونان النبي لوجدنا بينهما شبهًا تامًّا.

فأولا: إن دراسة وقائع يونان النبي تؤكد أنه لم يكن يقطن في نينوى، ولكنه أُمر من عند الله تعالى بالذهاب إلى نينوى التي كانت تقع شرقي وطنه ليبلّغهم رسالات الله؛ وبالمثل أُمر المسيح بالذهاب إلى بلد أجنبي شرقي وطنه لتبليغ دعوته.

ثانيًا: كما يتضح من أحوال يونان النبي أن الله تعالى أرسله إلى نينوى رغم أنفه، إذ هرب من تبليغ أهلها؛ وبالمثل كانت النبوءات تؤكد أن الله تعالى سيضطر المسيح للهجرة من بلده إلى بلد أجنبي، ليوصل رسالته عن طريقه إلى خراف بني إسرائيل الضالة.

ثالثًا: أن المسيح حين يصل إلى القوم سيصدقونه ويؤمنون بدعواه، كما حصل بيونان النبي حيث إنه لما أُرغمَ على الذهاب إلى أهل نينوى وعرض عليهم دعواه، رفضوه في البداية رفضًا خفيفًا، ولكنهم آمنوا به لما رأوا آثار العذاب.

وبالاختصار لو قرأنا هذه العبارات مع آية يونان النبي لتبين لنا أن المعجزة التي كان على المسيح أن يريها مثل يونان النبي، ما كانت لتكتمل بدخوله في القبر حيًّا، وبمكوثه فيه حيًّا، وبخروجه منه حيًّا، بل كانت لها جزئية أخرى هي أهم جزئيات هذه المعجزة، ألا وهي أن الله تعالى سيذهب بالمسيح إلى القبائل الإسرائيلية الضالة، ليبلّغهم رسالة الله، فيستمعون لــه، ويؤمنون به؛ وهي آية سيراها خراف بني إسرائيل الضالة كما رأى أهل نينوى آية يونس.

والآن لو فحصنا أحوال المسيح لوجدناها مماثلة لأحوال يونان النبي. لقد وُلد المسيح في فلسطين، وكانت لغته عبرانية، وكانت أمه من فلسطين، كما أن الرجل الذي سُمي أباه أيضًا، وإخوته الآخرين الذين كانوا أبناء لأبيه، وأبناء عماته كلهم كانوا يسكنون في فلسطين. ثم كان يعيش بين قومه مع تقاليدهم وعاداتهم وثقافتهم وأسلوب عيشهم، وهي كلها أمور ذات أهمية قصوى، إذ يصبح المرء مغرمًا بها. ولكن البلد الذي كان على المسيح أن يذهب إليها لجمع خراف بني إسرائيل كان بلدًا أجنبيًّا لا يربط المسيحَ به رابط. فشتان بين اللغة العبرانية واللغة الأفغانية أو الكشميرية. ثم إن القبائل الإسرائيلية الضالة كانوا قد نسوا تقاليدهم وعاداتهم وثقافتهم نتيجة اختلاطهم بالبوذيين وغيرهم من الشعوب القاطنة في هذه البلاد، وكان من الصعب أن يتخلوا عن

هذه التقاليد الجديدة. أضِفْ إلى ذلك السفر الطويل الوعر والشاق بين فلسطين وأفغانستان وكشمير. إذ لم تتيسر في تلك العصور أي تسهيلات في السفر، ثم إن مسافة ألفين ونصف الألف من الأميال مسافة هائلة. إذن فكما أن يونان النبي خاف من الذهاب إلى نينوى، كان قلب المسيح أيضًا ينخلع من أهوال السفر إلى أفغانستان وكشمير؛ إذ كان عليه أن يتخلى عن لسانه، ويترك وطنه وأعزته وأقاربه. وكان القيام بالدعوة في فلسطين أسهل لــه، ولكن كما أن يونان النبي لما فر من المسؤولية، أرغمه الله على القيام بها، حيث خلق الظروف التي جعلته يدرك أن لا مهرب لــه أمام قدر الله تعالى، وإنما عليه أن يذهب حيث يريده الله أن يذهب، فعاد إلى أهل نينوى يبلغهم رسالات الله؛ كذلك خلق الله للمسيح ظروفًا مماثلة، حيث اندلعت في البلد موجة عارمة من المعارضة، حتى رُفعت ضده قضية في المحكمة، فاضطر للمثول أمامها، فحكمت بإعدامه، فعُلِّق على الصليب، ولكن الله تعالى نجاه من الموت على الصليب حسب وعده ﷻ، مثلما نجّى يونان من الموت المحقق. فكما أن يونان لما أُلقي في البحر أمر الله تعالى حوتًا من الحيتان بابتلاعه، فمكث في بطنه ثلاثة أيام حيًّا، ثم خرج من بطنه حيًّا؛ مما زاده إيمانًا مع إيمانه بأن ربه عظيم القدرة إذ يحمي عباده بطريق خارق، كذلك فعل الله بالمسيح عليه السلام، فإنه لما أُنــزلَ من الصليب حيًّا، ومكث في القبر حيًّا، وخرج منه حيًّا،

ازداد إيمانًا مع إيمانه وعلم أن ربه عظيم القدرة. بيدَ أنه لما خرج من القبر اضطرته الظروف للهجرة إلى ذلك البلد الذي أراده الله أن يذهب إليه. ذلك أن الشخص الذي تقرر الدولة إعدامه إذا نجا من الموت فلا يمكنه العيش في أراضيها بعد ذلك، إذ ستقبض عليه ثانية وتُعدمه. لا شك أن أي نبي لا يخاف الموت في سبيل الله تعالى، ولكنه لا يمكنه أيضًا أن يعيش عيشة العاطلين الكسالى. إنه يُخلَق للعمل، ويعشق العمل. إنه كالآلة التي تعمل كل حين. فما كان المسيح عليه السلام ليقضي باقي أيام حياته مختفيًا هنا وهناك بدون القيام بدعوته. لذا فإن حادثة الصليب، إذا كانت قد زادته إيمانًا مع إيمانه، فإنها قد أرغمته أيضًا على الهجرة فورًا من فلسطين إلى بلاد الشرق، مثلما هاجر يونان النبي. فوصل إلى أفغانستان وكشمير وبلغ أهله رسالات ربه. ولا غرو أنه لما حكى لهم ما جرى لـــه، وكيف أن الظروف أرغمته على السفر إليهم، ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وامتلأت بحمد الله وشكره قلوبهم. فإن تواريخ كشمير تذكر لنا أن النبي الأمير أي المسيح عليه السلام لما وصل كشمير كانت في يديه ورجليه جروح - يبدو أن الأطباء في تلك العصور لم يكونوا حاذقين - فما زال الأطباء يداوونها لفترة طويلة. فكم كانت فرحة القوم عظيمة وكم ازدادوا إيمانًا وحبًّا لله تعالى لما ذكر لهم المسيح هذه الأحداث المثيرة، وكيف أن الله تعالى قد جاء به إليهم من فلسطين رغم أنفه من أجل هدايتهم، وأنه لو بقي

هنالك لأخذوه وأعدموه ثانية. لا شك أن الله تعالى كان قادرًا على أن ينجيه من الموت ثانية لو حاولوا صلبه مرة أخرى، ولكنه لو بقي في فلسطين لما كان لـــه أي عمل إلا أن يعلَّق وينـــزل من على الصليب مرة بعد أخرى، دون أن يقوم بالدعوة إطلاقًا.

من الممكن أن يكون المسيح عليه السلام قد واجه بعض المعارضة من قبل بعض القوم، إذ لا بد للنبي من المعارضة، ولكن التاريخ يخبرنا أن هؤلاء القوم ما لبثوا أن أحبوا المسيح، وسارعوا إلى تصديقه كنبي من أنبياء الله تعالى*.

وإننا لو لم نسلم بهذا التفسير لنبوءة المسيح التي وعد فيها بأنه سيُري آية يونان النبي، لم يعد المسيح إنسانًا صالحًا وصادقًا، ناهيك عن أن يكون كفارة لذنوب الناس. ذلك أن المسيح ينبئ صراحة إنه يدخل القبر حيًّا، ويمكث فيه حيًّا، ويخرج منه حيًّا، وأنه لا بد لـــه من أن يذهب بعد ذلك إلى خراف بيت إسرائيل الضالة تحقيقًا لمشابهته بيونان النبي. متى ذهب يونان لدعوة أهل نينوى، يا ترى؟ طبعًا، بعد أن خرج من بطن الحوت. وبالمثل فإن الفترة الحقيقية لدعوة المسيح إنما تبدأ بعد خروجه من القبر. أما إذا لم يقم المسيح بالدعوة بعد خروجه من القبر حيًّا، ولم يجمع الخراف الإسرائيلية الضالة، فقد ثبت أن المسيح وكذلك إشعياء

---

* (Jesus in Heavens On Earth P. 368-369)

وغيره من الأنبياء السابقين الذين نَبَّئوا عن المسيح أنه سيجمع الخراف الإسرائيلية الضالة كانوا كلهم – والعياذ بالله – كاذبين.

حقيقة صلب المسيح

إذن فإن هذه الأمور كلها تدل دلالة قطعية أنه لم يكن من المقدر أن يموت المسيح على الصليب، ولا أن يكون كفارة عن ذنوب الناس. وأما إذا سلّموا بالكفارة لاستحال أن يُعتبر المسيح صادقًا، لأن التسليم بالكفارة يبطل أكبر نبوءاته، كما يبطل أيضًا ما نـــزل على إشعياء من وحي الله الذي أكده النبيون الآخرون أيضًا في نبوءاتهم. فثبت أن المسيح لم يقدم ذلك الفداء الذي يعزوه إليه المؤمنون بالكفارة، وأنه لم يصبح كفارة أبدًا.

وهلموا الآن لِنَرَ واقعة تعليق المسيح على الصليب وما واكبها من أحداث لنعلم هل تؤكد هي أن المسيح دخل في القبر حيًّا، ومكث فيه حيًّا، وخرج منه حيًّا، أم أنه دخل في القبر وهو ميت، ومكث فيه وهو ميت، وخرج منه بعد أن عاد إلى الحياة ثانية؟

فيما يلي الأحداث الهامة التي وردت في الإنجيل والتي تدل على أن المسيح لم يمت على الصليب.

الأول: إن الوالي الذي مثل المسيح أمامه كان ناصحًا للمسيح متعاطفًا معه، وكان صديقًا لبعض المؤمنين به (متى ٢٧: ١١-٢٤ ولوقا ٢٣: ١-٢٣). وكان ثمة أشخاص ما كانوا من حواريي المسيح في

الظاهر، ولكنهم كانوا يؤمنون به في قلوبهم، وكان يوسف الراميّ واحدًا منهم؛ ويتضح من الإنجيل أن يوسف الراميّ هذا كان من شرفاء اليهود وأثريائهم وصديقًا للوالي بيلاطس (متى ٢٧: ٥٧). ولما عُرض المسيح على بيلاطس حاول مرارًا إطلاق سراح المسيح بحيلة أو أخرى. ومن التدابير التي اتخذها لذلك أنه اختار للفصل في قضيته أواخر ساعات يوم الجمعة الذي يليه السبتُ اليومُ المقدسُ لدى اليهود (متى ٢٣:٥٤). وكان ذلك السبت يوم عيد رسمي أيضًا، وكانت الحكومة الرومانية تطلق فيه سراح أحد المسجونين استرضاءً لليهود، وإشعارًا لهم أن الحكومة تحترم ديانتهم. فحاول بيلاطس إطلاق سراح المسيح بحجة هذه المناسبة الرسمية وقال لليهود: علي أن أعفو اليوم عن أحد السجناء في كل حال، فهل أعفو عن المسيح؟ ولكن اليهود لم يرضوا بذلك وقالوا: يمكنك أن تعفو عن فلان السارق، ولكن لا تتركنَّ المسيح بدون العقاب (متى ٢٧: ٢١-٢٢). هناك اختلافات كثيرة في الأناجيل بهذا الشأن لا داعي للخوض فيها الآن، إلا أنه من المؤكد أن بيلاطس حين كان جالسًا على كرسي القضاء ويحاول إطلاق المسيح ﷺ، إذ جاءه رسول من بيته، وقال لــه إن زوجتك بعثتني إليك. فهبَّ من كرسيه ليسمع منه رسالتها فإذا هي تقول: لا تعاقب المسيح، فإني تألمتُ البارحة كثيرًا ولم أنم من أجله، لأن الملائكة جاءتني مرارًا تقول: لا تعاقبوا هذا البريء حتى لا تهلكوا (انظر متى ٢٧: ١٩). فلما

سمع قولها بذل جهده حتى يرضى اليهود بإطلاق سراح المسيح، ولم يدخر وسعًا في سبيل ذلك. ولكن اليهود لم يرضوا، وإنما هددوه بالشكاية إلى الإمبراطور في روما بأن بيلاطس قد تمرد عليه، وصار ملكًا. فخاف بيلاطس من قولهم، ودعا بماء غسل به يديه قُدّام الجميع وقال: إني بريء من دم هذا البار ومن هذا الإثم، وإنما دمه عليكم وعلى أولادكم. فقال الجميع بصوت واحد: دمه علينا وعلى أولادنا (انظر متى ٢٧: ٢٤-٢٥). فأسلمه إليهم ليصلبوه.

ويتضح من الإنجيل أنهم لما وصلوا مع المسيح إلى مكان الصلب في الساعة السادسة✪. أي كان الوقت ما بين الثالثة والرابعة بعد الظهر بحسب توقيت ذلك الزمن. وكان عليهم أن يصلبوا معه في ذلك اليوم اثنين من السارقين. والظاهر أن صلب ثلاثة أشخاص يستغرق وقتًا أطول من صلب شخص واحد.

✪ ورد في يوحنا ١٩: ١٤: "وكان استعداد الفصح، ونحو الساعة السادسة، فقال لليهود: هوذا ملككم".
وقال النصارى في تفسيره ما نصه:
"كان ذلك ما بين الساعة الثالثة والساعة السادسة، إذ رُفع على الصليب في تمام الساعة السادسة.
تحدث الإنجيلي مرقس (١٥: ٢٥) عن صلب السيد المسيح في وقت الساعة الثالثة حيث حسب الجلدَ منذ بدأ جلد السيد، أما الإنجيلي يوحنا فحسبه وقت الساعة السادسة حيث بدأ رفعه على الصليب.
يرى البعض أن الساعة السادسة هنا حسب التوقيت الروماني حيث يبدأ اليوم الجديد من منتصف الليل وليس كالتوقيت اليهودي الذي استخدمه الإنجيليون الآخرون، حيث يبدأ اليوم من الغروب إلى الغروب، أي السادسة صباحًا حيث كاد أن يصدر الحكم وتبدأ الإجراءات الفعلية للصلب. وفي بعض المخطوطات وبعض نصوص الآباء جاءت "نحو الساعة الثالثة" وليس "السادسة"."
(تفسير العهد الجديد من تفسير وتأمُّلات الآباء الأولين، القمص تادرس يعقوب ملطي كنيسة الشهيد مار جرجس بإسبورتنج)
http://www.alkalema.us/newtestament/john19.htm
(المترجم)

ثم هناك أمر آخر لا يعرفـــه المسلمون عمومًا، ولا النصارى لجهلهم بديانتهم. ذلك أن الصلب في ذلك العصر لم يكن كعملية الإعدام في هذه الأيام. وإنما كانوا أولاً يغرزون لذلك خشبة شكلها كالآتي:

✝

ثم كانوا يوقفون المجرم مع هذه الخشبة ويمدّون يديه إلى الجانبين ويشدّونهما بها. ثم يدقّون المسامير في اللحم اللين من ذراعيه وساقيه، ثم يتركونه هكذا معلقًا على الخشبة ليموت بآلامه جائعًا وعطشًا. وأحيانًا كانوا يدقّون مسامير إضافية في راحتيه. ويعرف الملمّون بعلم تشريح الأبدان أن دقّ المسامير على هذا النحو لا يقضى على حياة الإنسان فورًا، إذ لا تُدق المسامير في العظام، بل في اللحم اللين من الأطراف والأرجل. لا شك أن دق المسامير في اللحم خطير ومؤلم جدًّا - بل إن بعض الناس يطلقون صرخات ألم شديدة عند الحقنة العادية - إلا أنه من الحقائق التي لا يحوم حولها الشك أن طريقة الصلب هذه ما كانت تقضي على المجرم فورًا، بل كان الموت يأتيه ببطء في عدة أيام لشدة آلام الجروح. إن تلك الطريقة كانت أكثر فزعًا ورهبة، حيث كان المصلوب يصاب بأذى نفسي شديد، بمعنى أنه يتأذى برؤية أنهم قد أتوه الآن بالمسامير، ثم أتوه بالمدق، ثم وضعوا المسمار على جسمه، ثم حملوا المدق، ثم بدأوا يدقونها في جسمه، وهذه كلها أمور تنطوي على

عنصر الرهبة الشديدة وتصيب النفس بصدمة كبيرة جدًّا. أما مجرد شق اللحم فما يصيب المجرم بأذى يفوق احتماله. فكم من ضربة سيف يتلقاها المرء أثناء القتال حتى تقطع أوصاله، ولكن ضربة السيف لا تصيبه بالهول الشديد لأنها تقع عليه بسرعة وفجأة، وأحيانًا لا تسبب له الأذى الذي يناله بإبرة حقنة علاجية، لأنه لا يشعر بها إلا بعد أن يقطع السيف جسمه، بل أحيانًا يحمد الله تعالى عندما يرى أن السيفَ قد قطع اللحم دون العظم. ولكن الطبيب عندما يأخذ إبرة الحقنة بيده فيظن البعض أنه ربما سيذبحه، فيستولي عليه هلع وذعر بشكل غير عادي. وبالمثل إنّ دق المسمار في جسم المرء يصيبه بذعر شديد لأنه يفكر فيما سيُفعل به بعد ذلك.

فلا غرو أن ما جرى مع المسيح عليه السلام قد آذاه أذى نفسيًّا شديدًا جدًّا، ولكنه ما كان أذى يقضى على حياة المرء. كان المسيح مرهف الحس، فشعر بهذا القدر من الأذى بشدة، حتى أغميَ عليه، ولكن السارقَين المعلَّقَين على يمينه وشماله ما زالا يتمازحان فيما بينهما، بل إن أحدهما سخر بالمسيح قائلا: "إن كنت أنت المسيحَ فخلِّصْ نفسك وإيانا." فنهره زميله وقال ألا تخاف اللهَ. أما نحن فنلقى جزاء ما فعلنا، وأما هذا فإنه لم يفعل شيئًا (انظر لوقا ٢٣: ٣٩-٤١). فترون أنهما يتمازحان وهما معلقان على الصليب بجنب المسيح ولا يباليان بما فُعل بهما، لأنهما من

الذين قد قست قلوبهم والذين قد تعودوا على احتمال مثل هذا العناء والمشقة. فهناك أسرة مسلمة أحمدية في كشمير كانت حاكمة على مظفر آباد، ولكن المهاراجا أغار عليهم وهزمهم وأخذهم أسرى إلى عاصمته سرينغر، وجعل لهم معاشًا. وحدث هذا في عهد المهاراجا رنبير سنغ، وهو الذي كان سيدُنا الخليفةُ الأول للمسيح الموعود ؑ يعمل عنده كطبيب ملكي. وكان هذا الحاكم المسلم لمظفر آباد فتى جلدًا جميلاً، وكان المهاراجا معجبًا بفتوته وجماله. وذات يوم سقط هذا الفتى من الحصان أثناء لعبة "بولو"، وكُسرت يده. فخضع للعلاج، وجُبر العظم ولكن ظل فيه اعوجاج. وذات يوم سأله المهاراجا وهو في بلاطه: كيف حالك الآن؟ هل جبر العظم؟ قال: نعم. قال: أَرِني. فمد إليه يده، فلما رآه قال: إن العظم لم يجبر على ما يرام، بل فيه عوج، وهذا عيب على هذا الفتى الجميل. لم لم تخبرني حتى آمر طبيبي الخاص بعلاج يدك على ما يرام. وكان هذا الفتى جالسًا أمامه على كرسي، فضغط على يده بكل سكينة ووقار وكسرها مرة أخرى، وقال للمهاراجا: حسنًا، مُرْه الآن بعلاجي. فأخذت المهاراجا دهشةٌ كبيرة وكاد يسقط مغشيًّا عليه، فخرج من البلاط إلى مخدعه.

فيوجد في هذه الدنيا ذوو القلوب القوية كهؤلاء الذين لا يكترثون لمثل هذه الأمور. ولكن المسيح ؑ كان إنسانًا مرهف

الحس فأُغمي على المسيح حين عُلِّق على الصليب، بينما كان اللصان المعلقان معه يمزحان ويسخران، وعندما أفاق بدأ يئنّ من شدة الألم وهو في كامل الوعي والحواس، إذ يقول الإنجيل أن أمه جاءته في تلك الآونة، فلما رآها أخذته الرقة، حيث فكّر في معاناة أمه التي ترى ابنها في هذا الوضع، فقال للحواري "توما" وهو يشير إلى أمه: هذه أمّك. وقال لأمه: هذا ابنكِ (يوحنا ١٩:٢٦-٢٧).

علمًا أن البعض يخطئون في تفسير كلمة "توما"، فيظنون أن معناها "التوأم" أي الأخ الذي يولد معك في وقت واحد، ثم يقولون بناء على هذا التفسير الخاطئ أن المسيح لم يولد من غير أب. ولكن هذا غلط، لأن "توما" باللغة العبرانية تعني أخًا من الرضاعة. وهذا يعني أن المرأة التي أرضعت المسيح أرضعت أيضًا "توما"، أو أن السيدة مريم أرضعت "توما" أيضًا، وهكذا كان "توما" أخا المسيح من الرضاعة.

على أي حال، لقد أشار المسيح بهذا الكلام الوجيز اللطيف إلى أمر حكيم، حيث قال لتوما إنه معلق على الصليب الآن، وأنه على يقين بوعود الله معه، ولكن من الممكن أنه لم يفهم هذه الوعود الإلهية كما ينبغي، فربما قد اقترب أجله، لذا هو يسلّم أمه إليه. كما التمس من أمه أن تعتبر "توما" ابنًا لها.

ونرى أن المسيح إذا كان قد عبّر عن حبه لأمه في أي موضع من الإنجيل فقد كان في هذا الموضع، وإلا فربما يظن قارئ الإنجيل أن المسيح لم يحب أمه كما يجب.

قصارى القول إن المسيح ظل على الصليب في هذه الحالة، فكان يغشى عليه مرة، ويفيق أخرى. وكان الحراس الذين أمرهم بيلاطس بحراسته يكنّون لـــه الحب، فلما رأوه لا يستطيع تحمُّل تلك الآلام، أسرعوا وملَئوا إسفنجة خمرًا ومرًّا وسقوه إياها.

علمًا أن الإنجيل يقول إنهم قدّموا له إسفنجة مليئة خلاً (مرقس ١٥: ٣٦)، ولكن ما ذكرناه هو الثابت تاريخيًّا (راجع الموسوعة اليهودية تحت كلمة Cross).

إن المسيحيين يركزون أحيانًا على قولهم أن اليهود قد ظلموا المسيح لدرجة أنهم سقوه إسفنجةً ممزوجة خمرًا ومرًّا وهو يئن تحت وطأة الآلام. ولكن الكتب الرومانية تؤكد أنهم إذا أرادوا أن يرفقوا بمصلوب وينقذوه من الآلام قدموا لـــه مزيج الخمر والمر (الموسوعة اليهودية كلمة Crucifixion). نحن لا ندري ماذا يقول الطب عن هذا المشروب، ولكن كان الاعتقاد السائد عندهم أنه يخفف من آلام شاربه. إذن فإن هذا الحادث أيضًا يكشف أن الذين أُمروا بحراسة المسيح كانوا من أتباعه في الخفاء، فحاولوا تخفيف آلامه قدر الإمكان.

هذا، وقد ذكرتُ من قبل أن المسيح عُلّق على الصليب في الساعات الأخيرة من يوم الجمعة، وكان يوم السبت يبدأ بمغيب الشمس؛ علمًا أن الناس في هذه الأيام يعتبرون بداية اليوم الجديد من منتصف الليل، ولكن في الإسلام يبدأ اليوم الجديد بغروب الشمس، وهذا الطريق نفسه كان متبعًا عند بني إسرائيل. فبما أن يوم السبت كان سيبدأ بغروب الشمس، وحيث إن اليهود كانوا يعتقدون أن المصلوب لو تُرك على صليبه في السبت نـــزل غضب الله (يوحنا ١٩: ٣١)، فحذّر بيلاطس اليهودَ أنه لو بدأ السبت والمسيحُ على صليبه لحل بهم العذاب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هبّت بأمر الله تعالى ريح عاصفة صارت بها الأرض مظلمة (انظر مرقس ١٥: ٣٣)؛ فازداد اليهود خوفًا من أن يبدأ السبت والمسيحُ على الصليب، فالتمسوا من بيلاطس إنـــزاله (انظر يوحنا ١٩: ٣١).

ولو أن المسيح الطَّيْكِلاً قد أُنـــزل من الصليب قبل مغيب الشمس بثلثي الساعة أو نصفها، فإن فترة بقائه على الصليب قلّت بهذا المقدار. فإذا كان عُلق في الساعة الثالثة والنصف، وإذا كانت الشمس غابت في الساعة السابعة، فصارت مدة بقائه على الصليب ثلاث ساعات ونصف الساعة؛ ولكنهم أنـــزلوه قبل مغيب الشمس بحوالي ثلثي الساعة أو نصفها بسبب العاصفة والظلمة خوفًا من أن يبدأ السبت؛ فلو طرحنا هذا الوقت لكانت

المدة الحقيقية لبقائه على الصليب قرابة ساعتين ونصف الساعة أو ثلاث ساعات. بينما كان بعض الناس لا يموتون على ذلك الصليب رغم بقائهم معلقين عليه سبعة أيام، وما كانوا يموتون إلا من جراء شدة الجوع والعطش أو نتيجة سريان سمّ الجروح في الجسم.

وكان من عادتهم أن يكسروا عظام الذين يُنـــزلون من على الصليب وهم أحياء، ولكن بما أن حراس المسيح كانوا من مريديه في الخفاء، فكسروا عظام اللصين، ولم يكسروا عظام المسيح. علمًا أن الصلب يعني في الحقيقة إخراج مخ العظام بكسرها، ومنه جاءت تسمية "المصلوب" لأن معظم الناس كانوا لا يموتون على الخشبة، فكانوا يكسرون سيقانهم ويخرجون مخها. ولكن الثابت أنهم لم يكسروا ساقَي المسيح (انظر يوحنا ١٩: ٣٣).

ومن الأدلة على نـــزول المسيح ﷺ من على الصليب حيًّا ما ورد في الإنجيل أن المسيح عندما أُنـــزل جاء أحد الجنود سريعًا وطعن جنبه بحربة طعنًا خفيفًا، فخرج منه الدم والماء (انظر المرجع السابق: ٣٤).

و"خروج الدم والماء" منه ليس مصطلحًا لـــه مدلول خاص، إنما معناه أنه خرج من جسد المسيح الدم السائل. أما لو أُخذ بيان الإنجيل حرفيًا لكان معنى ذلك أن الدم والماء شيئان مختلفان, بمعنى أن في الدم شيئًا آخر غير المادة السائلة التي تجعله سائلا، مع أن

الأمر ليس كذلك. فليس المراد من ذلك إلا أنه خرج من جسد المسيح الدم السائل. ولكن الحراس أشاعوا بين القوم أنه قد مات، فلا حاجة لكسر سيقانه.

ويبدو أن اليهود أيضًا كانوا خائفين في قلوبهم، وكانوا يدركون في قرارة نفوسهم أنهم قد عاقبوا البريء البار، ومن أجل ذلك أصابهم الذعر الشديد حين جاءت العاصفة التي أظلمت الأرض، وظنوا أنها عذاب من الله تعالى، فارتدعوا عن المزيد من العناد والإصرار، وقالوا: حسنًا، إذا كان قد مات فادفنوه.

إن كل هذه الأمور مجتمعةً توضح أن موت المسيح على الصليب في تلك الظروف مستحيل. ذلك أن الآخرين كانوا لا يموتون على ذلك الصليب حتى في سبعة أيام، فكان المسؤولون يضطرون لكسر سيقانهم ليموتوا، فكيف مات على الصليب في ثلاث ساعات ونصف، بل في أقل من ذلك، وبخاصة أن الحراس كانوا من أتباعه سرًّا، فلم يدخروا وسعًا في التخفيف من آلامه ولم يألوا جهدًا في إنقاذه من الموت؟

ومن الأدلة على عدم موت المسيح على الصليب أنهم لما أنزلوه من على الصليب جاء يوسف الراميّ إلى بيلاطس وطلب منه تسليم جسد المسيح إليه، فأمر بتسليم جسده إليه (متى ٢٧: ٥٨). فذهب يوسف الراميّ بجسده، ووضعه في قبر.

وليكن معلومًا أن ذلك القبر ما كان كالقبور التي عندنا، إذ لو وُضع أحد في قبورنا لبعض الوقت لانقطعت أنفاسه فورًا، إنما كان ذلك القبر غرفة واسعة محفورة في الصخر (متى ٢٧: ٦٠). ثم إن يوسف الراميّ كان قد أغلق باب القبر بحجر (المرجع السابق)، كيلا يشك الناس في الأمر، وفي الوقت نفسه يدخل الهواء في القبر.

إن هذه الأحداث كلها تؤكد أنه كان من المستحيل أن يموت المسيح على الصليب في هذه الظروف. لا شك أن الإنسان يمكن أن يموت وهو يمشي، أو يقوم من مجلسه، ولكنا لا نناقش هذا الأمر هنا، وإنما الأمر الذي نناقشه هو أن الظروف التي مر بها المسيح لا يموت فيها المرء عمومًا بل يعيش، لذا فإن موت المسيح في تلك الظروف محال. إذ لم يزل مع المسيح منذ بداية الحادث إلى آخره رجال من مريديه أو أصدقائه أو نصحائه، فحاولوا جاهدين إنقاذه.

ومما يدل على أنهم كانوا ناصحين للمسيح أنه لما أُنـــزل من على الصليب ووُضع في القبر طلب اليهود من بيلاطس أن يأمر بحراسة قبره إلى اليوم الثالث إذ كان يدعي بأنه سيعود إلى الحياة بعد ثلاثة أيام كيونان النبي. ولكن بيلاطس رفض أن يعطيهم حراسًا من قبل الحكومة وقال لهم: "عندكم حرّاس، اذهبوا واضبِطوه كما تعلمون" (المرجع السابق: ٦٥). وكان قصد بيلاطس من رفضه هذا أنه لو عيّن على قبره حراسًا من قبل الحكومة فلن

يستطيع المسيح أن يخرج من القبر، إذ لو تشاجر المسيح مع الشرطة لكان ذلك خروجًا منه على القانون؛ أما إذا حرس قبره بعض عامة الناس لسهل على المسيح الدفاع عن نفسه. فرفض أن يبعث الشرطة لحراسة قبره.

ثم إن الأحداث التي جرت بعد ذلك أيضًا تؤكد أن المسيح ؑ لم يمت على الصليب. ذلك أن المسيح إذا كان قد عاد إلى الحياة بعد الموت، فهذا يعني أنه عاد ابنًا لله ثانية، فما كان عليه أن يخشى الناس عندها. ولكنا نقرأ في الإنجيل أن المسيح كان، بعد حادث الصليب، ينتقل من مكان إلى مكان مختفيًا عن أعين الناس، وكان يقول لأصحابه أن لا يخبروا أحدًا أنه حي؛ بل يتضح من الإنجيل أنه لم يخبر حوارييه أيضًا بمكان إقامته. ومن المحتمل أنه قضى تلك الأيام في دار يوسف الراميّ، إذ ورد أن المسيح كان يظهر فجأة، ثم يغيب بعد قليل. وذات مرة جاء إلى حوارييه، فرأوه بأم أعينهم ومع ذلك لم يصدّقوا أنه المسيح حقًّا. فقال لهم: هل عندكم شيء للأكل؟ فأعطوه قطعة من السمك وشيئًا من العسل. فأكل أمامهم فأيقنوا أنهم يرون المسيح نفسه (لوقا ٢٤: ٣٦-٤٣).

والبديهي أن الروح وحدها لا تتصرف هكذا أبدًا، وإنما الإنسان الحي من جسد وروح هو الذي يقوم بمثل هذه الأفعال. فبما أن المسيح ؑ كان يستوجب الإعدام وفق قانون الحكومة، وبما أنه كان سيتعرض للصلب مرة أخرى لو وقع في أيدي

الشرطة، فكان لزامًا عليه أن يعيش في الخفاء والسرية، ويخفي مكان إقامته عن الحواريين أيضًا.

إذن، فإن فقرات الإنجيل هذه تدل بما لا يدع مجالا للشك أن المسيح لم يمت على الصليب، بل نـــزل من الصليب وهو حي، ومكث في القبر وهو حي، وخرج من القبر وهو حي، وأخبر الحواريين أنه حي.

ومن الطريف أن الإنجيل يخبرنا أنه لما بلغ الحواريَّ "توما" أن المسيح حي قال: "إن لم أُبصِرْ في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضعْ يدي في جنبه، لا أومن". فدعاه المسيح وقال لـــه: "هاتِ إصبعك إلى هنا، وأَبْصِرْ يديَّ، وهاتِ يدَك وضَعْها في جنبي"، لتعلم أني أنا المسيح، ولستُ روحًا. (يوحنا ٢٠: ٢٤-٢٧).

إن كل هذه الأحداث لتكشف بكل وضوح وجلاء أن نبوءة المسيح بأنه سيُري قومه آية يونان النبي قد تحققت مائة بالمائة. إنهم علّقوا المسيح الذي كان من لحم ودم، ولكنه نـــزل من الصليب حيًّا، ثم دخل القبر حيًّا، وخرج منه حيًّا، ثم لم يزل يختفي عن أعين الناس لأن قانون ذلك البلد لم يسمح لـــه بالعيش فيه؛ وهذا هو التدبير الخفي الذي دبره الله تعالى كي يضطر المسيح للهجرة إلى بلاد أفغانستان وكشمير، بحثًا عن خراف بني إسرائيل الضالة. كان الله تعالى على علم بأن المسيح لن يرى العيش تحت ظل تلك

الظروف أمرًا حكيمًا، وسيخرج بعدها عن طيب خاطر إلى تلك القبائل الضالة التي بُعث من أجل هدايتها وإصلاحها. وهذا ما حصل بالضبط. فلما رأى أن عيشه في فلسطين قد أصبح أمرًا مستحيلا سافر إلى بلاد الشرق، وما زال يبلغ رسالات الله إلى القبائل اليهودية العشر المستوطنة في أفغانستان وكشمير.

إن الجزء الباقي من هذا البحث لا يتعلق بالكتاب المقدس، وإنما يتعلق بتاريخ أفغانستان وكشمير وبعض الروايات القديمة للأفغان. وقد ألقى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام الضوء على هذا الموضوع مفصلاً في كتابه "المسيح الناصري عليه السلام في الهند"، وأثبت بالشهادات التاريخية أن المسيح عليه السلام قد هاجر بعد حادث الصليب إلى أفغانستان وكشمير.

وعلاوة على ذلك، فإن بحوثًا أخرى تؤكد أن نبيًّا جاء إلى كشمير مهاجرًا من جهة الغرب، وكان يسمى النبي الأمير، وكان في يديه ورجليه آثار الجروح، وقد بلّغ أهل كشمير رسالات الله تعالى.

خلاصة القول

وأعود فأقول: إن الله تعالى قد ذكر في مقطعة "كهيعص" أربعًا من صفاته سبحانه وتعالى لإبطال المسيحية، وهي: الكافي والهادي والعليم والصادق. وكما قلت في البداية إن صفتي الكافي والهادي تابعتان لصفتي العليم والصادق، لأن العليم يكون كافيًا أيضًا، ولأن

الصادق يكون هاديًا أيضًا؛ ذلك أن الطبيب إنما يفشل في علاج مرض من الأمراض إذا كان علمه ناقصًا، أو إذا كان فحصه ناقصًا وإن كان علمه كاملاً، لأنه في كلتي الصورتين سيصف دواء خاطئًا، ولكن الطبيب العليم سيعلم المرض جيدًا، ويصف الدواء الناجع أيضًا.

أما الصادق فمعناه المخلص والوفي، وأي شك أن الصديق المخلص الوفي سيكون هاديًا لصديقه، إذ كيف يمكنه أن يرى صديقه وحبيبه المستحق لرحمته وهو يغرق ثم لا يسعى لإنقاذه، أو يراه يهلك ثم لا يحاول أن يحميه.

إن جميع المسائل المتعلقة بالمسيحية إنما تدور حول هذه الصفات الإلهية الأربع. إن المسيحيين أخطئوا في فهم صفات الله العليم والكافي والهادي والصادق، فاختلقوا من عندهم عقائد فاسدة. فبما أن الله تعالى قد تحدث في هذه السورة عن المسيحية فاستهلّها خاصة بذكر هذه الصفات الأربع التي تبطل عقائد المسيحيين الخاطئة.

لقد ذكرت من قبل أنه قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قد قال في مقطعة "كهيعص" أنها ترمز إلى صفات الله تعالى. وهناك رؤيا قديمة لي تدعم هذا الأمر.

ذات مرة كنت قادمًا من السند، فرأيت خلال هذا السفر رؤيا بأن شخصًا يقول لي: أنت أيضًا مذكور في "كهيعص". فحيث إن

عملي هو في الواقع عمل سيدنا المسيح الموعود ﷺ، وأن حضرته مثيل للمسيح الناصري عليهما السلام، فثبت أنني مذكور في هذه المقطعة. ذلك أن هذه المقطعة إذا كانت تتحدث عن المسيحية، فلا بد أن يكون فيها ذكرُ المسيح الموعود ﷺ أيضًا. إن هذه المقطعة تتحدث عن المسيحية من حيث كون المسيحيين قد أخطئوا في فهم صفات الله الكافي والهادي والعليم والصادق فاختلقوا لأنفسهم مذهبًا خاطئًا، وإنها تتحدث عنا أيضًا، أعني عن المسيح الموعود وجماعته، من حيث إننا قد أبطلنا عقائد المسيحيين على ضوء الصفات المذكورة في هذه المقطعة القرآنية. وهذا يعني أن هذه المقطعة تتحدث عن أتباع المسيح الناصري وكذلك عن أتباع المسيح الموعود المحمدي، ولكنها تتحدث عن المسيحيين من حيث إنهم لم ينتبهوا إلى هذه الصفات الإلهية فضلّوا عن سواء السبيل، بينما تتحدث عن جماعة المسيح الموعود ﷺ بمعنى أن هذه الصفات الإلهية نفسها ساعدتنا، فقضينا بها على المسيحية.

والحق أن كل الأعمال الروحانية إنما تدار بالصفات الإلهية، ولو أن أحدًا نال علمًا صحيحًا لتمكّنَ بمساعدة الصفات الإلهية وحدها من دحض جميع الأديان المنحرفة وإثبات بطلانها.

المراجع والمصادر

المراجع العربية

القرآن والحديث

* القرآن الكريم

* الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت

* محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان، البحر المحيط

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري

* العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني إدارة الطباعة المنيرية بمصر

* أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، فتح البيان

* الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري

* الإمام مسلم بن حجاج، صحيح مسلم

* الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل

السيرة والتاريخ وغيرهما

* ابن هشام، السيرة النبوية الجزء الثاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م

* ابن سعد، الطبقات الكبرى المجلد الأول (السيرة النبوية الشريفة) دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت عام ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م

* العلامة عبد الباقي الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، دار المعرفة بيروت عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

* العلامة عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م

* الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة

* العلامة عبد الرحمن بن خلدون، الجزء الثالث: من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

* أبـــو الفدا الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، الطبعة الأولى عام ١٩٦٦م مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياض السعودية

* محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس

*سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد

* الكتاب المقدس طبعة العيد المئوي عام ١٨٨٣- ١٩٩٣م دار الكتاب المقدس بمصر

* الكتاب المقدس، ترجمة تفسيرية، تم جمعه في جي سي سنتر مصر الجديدة – القاهرة، الطبعة الرابعة عام ١٩٩٢م

* تفسير العهد الجديد من تفسير وتأمُّلات الآباء الأولين، القمص تادرس يعقوب ملطي كنيسة الشهيد مار جرجس بإسبورتنج

http://www.alkalema.us/newtestament/john19.htm

المراجع الإنجليزية

* Life of Mahomet by Sir William Muir LL.D. London Smith Elder & Co., 15 Waterloo Place. 1878.

* The Koran; Rev: J.M. Rodwell M.A Chap. LVIII. Page:117, Edition 1915. London& Toronto. Published by J.M. Dent & Sons Ltd & In New York by E.P Dutton & Co.

* A Comprehensive Commentary on the Quran, by: E.M Wherry Vol III, Page 100. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co Ltd. Paternoster House, Charing Cross Road. 1896

* Encyclopedia Britannica Vol 13 Edition 1950, under word "Jews"

* Encyclopedia Biblica Vol 1, Page 979-981, First Edition. London: Adam and Charles Black. MDCCCXIX

* Jewish Encyclopedia, Edition 1904, by: Funk & Wagnalls company, Registered at Stationers Hall, London, England, Printed in the U.S.A.

* Jesus Died in Kashmir. Jesus, Moses and the ten lost tribes of Israel, by: A. Faber Kaiser Gorden & Cremonesic

* Jesus in Heavens On Earth, P. 368-369 by: Al – Haj Khwaja Nazir Ahmad, The Woking Muslim Mission & Literary Trust, The Mosque Woking England & Azeez Manzil, Brandreth Road, Lahore Pakistan

* Sunday Pictorial, London Issue 6th & 13th November, and 28th December 1955

* Lancet, London 1955

المراجع الأردية

☆ حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، آئینہ کمالات اسلام (طبعہ روحانی خزائن)، پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان

☆ حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، سرمہ چشم آریہ (طبعہ روحانی خزائن)، پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان

☆ حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، جنگ مقدس (طبعہ روحانی خزائن)، پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان

☆ اخبار الفضل ۲۷ نومبر ۱۹۵۶ء

☆ کتاب مقدس یعنی پرانا اور نیا عہد نامہ، برٹش اینڈ فارن بائیبل سوسائیٹی، انارکلی لاہور پاکستان

☆ کتاب مقدس یعنی پرانا اور نیا عہد نامہ، ہندوستان کی بائیبل سوسائیٹی، مہاتما گاندھی روڈ بنگلور انڈیا

☆ قاموس الکتاب از ایف ایس خیر اللہ، مسیحی اشاعت خانہ، فیروز پور روڈ لاہور پاکستان